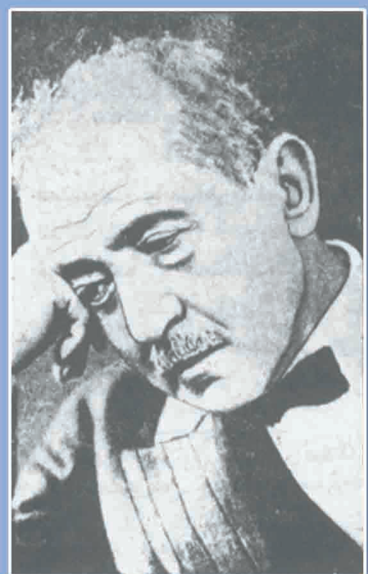
الإلهام وفن الشعر

عند أمير الشعراء

أحمد شوقي



الإلهام وفن الشعر عند أمير الشعراء أحمد شوقي

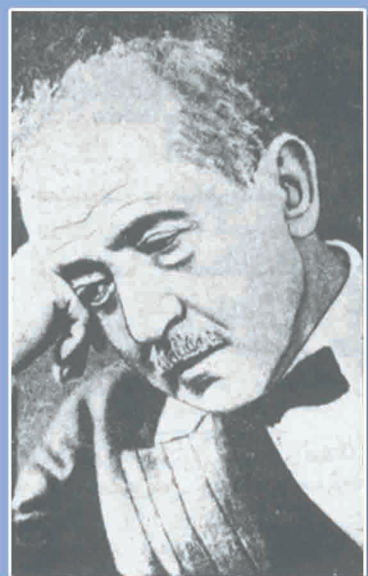
AHMAD SAWQI
L'HOMME ET L'ŒUVRE

الكويت
2006

الإلهام وفن الشعر

عند أمير الشعراء

أحمد شوقي



الإلهام وفن الشعر عند أمير الشعراء أحمد شوقي

AHMAD SAWQI
L'HOMME ET L'ŒUVRE

الكويت
2006

الإلهام وفن الشعر

عند أمير الشعراء

أحـمـد شوقــي

وجهة نظـر فرنسيـة

أنطوان بودولاموت

ترجمة

د. محمود المقداد

الكويـت

2006

راجع هذا الكتاب وأشرف على طباعته

محمود إبراهيم البجالي

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محمد العلي

العنوان الأصلي للكتاب

AHMAD SAWQI
L’HOMME ET L’ŒUVRE

من منشورات:

INSTITUT FRANÇAIS DE DAMAS

1977

طبعة خاصة بموجب إذن من المعهد الفرنسي للشرق الأوسط في دمشق

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـــر

لم يكن أمير الشعراء أحمد شوقي موضوع دراسات من جانب النقاد والكتاب العرب فحسب، بل إن ظاهرة شوقي تجاوزت إلى العالم الغربي، فكتبت عنه الأبحاث والكتب، ومن تلك الكتب كتاب مهم بعنوان «أحمد شوقي: حياته وآثاره» كتبه المستشرق الفرنسي أنطوان بودولاموت ونشره المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٧٧، ولعل هذا الكتاب من أهم الكتب إن لم يكن أهمها وأشملها، التي كتبها ناقد غربي عن أحمد شوقي.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب فإن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري قد أعادت طباعته بالتعاون مع المعهد، وباللغة الفرنسية التي صدر بها وبكامل فصوله، ليكون ضمن إصدارات الدورة العاشرة للمؤسسة «دورة شوقي ولامارتين».

وحتى يطلع القارئ العربي على بعض وجهات النظر الغربية حول أمير شعراء العربية، سعت المؤسسة إلى ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، فأذن المعهد الناشر للكتاب مشكورًا بذلك، وقد استقر الرأي على الاكتفاء بترجمة أهم فصلين في الكتاب وهما: مصادر الإلهام عند شوقي، والفن الشعري عند شوقي، وذلك لأهمية هذين الفصلين وغزارة مادتهما وشموليتهما، حيث عرض الفصل الخاص بمصادر الإلهام هذه المصادر وهي: مصر الفرعونية والإسلام وتركيا العثمانية ومصر الحديثة، ثم المناسبات المتعددة، ثم الأساطير.

واعتنى الفصل الآخر بدراسة موضوعات مثل: شوقي والقدماء، والمطالع الشعرية والظواهر الأسلوبية والبحور الشعرية المستخدمة في الشوقيات والقوافي والمعجم اللغوي في آثار شوقي.

وإذ آمل أن يكون في هذا الكتاب إضاءات هامة لمسيرة شوقي الفنية، واطلاع لقراء العربية والمتخصصين في الأدب والشعر على وجهة نظر غربية شاملة قدر الإمكان عن أمير الشعراء، فإنني أشكر المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بدمشق الذي أذن بالترجمة، كما أشكر الدكتور محمود المقداد مترجم هذا الكتاب، والباحثين في المؤسسة ممن تولوا مراجعته وإعداده للطبع.

ولله الحمد أولاً وآخرًا.

عبدالعزيز سعود البابطين
الكويت
السادس من رمضان ١٤٢٧هـ
الموافق ٢٨ من سبتمبر ٢٠٠٦م

****

مقدمة المترجم

الحمد لله الرحمن، الذي خلق الإنسان، وعلَّمه البيان، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين، وآله المطهرين، وصحبه المخلصين، وبعد :

(١)

فقد كانت الألسنة آية من آيات الله تعالى في خلقه، ووسيلة من وسائل التعارف والتعاون بين الشعوب، وقد نشأت في الغرب حركة استشراق، وكان من فروعها المهمة (حركة الاستعراب)، وكانت فرنسا قدوة في هذا الميدان لغيرها من بلدان أوربا والغرب عموماً . وكانت حركة الاستعراب الفرنسية قد نشأت في أول أمرها نشأة معرفية خالصة، تلبية لحاجة النفس إلى معرفة القوم الذين يعيشون على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، وما صنعوا من حضارة عريقة أثَّرت في مجرى التاريخ، وعطفته عن مساره القديم، نحو السمو الإنساني والرقي الأخلاقي وتحكيم العقل والحق في العلاقة بين الشعوب . ثم حُمِّلت هذه الحركة ما حُمِّلت من أهداف وغايات لخدمة المصالح المادية لبعض طبقات المجتمع التي تصنع القرار في بلدانها، والتي لا تستطيع أن تعيش أو يهنأ لها بال إن لم تخطف ما في يد الآخرين من خيرات .

(٢)

وقد أحبّ (أنطوان بودولاموت) A. Boudot-Lamotte، مؤلِّف هذا البحث، أن يسهم في تعريف الفرنسيين بأمير شعراء العرب، حتَّى يعرفوا رقعة مهمة من مساحة الأدب العربي في العصر الحديث، بأطروحة دكتوراه كانت بإشراف المستعرب الفرنسي

الكبيـر (شـارل بيـلا) Charles Pellat، وهو الذي اختـصّ بالجـاحظ وآثاره وعـرّف الفرنسيين بها، فكان كتابه الضخم (أحمد شوقي : حياته وآثاره)، الذي نشره (المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق) سنة ١٩٧٧ . ويتألف من أربعة فصول هي :

- **الفصل الأول - حياة شوقي من المولد إلى الوفاة**
- **الفصل الثاني - مصادر الإلهام عند شوقي**
- **الفصل الثالث - فن الشعر عند شوقي**
- **الفصل الرابع - المسرح الشعري عند شوقي**

وكنت قد هممت سنة ١٩٩٦ بترجمة هذا البحث، غير أن جملة من الصوارف صرفتني عن تحقيق هذه الرغبة الملحة، حتّى كان لقاء بيني وبين الصديق الفاضل الدكتور عدنان محمد غزال، الأستاذ المساعد في جامعة الكويت، حدّثني فيه عن عمله في معارضات الشعراء لنونية ابن زيدون (أضحى التنائي) وغيرها من القصائد، وعن حضوره الندوة التي عقدت عن هذا الشاعر الأندلسي الكبير في ربوع الأندلس نفسها، برعاية مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري العربي، ضمن سلسلة طويلة من الندوات التي تخلّد بها ذكرى كبار شعراء العربية، ثم ذكر ندوة ستقام في باريس عن (شوقي) شاعر العرب و(لامارتين) Lamartine شاعر الفرنسيين، فقلت له إن أحد المستعربين الفرنسيين له بحثٌ عن شوقي في أطروحة جامعية بباريس . ثم فاجأني في لقاء آخر بأنه نقل الخبر إلى بعض المسؤولين في تلك المؤسسة، فطلب إليَّ تقديم نسخة من الكتاب مع تصوُّر لمحتوياته بالتفصيل . ومنذ أكثر من شهرين تم الاتصال بي لترجمة الفصول المهمة الخاصة بعملية الإبداع الشعري عند شوقي، فاقترحت ترجمة الفصلين الثاني والثالث من الكتاب، نظراً لأن الفصل الأول يتعلّق بحياة شوقي ومراحلها الخمس، وهي :

١ - **النشأة والتحصيل الدراسي (١٨٦٨-١٨٨٧)**

٢ - **التحصيل العلمي بباريس (١٨٨٧-١٨٩٢)**

٣ - **العودة إلى مصر والعمل في قصر الخديوي عباس الثاني (١٨٩٢-١٩١٤)**

٤ - **النفي إلى برشلونة بإسبانيا (١٩١٤-١٩١٩)**

٥ - **العودة إلى مصر بعيداً عن القصر والإدارة (١٩١٩-١٩٣٢)**

وتفاصيل ذلك معروفة يلم بها شداة الأدب، وأما الفصل الرابع فيتعلق بمسرح شوقي الشعري، وهو تجربة فريدة وضعيفة، وقد أهملنا ترجمته لأن الذوق العربي العام لا يستسيغ (المسرح الشعري) عموماً، كما لا يستسيغ مثلاً (الغناء الأوبرالي) أو (الملاحم الشعرية) . ولهذا تم تغيير عنوان المتَرْجَم من البحث ليصبح (الإلهام وفن الشعر عند أمير الشعراء أحمد شوقي) .

(٣)

ويسرد الخديوي المخلوع عباس حلمي في مذكراته التي كتبها بالفرنسية بعد وفاة شوقي بعنوان (عهدي)، وصفاً لشوقي وشعره في المرحلة الثالثة من حياته، فيقول: (تمكَّن أحمد شوقي بك، العبقري، ذلك الرجل الذي عرفته وأحببته، والذي كان مديراً لإدارتي العربية، من أن يحقِّق للغة العربية وللفكر الوطني نهضة عظيمة . وكان صغير السن، وكان كلاسيكيّاً، وكانت قصائده تظهر في الصباح لكي يتغنى بها الناس في المساء في جميع أنحاء البلاد . وكانت كلمته متَّسِقة مع الروح الجديدة لمصر)، وهذه شهادة صادقة من حاكم مصر لمدة ٢٢ سنة، كان خلالها على اتصال شبه يومي تقريباً بالشاعر .

(٤)

ويبدو لنا هذا الانطباع متناقضاً مع ما قرأه الناس في كتاب (الديوان) الذي صدر في القاهرة سنة ١٩٢٠ للثلاثي الشاب العقاد والمازني وشكري : فمن قرأ هذا الكتاب في نقد شوقي وتحطيم شعره والحكم الأدبي عليه بالإعدام شنقاً حتى الصمت، كان يظن أن شوقي لن تقوم له قائمة، غير أن شوقي بويع له بعد سبع سنين فقط، أي سنة ١٩٢٧، بإمارة الشعر من قبل أدباء العربية الذين قدموا آنذاك من المحيط إلى

الخليج، ومنحوه لقب (أمير الشعراء) في حفل تكريمي لم يشهد له الوطن العربي نظيراً حتى اليوم . ويبيِّن لنا هذا أن مقام (الأدب) فوق مقام (النقد)، وأن حس الناس وذوقهم هما الحكَم النهائي والحاسم بشأن تقرير مصير الشعر والشعراء، وأن حسّ النقاد وذوقهم قاصر ومتخلِّف وأدنى من حس هؤلاء الناس وذوقهم . ولا نريد أن نذكر هنا ذلك النقد الساخر والهازئ الذي كان يصدره طه حسين بحق شوقي، وكان يتجاوز فيه حد الوقار المصطنع إلى حد الابتذال والإسفاف، وكان أغلب نقده انطباعيّاً لا يقوم على نظرية متماسكة في النقد لا من قريب ولا من بعيد، ولقد ذهب طه حسين ولم تبق منه إلا بقية قد تتلاشى في مقتبل السنين، إلا أن شوقي بقي وسيبقى على مر العصور، ولن يمسح الدهر بصماته أو كلماته التي خطها على صفحاته . علماً أن طه حسين نفسه عاد بعد وفاة شوقي ليقر بأنه من كبار الشعراء وعظمائهم .

(٥)

وإذا أردنا أن نحكم على منْزِلة شوقي في نهضة الشعر العربي الحديث وصفناه بما وصف به النقاد القدماء بشار بن برد حين قالوا إنه (آخر القدماء ورأس المحدثين) . والحقيقة أن محمود سامي البارودي قبله على روعة شعره وفخامته كان إحيائيّاً خالصاً، أما شوقي فقد كانت فيه خصال من الإحياء أو بعبارة أدق : شيء من التقليد للقدماء إلا أنه خرج من عباءتهم إلى آفاق التجديد في كثير جداً من الصور والمعاني والأساليب، فكان الفاصل الحقيقي في سلم التطور الشعري بين زمنين . ولعلَّ مرد ذلك إلى بعثته الدراسية لمدة خمس سنوات إلى فرنسا التي كان يتقن لغتها قبل سفره إليها، فقد اطَّلع على شعر الفرنسيين ورأى كيف يفكرون وكيف يصوغون، ولكنه لم يستطع الخروج من خيمة التقليد تماماً ، بحكم كونه مضطراً إلى مجاراة ذوق الناس وميولهم في ما يحبون أن يسمعوا . فكانت المزاوجة بين التيارين ملائمة لفلسفته التوفيقية في الحياة . ويُذْكَر هنا لشوقي أنه ربما كان أول من ترجم قصيدة (البحيرة) le Lac الشهيرة للشاعر (لامارتين)، غير أن تلك الترجمة مفقودة اليوم .

(٦)

لجأ الناس في حياة شوقي وحافظ إبراهيم، كما لجأ الدارسون بعد حياتهما، إلى عقد المقارنات والمفاضلات بينهما، وإلى التعصب لهذا دون ذاك أو لذاك دون هذا، وكانت حصيلةُ ذلك جملةً من الكتب وعدداً كبيراً من المقالات والبحوث : ولعل الباعث على ذلك كونهما تِرْبين، فشوقي ولد سنة ١٨٦٨، وحافظ سنة ١٨٧٠ . وكانا فحلين نِدَّين في غزارة الإنتاج، وكثيراً ما طرقا مواضيع متشابهة أو متقاربة، وخاصة في مواضيع المناسبات والشأن العام، ولكن أحدهما كان في صفوف عامة الناس، والآخر حتى سنة ١٩١٤ في صفوف أهل الجاه والسلطان، فحياتهما على طرفي نقيض، ولكن في شعرهما صلة نسب . وكلا الشاعرين نال لقباً له رنين وطنين : فحافظ (شاعر النيل) وشوقي (أمير الشعراء) . واختتمت حياتهما بفارق بضعة أشهر في السنة نفسها، سنة ١٩٣٢، وكان حافظ صاحب الفضل في منح شوقي لقب أمير الشعراء، كما رثى شوقي حافظاً بقصيدة رائعة .

(٧)

أما عملنا في هذا البحث فكان يقوم إلى جانب ترجمة نصه على أمور : منها ضبط الشواهد الشعرية التي بثها المؤلِّف في أثنائه ضبطاً تاماً ييسِّر قراءتها حتى على القارئ العادي، كما ضبطنا الشواهد التي استشهدنا بها نحن أيضاً في بعض الهوامش، وحدَّدنا بحورها. ومنها تصويب ما وقع فيه الباحث نفسه من أخطاء أو ما وقع فيه غيره ممن اعتمد عليهم . ومنها أننا كنا نعلِّق على بعض آراء الباحث أو آراء غيره ممن استشهد بشيء من كلامهم إن وجدنا للتعليق ضرورة . ومنها توضيح بعض ما كان في حاجة إلى توضيح في الهامش . ومنها أننا قدَّمنا نبذاً ترجمية لبعض الأعلام الذين ذُكِرُوا في سياق البحث من شعراء أو شخصيات عامة . كما أننا عدنا إلى المصادر العربية التي اقتبس الباحث منها مقتبساته، لإثبات النصوص التي استشهد بها من شعر أو نثر، وعلى رأسها بطبيعة الحال أعمال شوقي الشعرية . وقد

أهملنا شرح مفردات أشعار شوقي لسببين : الأول أن كثيراً من شعره يفهم مباشرة، والثاني أن شرح الغريب من مفرداته سيضاعف حجم هذه الترجمة، كما أن (الشوقيات) و(الشوقيات المجهولة) وسواها متوافرة في الأسواق لمن تشده أشعار شوقي إليها، وفيها رِيٌّ لغليل العطشان إلى المعنى .

(٨)

ولا يسعني، في الختام، إلا أن أرفع عظيم شكري وعرفاني إلى الأخ الفاضل، وراعي الشعر والشعراء، الأستاذ الشاعر عبد العزيز سعود البابطين، رئيس مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في الكويت، الذي يعود له الفضل في إحياء ذكر الشعراء القدماء والمحدثين، وفي إعادة الاهتمام بديوان العرب الذي يسهم، بعد القرآن الكريم، في حفظ لغتنا العربية وحمايتها من عوادي الزمان ومن مكر أعداء الأمة وأعوانهم . كما أزجي شكري الخالص لجميع العاملين الأكارم في المؤسسة، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الفاضل عبد العزيز السريِّع الأمين العام للمؤسسة، والأخ الكريم الأستاذ عبد العزيز جمعة الذي كان له فضل التواصل والتنسيق . والحمد لله رب العالمين، وهو خير معين .

د. محمود المقداد

دمشق – يوم الأربعاء 6 شعبان 1427هـ

الموافق لـ 30 آب (أغسطس) 2006م .

****

الفصل الأول

مصادر الإلهام عند شوقي

يكفي أن نتصفح (الشوقيات) لنرى أن شوقي قد قال شعراً في كل المواضيع الخطير منها والعادي، مستعيناً في ذلك بكل أنواع الفن الشعري التقليدي عند العرب، باستثناء (المجون) و(الزهد)، وربما كان ذلك، كما يرى أحمد الإسكندري، لأن (روح العصر واستكانة الشرق يصدان عنهما) [(١)]، أما (الهجاء) (فلم تَطِبْ نفس شوقي السمحة أن تورد شعره في هذا المورد البشع) [(٢)].

ويمكن أن نتبين، في هذا الإنتاج الواسع، بعض القصائد الطويلة في تمجيد (الإسلام) و(مصر). وهي تشكّل نسيجاً ملحميّاً [(٣)] من المواضيع المعاصرة التي كانت النَّزْعة الوطنية المصرية تلعب فيها دوراً أساسيّاً، والتي تدعى تعسُّفاً كما نرى (أشعار المناسبات)، وهي تكوِّن القسم الأعظم من (الشوقيات). ويمكن أن نتابع من خلالها الحوادث المصرية بوقائعها الكبيرة والصغيرة.

الملهم الأول - مصر الفرعونية

تؤرِّخ الأشعار الرنانة والملتهبة، التي تمجّد التاريخ الرائع لوادي النيل، للفترة التي كان شوقي يعاني فيها من تأثير (الرومانتية الفرنسية) le romantisme français،

(١) انظر مقالته: أثر الأدب العربي في شوقي، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٣، سنة ١٩٣٣، ص ١٥٨ وأما القصائد المجموعة تحت عنوان (محجوبيات) فتتعلَّق حقيقة بالدعابة اللطيفة أكثر منها بالهجاء المحض، لأن علاقات الصداقة التي كانت قائمة بين شوقي ومحجوب ثابت كانت تمنعه من أن يتجاوز إطار ما اصطلح على تسميته (فكاهة) .

(٢) المرجع نفسه.

(٣) هناك ثلاث قصائد طويلة يبدو لنا أنها تمثّل حداً وسطياً بين (الشعر الملحمي)La poésie épique و(الشعر التعليمي) La poésie didactique هي: (دول العرب وعظماء الإسلام) وتقع في ١٥٢٧ بيتاً) ، و(كبار الحوادث في وادي النيل) (وتقع في ٢٩٠ بيتاً) ، و(صدى الحرب) (وتقع في ٢٦٠ بيتاً) .

وخاصة الرومانتيّة الهوغولية (١) hugolien :لأن هناك نفحةً ملحميّةً من (أسطورة القرون) (٢) Légende des siècles مرَّتْ على قصيدة شوقي (كبار الحوادث في وادي النيل) (٣) التي افتُتِحَتْ بديباجة طويلة ذات نبرة فائرة بدت مصر من خلالها بصورةٍ مَجازيَّةٍ هي صورة (سفينة) تتقاذفها الأمواج الهائجة في التاريخ، حيث يقول الشاعر (من الخفيف) (٤):

١- هَمَّتِ الْفُلْكُ وَاحْتَوَاهَا الـمَاءُ
وَحَدَاهَا بِمَنْ تُقِلُّ الرَّجَاءُ (٥)
٢- ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبَابِ حَوَالَيْـ
ـهَا سَمَاءً قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاء (٦)
٣- وَرَأَى الـمَارِقُونَ مِنْ شَرَكِ الأَرْ
ضِ شِبَاكاً تَمُدُّهَا الدَّأْمَاء (٧)
٤- وَجِبَالاً مَوَائِجاً فِيْ جِبَالٍ
تَتَدَجَّى كَأَنَّهَا الظَّلْمَاء

---

(١) نسبة للأديب الفرنسي الشهير (فكتور هوغو) (١٨٠٢-١٨٨٥) Victor Hugo، الذي عرف عند العرب بروايته المترجمة (البؤساء) ، وكان من كبار الناثرين الفرنسيين في القرن التاسع عشر، كما كان من كبار الشعراء الغنائيين والتمثيليين، وكان شوقي شديد الإعجاب به، وقد خصَّه بقصيدة رثاء وتمجيد مهمة في شوقياته (المترجم) .

(٢) وهي أحد أعمال هوغو الشعرية التاريخية الفخمة التي استعرض فيها بدايات تاريخ البشرية، والحضارات القديمة في الشرق، والعصر القديم اليوناني والروماني، والعصر الوسيط، وأخيراً العصر الحديث (المترجم) .

(٣) هذه القصيدة التاريخية، أو الصورة الجدارية الواسعة لحوادث وادي النيل، كانت جزءاً من الأعمال التي نُشِرت في مؤتمر المستشرقين المجتمعين في (جنيف) ، في شهر أيلول (سبتمبر) من سنة ١٨٩٤، قدَّمها أحمد شوقي، الشاعر المصري الذي يعمل في (الدائرة الأوربية) لسمو الخديوي، وهو مجاز في القانون من كلية باريس [واضح أن هذا السرد كان تعريفاً في تلك الأعمال بصاحب القصيدة (المترجم)] وقد قام (فيليب بوكتي) Philippe Bocti بنشر ترجمةٍ لهذه القصيدة متفاوتةٍ ومليئة بالثغرات في (مجلة مصر) la Revue d'Égypte ، عدد كانون الثاني (يناير) ، من سنة ١٨٩٥، ص٤٧١ وما بعدها . وتتصدَّر هذه القصيدة الجزءَ الأول من (الشوقيات) (من البحر الخفيف، والقافية: اءُ) .

(٤) الشوقيات، ١٧/١ [اعتمدنا في تخريج شواهد الشوقيات على طبعتها الحادية عشرة المصورة في دار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م عن طبعة مصرية أصلية صدرت في أربعة أجزاء سنة ١٩٦٤ عن المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة (المترجم)] .

(٥) الفلك: السفينة .

(٦) العباب: الموج العالي .

(٧) الدأماء: البحر .

٥- وَدَوِيّاً كَـــمَـــا تَأَهَّبَتِ الحَـــيْـ
ـلُ وَهَاجَتْ حُـمَـاتَـهَـا الْهَـيْـجَـاء [١]
٦- لجُــــةٌ عِنْدَ لجُــــةٍ عِنْدَ أُخْــــرَى
كَـهِـضَـابٍ مَـاجَتْ بِهَـا الْبَـيْـدَاء
٧- وَسَـــــفِينٌ طَوْرَاً تَـلُـوْحُ وَحِـــيْنَاً
يَتَـــوَلَّـى أَشْــبَـــاحَـــهُنَّ الخَـــفَـاء
٨- نَازِلَاتٌ فِيْ سَــيْــرِهَا صَـاعِـدَاتٌ
كَــالْهَــوَادِيْ يَهُـــزُّهُـنَّ الحُـــدَاء [٢]

إن رؤية نهاية العالم مستلهمة بوضوح من الرؤيا التي يظهر من خلالها (جدار العصور) لدى فكتور هوغو. إن الرؤية الأولى التي تظهر لشوقي هي رؤية مصر الفرعونية التي طبعت عظمتُها مصر بطابعها دوماً، يقول [٣]:

٢١- قُلْ لِبَــانٍ بَنَى فَــشَـادَ فَــغَـالَى:
لَمْ يَجُــزْ مِــصْــرَ فِي الزَّمَــانِ بِنَاءُ
٢٢- لَيْسَ فِي الـمُـمْكِنَاتِ أَنْ تُنْقَلَ الأَجْـ
ـبَـالُ شُــمَّــاً وَأَنْ تُنَالَ السَّــمَـاء
٢٣- أَجْــفَلَ الـجِنُّ عَنْ عَــزَائِمِ فِـرْعَــوْ
نَ وَدَانَــتْ لِـبَـــأْسِـهَـــا الآنَاء
٢٤- شَـــادَ مَـــا لَمْ يُشِـــدْ زَمَـــانٌ وَلاَ أَنْـ
ـشَـأَ عَــــصْــــرٌ وَلاَ بَـنَـى بَنَّاء
٢٥- هَيْكَـلٌ تُنْثَــرُ الدِّيَانَاتُ فِـــيْـهِ
فَـــهْـيَ وَالـنَّـاسُ وَالْقُـــرُوْنُ هَـبَـاء
٢٦- وَقُــبُــوْرٌ تَـحُـطُّ فِـيـهَـا اللَّيَـالِـيْ
وَيُوَارَى الإِصْــبَـــاحُ وَالإِمْـــسَـاء

(١) الهيجاء: الحرب .
(٢) الهوادي: الإبل . الحداء: الغناء أثناء سير الإبل .
(٣) الشوقيات، ١/١٨ .

٢٧- تُشْـفِقُ الشَّـمْسُ وَالْكَوَاكِبُ مِنْهَـا
وَالجَـــــدِيْـدَانِ وَالْـبِـلَـى وَالْـفَـنَـاء

إن قراءة مثل هذه القصيدة، وسماعها أيضاً بلا شك، يذكِّرنا بالمقولة الجريئة: (الشِّعْرُ أصدقُ من التاريخ). لقد انصهر شوقي في تاريخ شعبٍ مدْعُوٍّ إلى أن يبحث في الماضي عن دروسٍ مفيدة للمستقبل. وكان شوقي يحب التاريخ إجمالاً (بوصفه مصدراً حياً للأحاسيس، ولأنواع الجمال الفني، والسمو الأخلاقي، لا بوصفه علماً بارداً للمحفوظات archives التي يعلوها الغبار، أو للتأمُّلات المجرَّدة.. لقد تمكَّن شوقي من الانطلاق من عبادة الماضي إلى عبادة الحاضر لذاته، ولكنه أحبَّه أيضاً لأنه يشيد بأنفته خاصَّة)[١]. وقد أحدثَ هذا التاريخ، الذي يرتقي إلى عرش الشعر، عند الشاعر، كبرياء لا تنازَع، وهذا ما جعل محمد كرد علي يقول إن شوقي (على الغالب يرسم الصور الجميلة، ويترك لغيره ما وراءها، علماً منه بأن الشعر شعرٌ مهما حمل من الحقائق، ويُغْتَفَر للشاعر ما لا يُغْتَفَر للناقد المؤرِّخ)[٢].

إن الشاعر، وخاصة الشاعر العربي، يتنبَّأ في مملكة الكلمة، ويسير ببطء في عالم يعدُّه في منجَى من النقد، ويصوِّر ذلك جيِّداً الجوابُ الوحيدُ الذي كان شوقي يردُّ به على هجماتِ منتقديه، وهو جوابٌ متعالٍ يقول فيه: (لنا أن نقولَ، ولكم أن تُعَلِّلُوا !) [٣].

كانت قصائد شوقي الفرعونية تنضوي، كما يبدو، تحت منظور المُثُل المصرية المحضة التي نمت في مطلع هذا القرن [٤]، وأُطْلِق عليها اسم (النَّزْعة الفرعونية) pharaonisme وكان المدافعون عن (النَّزْعة العربية) arabisme، في تلك الفترة،

(١) انظر مقالة: (إدغار جلاّد) Edgar Gallad موت أمير الشعراء العرب أحمد شوقي بك (بالفرنسية)، في صحيفة: أخبار أدبية Nouvelles Littéraires العدد ٥٦٠، ٨ تموز (يوليو) ، ١٩٣٣، ص٨، العمودان ١و٢ .
(٢) انظر مقالته: حياة أحمد شوقي، في: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٣، سنة ١٩٣٣، ص٧٣ .
(٣) ويذكِّرنا هذا بقول البحتري:
عَلَيَّ نَحْتُ القَوَافِيْ مِنْ مَقَاطِعِهَا وَمَا عَلَيَّ لَهُم أَنْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ
كما قيل لأبي تمام أو لغيره: (لِمَ تقولُ ما لا يُفْهَمُ ؟ فقال: ولِمَ لا تفهم ما يُقَال ؟!) .
(٤) يعني المؤلِّف به (القرن العشرين) ، لأن بحثه هذا نشر في (المعهد الفرنسي للدراسات العربية) IFEA دمشق سنة ١٩٧٧ .

يرفضون أن يعُدُّوا المصريين عرباً. وقد كتب نجيب عازوري، سنة ١٩٠٦، في كتابٍ بقي مشهوراً، يقول: (المصريون لا ينتمون إلى العنصر العربي، وهم من العائلة البربرية الإفريقية، واللسان الذي كانوا يتكلمون به قبل الإسلام لم يكن له أي صلة بالعربية) [١]. وكان طه حسين، من جانبه، يرى أن العقل المصري، على الرغم من كونه مسلِماً، فإنه ينبثِق من الحضارة اليونانية واللاتينية[٢]. وقد بُذِلَتْ – ابتداء من سنة ١٩٢٦– بعض المحاولات لإدخال تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، إلى جانب العربية، في المؤسسات التعليمية المصرية.

وقد غذَّى هذه النَّزْعة الفرعونية، سنة ١٩٢٢، حَدَثٌ كان له صدَى عالمي، هو اكتشاف قبر الفرعون (توت عنخ آمون) من الأسرة الثامنة عشرة، وقد جسَّد المَثَّالُ (النحات) (محمود مختار) بحجر الغرانيت تمثال (نهضة مصر) على شكل فتاة شابة مزينة على الطريقة القديمة، وعلى قدميها تمثال أبي الهول: فهل كانت مصر سائرة لتصبح فرعونية ؟ لقد أجاب (مارسيل كولومب) Marcel Colombe، في كتابه (تطوُّر مصر) L'évolution de l'Égypte، عن هذا السؤال، الذي كان بالإمكان طرحه في تلك الفترة، بقوله: (حتى يتم استيلاء النَّزْعة الفرعونية على مصر، ينبغي أن يكون إسلام وادي النيل ضعيفاً، أو أن يكون زعيم مصر من طينة ديكتاتور تركيا الحديثة [٣]، لا أن تحكمها حفنة من رجال الأدب على هامش الحياة الناشطة، ولذلك ظلَّت هذه الحركة الفرعونية بمصر سطحية، ولم تتجاوز الإطار الضيِّق جداً لمدرسةٍ أدبية لم تمارس تأثيراً يُذْكَر في الجماهير. وعلى الرغم من الآثار العظيمة الباقية على أرض مصر، فقد ظلَّت مصر بلداً مسلماً)[٤].

---

(١) انظر مقالة (جوزيف كاستاني) J. Castagne الهند ومصر في نظر روسيا (بالفرنسية) ، في مجلة: العالم الإسلامي Revue du Monde Musulman، سنة ١٩٢٥، ص ٢٥٨ .

(٢) انظر – بشأن هذا الموضوع – التحليل الذي كتبه (الأب عبد الجليل) Abd el-Jalil عن كتاب طه حسين، المنشور سنة ١٩٣٨، بعنوان (مستقبل الثقافة في مصر) ، في كتابه: الجوانب الداخلية في الإسلام (بالفرنسية) ، باريس، ١٩٤٩، ص٨١–١١٦ .

(٣) يعني بهذا الدكتاتور (مصطفى كمال) ، الملقب بـ (أتاتورك) أي (أبي الترك) ، الذي كان من قادة تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى ومن أبطال المقاومة والدفاع عنها بعدها، مما أكسبه منْزلة عالية بين الأتراك أتاحت له أن يستبد بتركيا، وأن يلغي الخلافة العثمانية، وأن يؤسس النظام الجمهوري وأن يطبق بيد من حديد العلمانية وتحديث تركيا، وأن يستبعد العامل الديني والأخلاقي من الحياة العامة والسياسية منها خاصة (المترجم) .

(٤) انظر كتابه: تطور مصر (بالفرنسية) ، ص١٦٨–١٦٩ .

وقد كان شوقي واحداً ممن خلَّدوا الماضي الفرعوني لمصر، ولعلَّ إحدى (فرعونياته) الأكثر تميُّزاً بلا شك، في هذا المجال، قصيدتُه التي تحمل عنوان (توت عنخ آمون)(١)، التي كتبها في أواخر سنة ١٩٢٢، وربما بعد سنتين من اكتشاف قبر هذا الفرعون. وكان الشاعر وفيّاً لتصوُّره التاريخي، فقد غنَّى فيها الماضي بالقدر الذي كان يبدو له قادراً على إخصاب المستقبل، وبالقدر الذي يكون فيه مجد مصر القديمة حافزاً لجيل الشباب المصري الحديث.

لقيت هذه القصيدة استقبالاً واسع النطاق، ونُشِرَتْ في مجلة (سركيس) Sarkïs، عدد كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٢٣. وكانت موضوع تعليق إطرائي في (الأهرام)، يوم ٣ كانون الثاني (يناير) من السنة نفسها، ذُكِر فيه أن هذه القصيدة (دُرَّةٌ شوقية في ميدان الشعر والنثر). ولكن طه حسين كان يبدو مختلفاً قليلاً مع هذا الإطراء فكتب يقول: (لا أقول كما قالت الأهرام إن قصيدة شوقي هذه هي درَّة الشعر والنثر، وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقي الكثيرة، فيها الكثير من الجيد، وليست تخلو من الرديء، ولشوقي بحمد الله قصائد أمتن لفظاً، وأرصن أسلوباً، وأحسن في النفس موقعاً، وأرفع معنى من هذه القصيدة) (٢).

ويفتتح الشاعر قصيدته بمناجاة الشمس التي يستلهمها قائلاً (٣):

١- قِفِيْ يَا أُخْتَ يُوْشَعَ خَبِّرِيْنَا
أَحَادِيْثَ الْقُرُوْنِ الْغَابِرِيْنَا

وتتبع هذا البيتَ حتى البيت ٧ معانٍ وعظيةٌ ذاتُ وَقْعٍ جميل. ثم يأتي البيتان ٨و٩، وهما بيتا الانتقال، أقلَّ إتقاناً لسوء الحظ، ويلفُّهما غموضٌ لم يتمكن الشرح من تبديده

(١) وهي من البحر الوافر، وقافيتها (يْنَا، وْنَا) .
(٢) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص٩٤ .
(٣) الشوقيات، ٢٦٦/١ [يلاحظ المرء أن شوقي يبدو متأثراً في هذه القصيدة التي يفخر فيها بآثار مصر الفرعونية وعظمتها الغابرة، من حيث البحر والقافية، بمعلَّقة عمرو بن كلثوم التي يفخر فيها فخراً متطرِّفاً بقبيلته تغلب (المترجم)].

تماماً. وقد أبدى طه حسين عليهما الانتقادات الشكلية التالية: (ولكنّ الشاعر أراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة والعبرة العامة إلى موضوعه الذي عمد إليه، ويُخَيَّل إليّ أنه لم يوفَّق إلى حسن الانتقال [1]:

٨- أَأُمَّ المَالِكِيْنَ بَنِيْ (أَمُوْنٍ)
لِيَهْنِكِ أَنَّهُمْ نَزَعُوْا (أَمُوْنَا)

لستُ أدري لِمَ أَجِد شيئاً من الصعوبة في إساغة هذا البيت، ويُخَيَّل إليّ أنه لو أُسيْغ لكان عسير الهضم، ولعلّ مصدرَ هذا الاسمُ (أمون) الأعجمي، الذي وقع وقعاً فيه شيء من الحرج في هذه الصفحة العربية النقية، ولعلّ مصدرَ هذا بنوع خاصّ هذا الفعل الغريب الذي تكلَّفه الشاعر تكلُّفاً، أو اضطر إليه اضطراراً وهو: نزعوا. يستعمله الشاعر بمعنى: أشبهوا. ويمرّ به القارئ فلا يفهمه، ويضطر إلى أن يعطف على هذا الشرح الذي اضطرّ الشاعر نفسه إلى أن يضعه.. ولعلّ الشاعر يعذرني أيضاً إذا لم يعجبني هذا البيت [2]:

٩- وَلَدْتِ لَهُ (المَآمِيْنَ) الدَّوَاهِيْ
وَلَمْ تَلِدِيْ لَهُ قَطُّ (الأَمِيْنَا)

فلفظ: المآمين. فيه نُبُوٌّ. ولفظ: الدواهي. يبعث الاشمئزاز في النفس. ولفظ: قط. يخلو من كل جمال شعري، والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التي أضافها الشاعر[3]، والبيت كله مخالف للحق، فليس من الحق في شيء أن ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون، وليس من الحق أنه لم يكن بينهم من أشبه الأمين)[4].

(ثم مضى الشاعر في لفظ سهل ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل إلى أن قال فأجاد اللفظ والمعنى[5]:

---

(١) مرجع سابق، ٢٦٧/١ .

(٢) م.ن.

(٣) عند شوقي – كما سجّل لنا طه حسين هنا – أمثلة كثيرة على أبيات غامضة تماماً، بل إن شروحها لا تصل إلى حد توضيحها حين توضع معها قصداً .

(٤) حافظ وشوقي، ص٩٧-٩٨ .

(٥) الشوقيات، ٢٦٧/١ .

١٥- تَعَــالَى اللهُ كَــانَ السِّــحْــرُ فِــيْــهِمْ
أَلَيْــسُــوْا لِلْحِــجَــارَةِ مُنْطِقِــيْنَا ؟!

واسـتـأنف مُـضِيَّه ليس بالجيد ولا بالرديء إلى أن انتهى إلى الخلود، فأحسن وصفه وأجاد التعبير عنه، ولاسيما حيث يقول [(١)]:

٢٢- وَأَخْـــــذُكَ مِنْ فَمِ الدُّنْيَــــا ثَـنَاءً
وَتَرْكُكَ فِيْ مَــسَـــامِــعِــــهَـــا طَنِيْنَا

ولكني أعتذر إلى الشاعر إذا استثقلتُ هذا البيت الذي نُظِمَتْ فيه أسماءُ الفراعنة نظم الخرَز [(٢)]:

٢٧- وَتَاجٍ مِنْ فَــرَائِدِهِ (ابْنُ سِــيْــتِيْ)
وَمِنْ خَــرَزَاتِهِ (خُــوْفُــوْ) وَ(مِــيْنَا)

وليس أجملَ من اعـتـذاره عن قـدمـاء المصـريين ودفـعـه عنهم تـهـمـة الظلم من استشهاده بظلم البستيل[(٣)(٤)].

وقد أشـار شـوقي في أبيات من القصـيدة إشارة إلى الكنوز التي اختلسـها اللورد (كارنارفون)[(٥)] Caernarvon، من قبر (توت عنخ آمون) [(٦)]، أثناء إجراء الحفريات الأثرية، معبِّراً بها تعبيراً صارخاً، ومصوِّرًا من خلالها صدى ذلك بين مواطنيه، فقال [(٧)]:

٤٣- أَبُوَّتُنَــا وَأَعْظُمُــــــهُــمْ تُرَاثٌ
نُــحَـــاذِرُ أَنْ يَـؤُوْلَ لآخَـــــــرِيْـنَـا

---

(١) م.س.، ١/٢٦٨ .

(٢) م.ن. ويريد بابن سيتي (رمسيس الثاني) Ramsès II الملقَّب بـ (سيزوسترِيس) Sézostris .

(٣) يعني قوله: **٣١- وَمَا (الْبَسْتِيْلُ) إلاَّ بِنْتَ أَمْسٍ وَكَمْ أَكَلَ الحَدِيْدُ بِهَا صَحِيْنَا ؟!**
(انظر: الشوقيات، ١/٢٦٩ [ولوقال شوقي: وكم أكل الحديد بها سجينا ؟! لكان أجمل . ويُعَدّ سجن (الباستيل) La Bastille هذا من أشـهر السـجون في العـالم، وقد غُيِّب فيه كثير من أحرار فرنسا بالتعذيب والقتل، وكان أول صرح هدمته الجماهير الشعبية لما يمثله من رمز للظلم الإنساني الفاحش والاستبداد والتعسُّف، وكان هدمه يوم ١٤ تموزً (يوليو) سنة ١٧٨٩ صبيحة قيام الثورة الفرنسية الشهيرة (المترجم)].

(٤) حافظ وشوقي، ص٩٩-١٠٠ .

(٥) وقد مات هذا اللورد بعضَّة بعوضة من قبر الفرعون (توت) ، انظر: الشوقيات ، ١/٢٧١هـ ٤.

(٦) كان فتح قبر (توت عنخ آمون) في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) [سنة ١٩٢٢] بحضور (كارتر) H. Carter واللورد (كارنارفون) وابنته، والليدي إيفلين هربرت Lady Evelyn Herbert [راجع بخصوص ظروف هذه الحفريات ومكوناتها كتاب جان كابار J. Capart ومعاونيه: توت عنخ آمون Tout-Ankh-Amon بالفرنسية) ، ص٨١ وما بعدها) . ونعلم أن اللورد (كارنارفون) ، الذي أهدى ابنة ملك إنكلترا عقداً ذا قيمة عالية من حفريات قبور الفراعنة، مات بداء غامض يُنْسَب إلى إشعاعات ضارة صادرة عن القبور، ولهذا تخلَّت ابنة الملك عن ذلك العقد خوفاً من نقمة (توت عنخ آمون) عليها . ولنلاحظ، أخيراً، أن السخط الذي أثاره انتهاك قبور الفراعنة لم يكن جديداً، لأن الشاعر محمود سامي البارودي كان قد خصَّ أهرام الجيزة بقصيدة عبَّر فيها عن المشاعر ذاتها، انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان GAL بالألمانية) - الملحق ٣/١٦ .

(٧) الشوقيات، ١/٢٧٠و٢٧١ .

٤٤- وَنَأْبَى أَنْ يَحُلَّ عَلَيْـــــهِ ضَــــيْمٌ
وَيَذْهَبَ نُهْبَـــــةً لِلنَّاهِبِــــيْنَا

٤٥- سَكَتَّ فَـــحَـــامَ حَـــوْلَكَ كُلُّ ظَنٍّ
وَلَوْ صَـــــرَّحْتَ لَمْ تُثِـــرِ الظُّنُوْنَا

وقد علَّق طه حسين على هذه الأبيات قوله: (هذه الأبيات تَعْدِلُ آلافَ المرات ما كَتَبَ الكُتَّابُ إلى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار)(١).

وأضاف قائلاً: (ثم عَطَفَ الشاعرُ على الإنكليز، فرماهم بسهم أصاب منهم المقتل، وأحسن الدفاع عن المصريين، وذلك قوله في لطف وخفَّة روح(٢):

٤٧- أَمَنْ سَـــرَقَ (الخَلِيْـــفَـــةَ) وَهْوَ حَيٌّ
يَـعِفُّ عَنِ الـــمُـلُـوْكِ مُكَفَّنِيْنَا ؟!)(٣).

ويضيف: (ولكن انتقاله من وادي الملوك إلى لوزان(٤) لا يخلو من غرابة. وربما كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شيء من الجمال كثير. وإن كنتُ أشكّ في أن وفود لوزان شُغِلَتْ بفرعون كما يُخَيَّل إلى الشاعر(٥)، ولكن الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ، وخليقة أن تتعظ، وخليقة أن تعمل)(٦).

---

(١) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص١٠١ .

(٢) م.ن.

(٣) الشوقيات، ٢٧١/١ [والخليفة هنا هو الخليفة العثماني (وحيد الدين) ، الذي نقلته إنكلترا من قصره في (الآستانة) ، على ظهر سفينة حربية، يوم ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٢١، إلى جزيرة (مالطة) بحجة تهريبه من وجه قوات الكماليين (أتباع مصطفى كمال) ، لتكون الشرعية في تركيا بجانبهم، وكان مفتي الخلافة أفتى بجواز قتلهم وإهدار دمهم خدمة للبريطانيين والغزو اليوناني لتركيا في تلك السنة (المترجم)] .

(٤) يريد المؤتمر الدولي الذي انعقد بلوزان وتمخَّض عن اتفاق عرف بـ (اتفاق لوزان) Traité de Lausanne، الذي أبرم سنة ١٩٢٢، بين تركيا واليونان، لوضع نهاية للحروب التي امتدت بينهما من الحرب العالمية الأولى، ولعقد الصلح بين الدولتين، وكانت إثر انتصارات كبيرة للأتراك على اليونان (المترجم) .

(٥) لم يكن شوقي، في الحقيقة، يخصّ هذا المقطع بالحديث عن (اتفاقية لوزان) بسويسرا، بحد ذاتها، وإنما أراد أن يقول إن مصر حُرِمَتْ – على ما لها من حضارة عريقة متفوِّقة في القدم – من التمثيل في ذلك المؤتمر الدولي، لحل قضية النِّزَاع التركيِ – اليوناني الذي حضره الأتراك بأنفسهم لكونهم منتصرين أقوياء، فمثَّلها اللورد (كرزون) ، لكون مصر في تلك الفترة ضعيفة أو مستضعفة تحت نير الاستعمار البريطاني، ولو كانت قوية شاهرة سيفها لمثَّلت نفسها بنفسها، ولم يعترض أحد على ذلك، وعنى شوقي من وراء ذلك أن الأمجاد العظيمة في الماضي شيء، ومنْزلة أصحاب تلك الأمجاد في الحاضر شيء آخر، وليس القديم بشافع للجديد إن لم يكن الجديد شافعاً لنفسه، فالقَدماء بنوا أمجادهم، وعلى الأحفاد أن يبنوا أمجادهم أيضاً، يقول شوقي مخاطباً (توت عنخ آمون) :

٦١- وَأُقْسِمُ كُنْتَ فِـــيْ (لُوزَانَ) شُغْلاً — وَكُنْتَ عَجِيْبَةَ المُتَفَاوِضِــيْنَا

٦٢- أَتَعْلَمُ أَنَّهُمْ صَلِفُـــوْا وَتَاهُوْا — وَصَدُّوْا الْبَابَ عَنَّا مُوْصِدِيْنَا ؟!

٦٣- وَلَوْ كُنَّا نَجُرُّ هُنَاكَ سَـــيْفَاً — وَجَدْنَا عِنْدَهُمْ عَطْفَاً وَلِيْنَا

٦٤- سَيَقْضِيْ (كَرْزَنٌ) بِالأَمْرِ عَنَّا — وَحَاجَاتُ الْكِنَانَةِ مَا قُضِيْنَا (الشوقيات، ٢٧٢/١-٢٧٣)

(٦) حافظ وشوقي، ص١٠١-١٠٢ .

ثـم يقفـز الشــاعـر قفـزة واحــدة إلـى الفـتـرة المعاصــرة ليـتـباهى بنَزْعتـه التحررية libéralisme، قائلاً [1]:

٧١- زَمَـــانُ الْفَـــرْدِ يَا فِـــرْعَـوْنُ وَلَّى
وَدَالَتْ دَوْلَـةُ الـمُـــتَــجَـــبِّـــرِيْنَا
٧٢- وَأَصْــبَـــحَتِ الرُّعَـــاةُ بِكُلِّ أَرْضٍ
عَلَـى حُكْـمِ الـرَّعِــــيَّــــةِ نَازِلِيْنَا

واستنبط طه حسين من ذلك قوله: (فتراه شـاعراً مصرياً يعيش في هذه السنة يُحسّ ما نُحسّ، ويُشْفِق مما نشفق منه، يُحبّ الدستور ويَكْلَف به، ويتمنى على صاحب الجلالة - في ألذ لفظ وأعذبه، وفي أمتن أسلوب وأصفاه، وفي أشد العبارات تمثيلاً لأصدق العواطف - يتمنى على صاحب الجلالة إصدار الدستور) [2].

وهناك قصيدة أخرى معبِّرة عن النَّزْعة الفرعونية، التي كانت مسيطرة بمصر آنذاك، هي تلك القصيدة التي أنشدها في حديقة الأزبكية، ونشرتها مجلة (الهلال) في عدد تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢١. ويسأل الشاعر فيها مطوَّلاً أبا الهول، ثم يختمها، في الأبيات الأربعة الأخيرة، بتوجيه رسالة موجزة تدعو المصريين إلى الأمل[3].

وعلى الرغم من كون شوقي شاعر الإسلام أساساً، كما سنرى، فقد أسهم أيضاً في وضع طاقات موهبته الشعرية للتغني بالفراعنة الذين كان علم الآثار قد وضعهم على جدول الأعمال، ولم يتردَّد شفيق جبري [4] في مدحه لأمير الشعراء،

---

(١) الشوقيات، ١/٢٧٤ .

(٢) حافظ وشوقي، ص١٠٢-١٠٣ وقد حُذِفَتْ من هذه القصيدة باستغراب الأبيات من ٨٣ إلى ٩٤ من طبعة (الشوقيات) لسنة ١٩٦٤ .

(٣) الشوقيات، ١/١٣٢-١٤٤ وهي من البحر المتقارب، والقافية (ـُـَ رْ) .

(٤) شفيق جبري (١٨٩٠-١٩٨٠) : شاعر سوري، ولد في دمشق، عمل سنة ١٩٢٠، في العهد الفيصلي، أميناً لوزارة المعارف، ثم كان مديراً لمدرسة الآداب العليا، ثم أصبح عميداً لكلية الآداب بجامعة دمشق، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٢٦، له ديوان شعر، وكتاب دراسة الأغاني (أي: أغاني الأصفهاني) (المترجم) .

خلال حفل تأبينه سنة ١٩٣٢، في أن يخاطب الفقيد الشهير [مشيراً بضمير الغائب إلى نهر النيل] بقوله (من البسيط) [١]:

١٧- صُـــغْتَ الْقَـــوَافِيْ لَهُ فِيْ كُلِّ نَـائِبَـــةٍ

مَــحْـبُــوْكَـةَ الْوَشْيِ مِنْ وَشْيِ الْيَـمَــانِيْنَا

الملهم الثاني - الإسلام

عندما تُوِّج شوقي (أميراً للشعراء) بعدما كان (شاعراً للأمراء) كان يبدو أكثر ميلاً إلى لقب (شاعر الإسلام): فقد كان يؤثِر - كما يقال- لقب (شاعر الإسلام) على لقب (أمير الشعراء) الذي كان مع ذلك لقباً رائعاً[٢]. وهناك خبر يرويه عبد العزيز الإسلامبولي يبيِّن لنا الرغبة التي كانت تتملَّك شوقي في أن يكون (شاعر الإسلام) قبل كل شيء، فقد كان شوقي (يتفضَّل على مجلة المعرفة، في بداية سنتها الثانية ببعض جواهره التي جمعها في كتابه: أسواق الذهب)[٣]. وكان صاحب المجلّة يقدِّم لها بأنها من نتاج شاعر الشرق والإسلام، فلما التقى بشوقي بعد هذا التقديم رأى هالة من البِشْر تغمر وجهه الضحوك المشرق، وقال له: لكأنك، يا أستاذ، كنتَ تنطِق بلسان الغيب، فإن قولكَ عني إني شاعر الإسلام لأحب إليَّ من هذا اللقب الرنان الذي يطلقه الصحفيون عليَّ [٤]، ذلك أني أتمنى أن أكون شاعر الإسلام) [٥].

---

(١) من قصيدة تتكون من ثمانين بيتاً، في: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٣، سنة ١٩٣٣، ص١١٠ .

(٢) انظر محاضرة أحمد محمد الحوفي: الاتجاه الروحي في شعر شوقي، المنشورة في معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٧، ص١٠ .

(٣) أسواق الذهب: كتاب نثري في مواضيع شتى استعمل فيه شوقي مذهب السجع، ربما ليظهر لقرائه أنه قادر على سبك النثر قدرته على نظم الشعر، غير أن أسلوبها ثقيل الظل لعدم مناسبة هذا المذهب لعصرنا (المترجم) .

(٤) يريد به لقب (أمير الشعراء) الذي أطلقوه عليه في مقالاتهم إثر تكريم الشعراء والأدباء العرب إياه في حفل كبير أقيم له في دار الأوبرا الملكية بالقاهرة سنة ١٩٢٧، بمناسبة إصداره الجزء الأول من الطبعة الثانية من (الشوقيات) سنة ١٩٢٦ .وقد استمدوا هذا اللقب من قول حافظ إبراهيم شاعر النيل في قصيدته التكريمية:

٧١- أَمِيْرَ الْقَوَافِيْ قَدْ أَتَيْتُ مُبَايِعَاً وَهَذِيْ وُفُوْدُ الشَّرْقِ قَدْ بَايَعَتْ مَعِيْ

(انظر: ديوان حافظ إبراهيم، ١٢٨/١) (المترجم) .

(٥) انظر: الاتجاه الروحي في شعر شوقي لأحمد محمد الحوفي، ص١٠ نقلاً عن مقال لعبدالعزيز الإسلامبولي في مجلة: المعرفة، عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ، سنة ١٩٣٢ .

وقد أوحى إلينا شوقي في قصيدته، التي تحمل عنوان (ذكرى المولد)، بأنْ ليس هناك بلاغة حقيقية للشاعر الموهوب سوى تلك البلاغة التي تقوم على مدح النبي (ﷺ)، إذ يقول (من الوافر) (١)(٢):

٦١- فَمَا عَرَفَ الْبَلاَغَةَ ذُوْ بَيَانٍ
إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
٦٢- مَدَحْتُ المَالِكِيْنَ فَزِدْتُ قَدْرَاً
فَحِيْنَ مَدَحْتُكَ اجْتَزْتُ السَّحَابَا

وهناك قصيدة طويلة رائعة بارزة بوضوح بين القصائد المختلفة التي مدح بها الشاعر النبي (ﷺ) وأمجاد الإسلام، وتعرف عموماً نسبةً لقافيتها باسم (الهمزية النبوية) (٣). وقد بذل في نظمها كل طاقاته اللغوية والشعرية الواسعة بفضل قافيتها (اءُ)، وهي بلا جدال أكثر قصائده شهرة، وقد أسهم صوت أم كلثوم الدافئ في تعريف الجماهير بها على أواسع نطاق (٤). وقد كان المطلع، المشغول بإتقان، يحتوي على مجموعة من الكلمات ذات الإيحاء القرآني الذي يهزّ كل النغمات الإسلامية، من مثل (الروح، والعرش، والحظيرة، و[سِدْرَة] المنتهى، والسِّدْرَة العصماء، وحديقة الفُرقان، والوحي، واللوح، والقلم، والمرسلون، والهدَى، وبيت النبيِّين، والحنائف)، وهذه الكلمات وردت فقط في الأبيات العشرة الأولى.

(١) الشوقيات، ٧٢/١ [يبدو لنا هنا أن المؤلِّف لم يدرك المعنى الذي أراده شوقي، فقد قصد الشاعر أن أحداً من أهل البيان والفصاحة لايمكن أن يكون قد أدرك شيئاً من مفهوم البلاغة إن لم يجعل كلام النبي (ﷺ) البليغ، وهو الكلام الذي يتربع بحق على قمة البلاغة العربية، مصدراً يتعلَّم منه البلاغة ومرجعاً يرجع إليه دوماً، يتمثله ويقتدي به ويحفظه ويقلده ويستلهم منه (المترجم)] .

(٢) ورد الشطر الثاني من البيت ٦٢ في (الشوقيات) برواية (اقتدتُ السحابا) ، وآثرنا أن نأخذ بالتبديل الذي أجرته السيدة أم كلثوم حين اختارت جملة أبيات من هذه القصيدة لتخلِّدها بصوتها الرائع، نظراً لشيوع اختيارها، كما أن عنوان القصيدة بعد غنائها غلب عليه اسم (سلوا قلبي) (المترجم) .

(٣) وهي من البحر الكامل [وقد نُشِرَتْ للمرة الأولى في جريدة (المؤَيَّد) ، في ٧ آذار (مارس) سنة ١٩١٢ (المترجم)].

(٤) وهي من تلحين الموسيقار العبقري (رياض السنباطي) الذي لحن معظم القصائد الغنائية التي غنتها أم كلثوم بالفصحى، وقد غلب على (الهمزية النبوية) بعد أن غنتها اسم (وُلِد الهدَى) ، والمعروف أنها خلَّدت بصوتها بعض القصائد الأخرى لشوقي، مثل (إلى عرفات الله) و(نهج البردة) و(سلوا كؤوس الطّلا) (المترجم) .

وهناك نزعة غنائية lyrisme وشيء من تفخيم الكلام على الطريقة الهوغولية[١] كانا يظهران في هذه الأبيات التي زيَّنها نُبْلُ البحر الكامل، حيث يقول[٢]:

١- وُلِدَ الْهُــدَى فَـــالْكَائِنَـاتُ ضِـيَــاءُ
وَفَـمُ الـزَّمَـــانِ تَـبَـــــــــسُّـــمٌ وَثَـنَـاءُ

٢- الـرُّوْحُ وَالـمَـــلأُ الـمَـــلاَئِكُ حَـــوْلَـهُ
لِـلـدِّيْـنِ وَالـدُّنْـيَـــــــــا بِـهِ بُـشَـــــرَاء

٣- وَالْعَـــرْشُ يَزْهُوْ والحَظِيْـــرَةُ تَزْدَهِيْ
وَالـمُنْتَـــهَى وَالسِّدْرَةُ الْعَـــصْـــمَـــاء

٤- وَحَـدِيْقَـةُ الْفُـرْقَـانِ ضَـاحِكَةُ الرُّبَا
بِـالـتُّـــــرْجُـــــــمَـانِ شَـذِيَّةٌ غَـنَّـاء

٥- وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَـــلاً مِنْ سَلْسَلٍ
وَالْـلَـوْحُ وَالْـقَـلَـمُ الْـبَـــــــــدِيْـعُ رُوَاء

٦- نُظِمَتْ أَسَامِي الرُّسْلِ فَهْيَ صَحِيْفَةٌ
فِي اللَّوْحِ وَاسْمُ مُـــحَـــمَّـــدٍ طُغَـــرَاء [٣]

لقد استعرض الشاعر في القصيدة أروع المشاهد من حياة النبي (ﷺ)، مبرهناً في بعضها على علمه بالحجج المختلفة لتفسير القرآن، وهكذا نجده يذكر في الأبيات التالية الرحلة الليلية[٤] التي قام بها النبي (ﷺ)[٥]:

٨٣- يَا أَيُّهَـا الـمُـسْـرَى بِهِ شَـرَفَـاً إِلَى
مَـــا لاَ تَنَـالُ الشَّـــمْسُ وَالجَـــوْزَاءُ

---

(١) نسبة إلى الأديب الفرنسي (هوغو) (المترجم) .
(٢) الشوقيات، ٣٤/١ .
(٣) الطغراء: ما يسميه العامة (طُرَّة) وأصلها (طُغَرَى) ثم مُدَّت، ويقصد بها ما يكتب في رؤوس الكتب الديوانية بخط غليظ كالترويسة المميَّزة للوزارات والمؤسسات في أيامنا وتكون عادة عبارة أو شعاراً (المترجم) .
(٤) يريد رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى بالقدس والمعراج إلى السماء (المترجم) .
(٥) الشوقيات، ٣٩/١ .

٨٤- يَتَـسَـاءَلُوْنَ وَأَنْتَ أَطْهَـرُ هَيْكَلٍ
بِالـرُّوْحِ أَمْ بِالْهَـيْكَـلِ الإِسْـرَاءُ
٨٥- بِهِـمَـا سَـمَـوْتَ مُطَهَّـرَيْنِ كِـلاَهُمَـا
نُـوْرٌ وَرَيْـحَـانِـيَّـةٌ وَبَـهَـاءُ
٨٦- فَـضْلٌ عَلَيْـكَ لِذِي الجَـلاَلِ وَمِنَّـةٌ
وَالـلـهُ يَفْـعَلُ مَـا يَـرَى وَيَشَـاءُ

ولا يخلو هذا المدح الملتهب من مواضيع معاصرة: كمدح شوقي نزعة المساواة الاجتماعية l'égalitarisme social التي تفاجئنا بعضَ الشيء إذا ما تذكَّرنا أن هذه القصيدة كتبت قبل الحرب العالمية الأولى [(١)]، إذ يقول [(٢)]:

٧٣- فَـرَسَـمْتَ بَعْـدَكَ لِلْعِـبَـادِ حُكُوْمَـةً
لاَ سُـوْقَـةٌ فِـيْـهَـا وَلاَ أُمَـرَاءُ [(٣)]
٧٤- اللهُ فَـوْقَ الخلْـقِ فِـيْـهَـا وَحْـدَهُ
وَالنَّـاسُ تَـحْتَ لِـوَائِـهَـا أَكْـفَـاءُ [(٤)]

....

(١) لعل ما أدهش المؤلِّف هنا ذكر شوقي (الاشتراكية) قبل أن تصبح واقعاً مجسَّداً في روسيا القيصرية في ثورة تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٧ إبان انشغالها بالحرب العالمية الأولى، إذ يقول (انظر: الشوقيات، ٣٨/١) :

٧٦- الإِشْتِرَاكِيُّوْنَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ ... لَوْلاَ دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ
٧٧- دَاوَيْتَ مُتَّئِداً وَدَاوَوْا طَفْرَةً ... وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ .. الدَّاءُ

وكانت نظرة شوقي هذه مستقبلية حين رأى أن ما جاء به النبي (ﷺ) في رسالته العظيمة يعالج أوضاع المجتمعات البشرية معالجة أفضل من معالجة الاشتراكية لها على المدى البعيد، وبشكل أعمق وأعم، والدليل إخفاق التجارب الاشتراكية في العالم كله، كما أن النظام الرأسمالي الإمبراطوري – في الوقت نفسه – لا يصلح لمعالجة أوضاع المجتمعات البشرية لما فيه من ظلم ومادية وميل إلى شن الحروب وسرقة ثروات الشعوب المستضعفة بلا أي وازع أخلاقي أو قِيَمي حضاري إنساني إن لم نقل بلا أي وازع ديني (المترجم) .

(٢) الشوقيات، ٣٨/١و٣٩ .

(٣) السوقة: العامة والرعية أو المحكومون . والأمراء: الحكام . وفي هذا البيت بيان طبيعة الحكم في الإسلام، حيث لا امتياز للحاكمين على حساب المحكومين، لأنهم إنما يؤدون وظيفة محدَّدة هي تطبيق كل ما أمر به تعالى ومنع كل ما نهى عنه بموضوعية تامة (المترجم) .

(٤) أكفاء: متساوون وأنداد في كل شيء .

٨١- أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
فَالْكُلُّ فِيْ حَقِّ الحَيَاةِ سَوَاء
٨٢- فَلَوَ انَّ إِنْسَاناً تَخَيَّرَ مِلَّةً
مَا اخْتَارَ إِلاَّ دِيْنَكَ الْفُقَرَاء

ثم تُخْتَتَم القصيدة بإشارة أكثر تحديداً إلى حالة مصر [(١)]:

١٢٢- مَا جِئْتُ بَابَكَ مَادِحَاً بَلْ دَاعِيَاً
وَمِنَ المَدِيْحِ تَضَرُّعٌ وَدُعَاء
١٢٣- أَدْعُوْكَ عَنْ قَوْمِي الضِّعَافِ لأَزْمَةٍ
فِيْ مِثْلِهَا يُلْقَى عَلَيْكَ رَجَاء
١٢٤- أَدرَى رَسُوْلُ اللهِ أَنَّ نُفُوْسَهُمْ
رَكِبَتْ هَوَاهَا وَالْقُلُوْبُ هَوَاء
١٢٥- مُتَفَكِّكُوْنَ فَمَا تَضُمُّ نُفُوْسَهُمْ
ثِقَةٌ وَلاَ جَمَعَ الْقُلُوْبَ صَفَاء
١٢٦- رَقَدُوْا وَغَرَّهُمُ نَعِيْمٌ بَاطِلٌ
وَنَعِيْمُ قَوْمٍ فِي الْقُيُوْدِ بَلاَء

والمدهشُ أن شوقي لم يحاول قطّ، على غِرار متقدميه الكثُر من الشعراء في تسمية قصائدهم، أن يقلِّد البوصيري[(٢)]، صاحب قصيدة (الكواكب الدُّرِّيَّة في مدح خير البَرِيَّة)[(٣)]، بل إنه تجاوزهم إلى القدماء، وبالتحديد إلى قصيدة كعب بن زهير[(٤)] التي

(١) الشوقيات، ٤١/١

(٢) البوصيري (٦٠٨هـ – ٦٩٧هـ) : شاعر ولد بصعيد مصر قرب بلدة (بوصير) التي نشأ فيها وعرف بها، وقد اشتهر في أول حياته بالاستهتار والجنوح إلى المدح والهجاء على طريقة الحطيئة العبسي، ثم أصيب بفالج، ورأى في الرؤيا أن النبي ﷺ زاره ومسح على شقه المفلوج، فأصبح معافى، فتغيرت أحواله وتنسك وتصوَّف، وقال في مدح النبي ﷺ غير قصيدة، وأشهرها قصيدة البردة التي سماها بالاسم المذكور، وتبلغ نحو ١٦٠ بيتاً، وقد ذاع صيتها في الآفاق، حتى عُدَّ صاحبها في نهاية المطاف من أولياء الله الصالحين، وتوفي بالإسكندرية (المترجم) .

(٣) قام المستعرب الفرنسي (رنيه باسيه) René Basset، بترجمة هذه القصيدة إلى الفرنسية سنة ١٨٩٤ .

(٤) كعب بن زهير: شاعر مخضرم بين الجاهلية والإسلام، وموطنه بنجد، أسلم أخوه بجير قبله، فغضب عليه وهجا المسلمين وعرَّض بالنبي ﷺ ، فأهدر دمه، إلى أن جاءه سنة ٨ هـ مسلماً ومعتذراً بقصيدته (بانت سعاد) ، وتوفي سنة ٢٦هـ .

تسمى (البُرْدَة)[١]، مع أن كثيراً منهم تدرَّب على قصيدة البوصيري التي تُعَد قطعةً شعرية بليغة، ومنهم: ابن جابر الأندلسي، وابن حِجَّة الحَمَوي، وجمال الدين بن نُبَاتة المصري. وبقي الأمر كذلك في عصر الركود الذي كان المقلِّدون ذوو القيمة فيه نُدْرَة نادرة، على الرغم من أن النبع لم يكن قد جفَّ بعدُ. وقد حاول محمود صفوت الساعاتي، وآخر يدعى علي الدرويش مثلاً، وبعد عدة قرون من متقدميهم المشهورين، أن يمدحوا النبي (ص) على طريقة البوصيري.

وقد استعاد محمود سامي البارودي [٢]، في فترة النهضة، هذا التقليد بقصيدته (كَشْف الغُمَّة في مدح سيِّد الأُمَّة)، التي نظمها على نمط (سيرة ابن هشام) [٣]، على الرغم من أنه كان يعنى فيها بالتاريخ أكثر من عنايته بالشعر حسبما لاحظ زكي مبارك[٤].

ولكننا نجد، مع شوقي، تقليداً للتراث وشعراً محضاً: فقصيدته الطويلة، التي تتكون من ١٩٠ بيتاً، والتي أتقن شغلها، وتحمل عنوان (نهج البردة) [٥]، اقترضت من قصيدة البوصيري كلاً من البحر الشعري والقافية وحركتها، وقد افتتح شوقي قصيدته، كالبوصيري [٦]، بالنسيب التمهيدي الذي حوى، عن عمد، بعض كلمات الشعر القديم وعباراته، إذ يقول (من البسيط) [٧]:

(١) كان النبي (ﷺ) قد كافأ كعب بن زهير على قصيدته الاعتذارية (بانت سعاد) حين أنشده إياها، ببردته المطهَّرة، ولذا أصبحت هذه المكافأة علماً عليها يميِّزها من غيرها من القصائد العربية (المترجم) .

(٢) محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤) أحد كبار شعراء فترة الإحياء، كان مقلِّداً لأشعار العصر العباسي سائراً على أساليبهم، ومهد بشعره، الذي سخره لإبراز شخصيته وقيمه العليا التي يؤمن بها، لانطلاق الشعر العربي إلى رحاب التجديد في العصر الحديث: عمل فترة في وزارة الخارجية المصرية مبعوثاً إلى إستنبول لإجادته التركية، كما عمل في الخارجية التركية نفسها لإجادته اللغة الفارسية، وقيل كان يجيد الفرنسية أيضاً، وبقي سبع سنين في إستنبول، ثم عاد للعمل في الجيش الذي بلغ فيه أعلى الرتب، وشارك في ثورة عرابي على الخديوي توفيق، وأصبح رئيس وزراء لمدة شهر سنة ١٨٨٢، ثم نفي فيمن نفاه الإنكليز، بعد احتلال مصر تلك السنة، إلى كولومبو بسيريلانكا اليوم مدة ١٧ عاماً، أجاد خلالها الإنكليزية، وعاد بعدها إلى مصر وتوفي سنة ١٩٠٤ بالقاهرة، لقب بفارس السيف والقلم، وخلف ديواناً شعرياً ضخماً (المترجم) .

(٣) سيرة ابن هشام: هي سيرة النبي (ﷺ) العطرة التي ألَّفها محمد بن إسحاق (مولى قريش) (توفي ببغداد سنة ١٥٠هـ) ، ثم هذَّبها ونقَّحها بعده مما شابها عبد الملك بن هشام الحِمْيَري (توفي في الفُسْطاط سنة ٢١٨هـ) (المترجم) .

(٤) انظر كتابه: الموازنة بين الشعراء، ص١٩١ .

(٥) وهي من البحر البسيط ، والقافية (م). وهذه القصيدة نموذج آخر لإحدى الشوقيات التي بلغت شهرتها الناس العاديين، بفضل صوت أم كلثوم .

(٦) يقول البوصيري: أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِيْ سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعَاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

(٧) الشوقيات، ١/١٩٠و١٩١ .

١- رِيْمٌ عَلَى الْقَــاعِ بَيْنَ الْبَــانِ وَالْعَلَمِ
أَحَلَّ سَـفْكَ دَمِيْ فِي الأَشْـهُـرِ الحُـرُمِ
٢- رَمَى الْقَـضَـاءُ بِعَـيْنَيْ جُـؤْذَرٍ أَسَدَاً
يَا سَـاكِنَ الْقَـاعِ أَدْرِكْ سَـاكِنَ الأَجَمِ
٣- لـمّـا رَنَا حَـدَّثَتْنِي النَّفْسُ قَـائِلَةً
يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّـهْمِ الـمُـصِـيْبِ رُمِي
٤- جَـحَـدْتُهَا وَكَـتَـمْتُ السَّـهْمَ فِي كَـبِدِيْ
جُـرْحُ الأَحِـبَّـةِ عِنْدِيْ غَـيْـرُ ذِيْ أَلَمِ

....

٦- يَا لاَئِمِيْ فِيْ هَوَاهُ وَالْهَـوَى قَـدَرٌ
لَوْ شَـفَّكَ الْوَجْـدُ لَمْ تَعْـذِلْ وَلَمْ تَلُمِ

وتشتدّ نغمة النسيب التقليدي، على وجه الخصوص، في الأبيات من ١١ إلى ١٦، بسبب الطريقة المألوفة عند الشعراء القدماء، والقائمة على افتتاح كل بيت بكلمات ذات بِنْيَةٍ متماثلةٍ، كاسم الجمع المؤنث السالم هنا على وزن (فاعلات)، فكان كل بيت يقع بين عنصرين متقابلين في البداية والنهاية [(١)]. وهناك أيضاً الكلمات القديمة الكثيرة [(٢)]:

١١- مَنِ الْـمَـوَائِسُ بَانَـاً بِالرُّبَـا وَقَنَاً
الْلاَعِـبَـاتُ بِرُوْحِي السَّـافِـحَـاتُ دَمِي
١٢- السَّـافِرَاتُ كَـأَمْثَـالِ الْبُدُوْرِ ضُـحَىً
يُغِرْنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالحَلْيِ وَالْعِصَمِ[(٣)]

(١) لعل المؤلِّف يقصد هنا بذلك أن البيت يبدأ بصيغة صرفية هي (فاعلات) في أوله، وهي العنصر الأول، ويختتم بالقافية الموحدة، التي هي العنصر الثاني، مما يولِّد ما يشبه التوازي بين البيت وسابقه وبين البيت ولاحقه، ويشكل هذا نوعاً من الجمالية الشكلية في إخراج الشعر (المترجم) .
(٢) الشوقيات، ١/١٩١ .
(٣) العِصَم: القلائد .

١٣- الْقَـــاتِلاَتُ بِأَجْـــفَـانٍ بِـهَـــا سَـقَمٌ
وَلِلْمَنِيَّـــــةِ أَسْـــبَــــــابٌ مِنَ الـسَّـــقَمِ
١٤- الْعَـــاثِرَاتُ بِأَلْبَـابِ الرِّجَـالِ وَمَـــا
أُقِلْنَ مِنْ عَـــــثَـــــرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَـمِ[1]
١٥- الـمُضْرِمَاتُ خُـدُوْداً أَسْفَرَتْ وَجَلَتْ
عَنْ فِـــتْنَةٍ تُسْلِمُ الأَكْـــبَـــادَ لِلضَّـــرَمِ
١٦- الـحَامِـلاَتُ لِوَاءَ الـحُسْنِ مُخْـتَلِفَاً
أَشْكَالُهُ وَهْوَ فَـــرْدٌ غَـــيْـــرُ مُنْقَـــسِمِ

ولم تظهر الإشارة الأولى إلى النبي (ﷺ) إلا في البيت ٤٠ بتعبير مجازي هو (مفرِّج الكَرْب في الدارين والغُمَم)، ثم يتطرَّق إلى ذكر أمور في الآخرة يلَقَّب النبي (ﷺ) بسببها (أمير الأنبياء) و(صاحب الحوض)، ويلي ذلك مدح النبي (ﷺ)، ويبدأ بتوجيه اللوم إلى موقف قريش منه، إذ يقول [2]:

٦٤- فَـلاَ تَسَلْ عَنْ قُـرَيْشٍ كَـيْفَ حَـيْرَتُهَـا
وَكَـــيْفَ نُفْــرَتُـهَـــا فِي السَّـــهْلِ والْعَلَمِ
٦٥- تَسَـــاءَلُوْا عَنْ عَظِيْمٍ قَـــدْ أَلَمَّ بِهِمْ
رَمَى الـمَـــشَـــايِخَ وَالْوِلْدَانَ بِاللَّمَمِ [3]
٦٦- يَا جَـاهِلِيْنَ عَلَى الْهَـادِيْ وَدَعْـوَتِهِ
هَلْ تَجْـــهَلُوْنَ مَكَانَ الصَّـــادِقِ الْعَلَمِ
٦٧- لَقَّبْـتُـمُـوْهُ أَمِـيْنَ الْقَـوْمِ فِي صِـغَـرٍ
وَمَـــا الأَمِـــيْنُ عَلَى قَـــوْلٍ بِمُـــتَّـــهَمِ

---

(١) الرَّسَم: حسن المشي.
(٢) الشوقيات، ١/١٩٦-١٩٧ .
(٣) اللمم: طَرَفٌ من الجنون، يقال: رجل ملموم إذا كان به شيء من المَسّ، يريد أن دعوة النبي (ﷺ) قريشاً أصاب أفرادها المعاندين بما يقارب الجنون من شدة الغضب وغيره (المترجم) .

٦٨- فَـاقَ الْبُـدُوْرَ وَفَـاقَ الأنْبِـيَـاءَ فَكَمْ
بِالـخُلْقِ وَالـخَلْقِ مِنْ حُـسْنٍ وَمِنْ عِظَمِ
٦٩- جَـاءَ النَّبِـيُّـوْنَ بِالآيَاتِ فَـانْصَـرَمَتْ
وَجِـئْـتَنَا بِحَكِيْمٍ غَـيْـرِ مُنْصَـرِمِ

....

٧٢- يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِيْنَ الضَّادَ قَاطِبَةً [١]
حَـدِيْثُكَ الشَّـهْـدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَـهِـمِ

ويبدو أن الشاعر كان يرغب، وهو يشير إشارة مباشرة إلى بردة البوصيري [٢]، في رفع نغمة المديح، ذاكراً الفخر الذي حازه من اسمه الأول، إذ يقول [٣]:

١٠٠- يَا أَحْمَدَ الـخَيْرِ لِيْ جَاهُ بِتَسْمِيَتِيْ
وَكَـيْفَ لاَ يَتَـسَـامَى بِالرَّسُـوْلِ سَـمِي [٤]
١٠١- الْـمَـادِحُـوْنَ وَأَرْبَابُ الْهَـوَى تَبَعٌ
لِصَـاحِبِ الْبُـرْدَةِ الْفَـيْـحَـاءِ ذِي الْقَـدَمِ
١٠٢- مَـدِيْحُـهُ فِـيْكَ حُبٌّ خَـالِصٌ وَهَوًى
وَصَـادِقُ الحُبِّ يُمْلِيْ صَـادِقَ الْكَلِمِ

(١) اشتهرت اللغة العربية خطأ بأنها (لغة الضاد) بادِّعاء خلو لغات الأرض قاطبة من هذا الصوت، والحقيقة أن جميع لغات العالم فيه هذا الصوت، وإن لم يكن يكتب به في الخط برسم خاص به، كما هو الشأن في كلمات «danse» و«dent» و «dans» الفرنسية، على سبيل المثال لا الحصر، والحقيقة أن العربية تتميَّز بحرف (الظاء) أو صوته، فهي (لغة الظاء) لا الضاد (المترجم).

(٢) سبق للمؤلِّف أن ناقش تسمية شوقي هذه القصيدة (نهج البردة) فقال إنه تجاوز صاحب (الكواكب الدُّرِّيَّة)، الذي هو البوصيري، إلى كعب بن زهير في (قصيدة البردة) ، مما يعني أن ما يذكره هنا من إشارة إلى البردة لا يعني بها البوصيري، كما أنه ناقض نفسه حين قال كذلك إن شوقي اقترض من البوصيري البحر البسيط وقافية الميم وحركة الكسر فيها، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن شوقي إنما كان ينظر إلى معارضة البوصيري لا كعب بن زهير، على الرغم مما سيذكره صراحةً في البيت (١٠٣) بشيء من التواضع أو الإجلال أمام قصيدة البوصيري، لأن شروط القصيدة المعارِضة متوافرة في (نهج البردة) ، كما أن (الكواكب الدرية) عرفت في حياة ناظمها باسم (البردة)، يضاف إلى ذلك أن شارح الديوان ذهب إلى أن المراد بصاحب البردة الفيحاء إنما هو (الإمام البوصيري) (المترجم) .

(٣) الشوقيات، ١/١٩٩-٢٠٠ .

(٤) يعني أن اسم الشاعر (أحمد) يطابق إحدى تسميات النبي (ﷺ) الواردة في القرآن الكريم نفسه (المترجم) .

١٠٣- اللـهُ يَشْـهَـــدُ أَنِّيْ لاَ أُعَـــارِضُـــهُ
مَنْ ذَا يُعَـــارِضُ صَـوْبَ الْعَــارِضِ الْعَــرِمِ
١٠٤- وَإِنَّمَـــا أَنَـا بَعْضُ الْغَــابِطِيْنَ وَمَنْ
يَـغْـــــــــبِطْ وَلِـيَّـكَ لاَ يُـذْمَـمْ وَلاَ يُـلَـمِ

ومدَح شـوقي السيِّدَ المسيحَ (ع) مـع النبي (ص)، ولكنه إذا كـان يشيـد بـ (أخي النبي) و(روح الله) و(البـدَن الطُّهْـر الشَّـريف)، فـلأنه كـان يريد أن يفـضَـح ممارسـات أتباعه الذين نشروا الحروب حول العالم في رأيه، إذ يقول [١]:

١٣٤- أَشْـيَـاعُ عِـيْسَى أَعَـدُّوْا كُلَّ قَـاصِمَـةٍ
وَلَـمْ نُـعِــدَّ سِــــوَى حَــــالاَتِ مُنْقَــصِمِ

وعلى الرغم من ميل الشاعر بعضَ الميل إلى النَّزْعة التوفيقية syncrétisme، فلم تكن القصيدة تخلو، كما نرى، من سمة الجدَل، ويؤكِّد شوقي، بعد ذلك، وهو يرفـع من نغمة الكلام، أن الإمبراطوريات العظيمة جداً لا بد لها من أن تركع يوماً أمام الإسـلام ورسوله [٢]، إذ يقول [٣]:

١٥٥- دَعْ عَنْكَ رُوْمَــا وَآثينا وَمَــا حَــوَتَا
كُلُّ الْيَــوَاقِــيْتِ فِيْ بَغْــدَادَ وَالتُّــوَمِ [٤]
١٥٦- وَخَـلِّ كِـــــسْـرَى وَإِيْوَانَـاً يُدِلُّ بِـهِ
هَـوَى عَلَـى أَثَـرِ الـنِّـيْـــــرَانِ وَالأُيُـمِ [٥]

(١) الشوقيات، ٢٠٢/١ (يشرح شارح الشوقيات هذا البيت شرحاً لافتاً للنظر، غير أننا نتحفَّظ عليه بشدَّة، لأن المؤمنين حقاً بالسيد المسيح يعلمون أن المسيحية تدعو إلى المحبة والسلام والسكينة لا إلى الحروب، إلا أن مستغلِّي هذا الدين ليأكلوا به الدنيا هم الذين شنوا الحروب المسماة بالصليبية، ثم الاستعمارية، ثم الإمبراطورية، لأن نظام الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الدنيوية لا صلة له بالدين المسيحي، ولذا كان أصحاب هذا النظام يطمعون في ما هو في أيدي الآخرين، مستسهلين الحصول عليه، ولو سخروا الدين وغرروا بأتباعه في سبيل ذلك . كما أن شكوى شوقي في البيت لا تزال هي هي من الضعف الذي كان المسلمون يعانون منه قبل مئة عام، لإهمالهم إعداد القوة في سبيل الدفاع عن الذات في وجه الأطماع (المترجم).
(٢) وتلك كانت حالة الإمبراطورية الفارسية، والرومانية، والمغولية قديماً (المترجم) .
(٣) الشوقيات، ٢٠٥/١ .
(٤) التُّوَم: جمع تُوْمَة، وهي اللؤلؤة أو الحبة من الفضة على شكل اللؤلؤة .
(٥) الأُيُم: جمع إِيَام، وهو الدُّخَان .

١٥٧- وَاتْرُكْ رَعَمْسِيْسَ إِنَّ المُلْكَ مَظْهَرُهُ
فِيْ نَهْضَةِ الْعَدْلِ لاَ فِيْ نَهْضَةِ الْهَرَمِ
١٥٨- دَارُ الشَّرَائِعِ رُوْمَا كُلَّمَا ذُكِرَتْ
دَارُ السَّلاَمِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَمِ[١]

ويَخْتَتِم شوقي استحضار شواهد عظمة الإسلام، أخيراً، بهذا البيت الختامي الذي يدعو فيه الله تعالى أن يتمِّمَ على المسلمين ما كان له من فضل عليهم في البداية، وأن يجد هؤلاء المسلمون في تاريخ الإسلام أفضل المخارج مما هم فيه اليوم، فيقول[٢]:

١٩٠- يَا رَبِّ أَحْسَنْتَ بَدْءَ المُسْلِمِيْنَ بِهِ
فَتَمِّمِ الْفَضْلَ وَامْنَحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ

لقد كانت هذه القصائد العظيمة والنبيلة، ضمن إنتاج شوقي الواسع، هي التي كانت الأكثر إسهاماً، بلا جدال، في تأسيس شهرته بوصفه (شاعر الإسلام) (islamophilie)، مع المحافظة على كتمانٍ حَذِرٍ تفسِّره بعض الاعتبارات السياسية الداخلية. وقد كانت هذه هي الحال، على وجه الخصوص، في مطلع القرن [العشرين]، خلال المناظرة بين (غابرييل هانوتو)[٣] (Gabriel Hanoteaux) والشيخ محمد عبده[٤]، فقد ردّ الشيخ محمد عبده على سلسلة من المقالات التي كتبها الوزير المؤرِّخ، وينتقد فيها الإسلام، بثلاث مقالات نُشِرَتْ في صحيفة (المؤيَّد)، في أعداد ١٧و١٨و١٩ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠٠. وقدَّمت هذه الصحيفة، في عدد ٣ أيار (مايو) من السنة

(١) السَّلَم: التسليم.
(٢) الشوقيات، ٢٠٨/١.
(٣) غابرييل هانوتو (١٨٥٣-١٩٤٤) مؤرِّخ فرنسي كان عضواً في (الأكاديمية الفرنسية) ووزيراً، وهو الذي أشرف على وضع كتاب بعنوان (تاريخ الأمة المصرية)، انظر: المستشرقون لنجيب العقيقي، ص ٢٥٨ هـ١ (المترجم).
(٤) محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) أحد الإصلاحيين البارزين الذين ظهروا بمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تخرج في الأزهر بشهادة العالِمِيَّة، ودرَّس التاريخ في دار العلوم، تتلمذ على يد جمال الدين الأفغاني، وكان نهج الإصلاح عنده بالتربية والتعليم، نفي بعد ثورة عرابي إلى الشام، ومنها سافر إلى باريس وأسس مع الأفغاني صحيفة (العروة الوثقى) لتكون منبراً لأفكارهما، ثم عاد إلى مصر وعمل في القضاء والإفتاء والتدريس والتأليف إلى أن وافته المنية (المترجم).

نفسها، التعليق التالي [١]: (إن ذلك العالِم المفضال والإمام العظيم، الذي ردَّ على مسيو هانوتو، قد كتب أعلى ما يكتب الفيلسوف، وأسدَّ ما يحتجّ به المنطقي، وأبلغَ ما يسطِّر البليغ، ولذلك امتدحه شاعرٌ من أبلغ شعراء هذا العصر [٢] يعشق كبار الأعمال وأعمال الكبار، فقال (من الطويل) [٣]:

١- (مُـحَـمَّـدُ) مَـا أَخْلَفْـتَنَا مَـا وَعَـدْتَنَا
صَـدَقْتَ وَقَـالَ الحَقُّ فِـيْكَ ضَـمِـيْـرُ

٢- فَـأَنْتَ خِـضَمُّ الْعِلْمِ حَـالَ سُكُوْنِهِ
وَأَنْتَ خِـضَمُّ الْعِلْمِ حِـيْنَ تَثُـوْرُ

٣- وَأَنْتَ أَمِـيْـرُ الحِـفْظِ وَالْقَـوْلِ وَالنُّهَى
إِذَا لَمْ يَـنَلْ تِلْكَ الثَّـلاَثَ أَمِـيْـرُ

٤- فَـفَـوْقَ عَلِيْمِ الْقَـوْمِ مِنْكَ مُـعَلِّمٌ
وَفَـوْقَ وَزِيْـرِ الْقَـوْمِ مِنْكَ وَزِيْرُ

٥- إِذَا جَـهِلَتْ يَوْمَـاً عَلَيْنَا خُـصُـوْمُنَا
فَـإِنَّكَ مِنْ جَـهْلِ الخُـصُـوْمِ مُـجِـيْـرُ

٦- وَإِنْ جَـرَّدُوا الأَقْـلاَمَ جَـرَّدْتَ إِثْرَهَا
يَرَاعَـاً لَهُ فِي الخَـافِـقَـيْنِ صَـرِيْرُ

٧- إِذَا صَالَ لاَقَى ضَيْـغَمُ الْقَوْمِ ضَيْـغَـماً
لَهُ فِيْ نُفُـوْسِ الشَّـانِئِـيْنَ زَئِـيْـرُ

٨- وَأَنْتَ قَـرِيْبٌ فِي الْوَلاَءِ مُـؤَمَّلٌ
وَأَنْتَ أَبِيٌّ فِي الخِـصَـامِ كَـبِـيْـرُ

---

(١) انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ١/١٩٨ .

(٢) ورد في: الشوقيات المجهولة، ١/١٩٨ هـ٢ تعليق لمحمد صبري يقول فيه: (إن شوقي على الرغم من ولائه الشديد للخديوي عباس، الذي كان يرى في محمد عبده خصماً لدوداً له، كان أشد ولاءً لحرية الرأي والعقيدة . فكانت لا تخلو قصائد المديح الرسمية من الغمزات والجهر بالحقائق صراحة أو تلميحاً، وفي هذه الأبيات التي يخاطب بها محمد عبده وضع الشاعر ممدوحه في مرتبة أعلى من مرتبة الأمير والعالِم والوزير) (المترجم) .

(٣) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ١/١٩٨ .

٩- وَيُعْـجِـبُنِيْ مِنْكَ التُّـقَى حِـيْنَ لاَ تُقًى
وَجِــدُّكَ حِــيْنَ الْهَـــازِلُوْنَ كَـــثِـــيْـــرُ

ولا يمكننا هنا أن نمرّ بصمت على قصيدة قصيرة، على الرغم من أنها لم تكن قصيدة إسلامية، لأنها تظهر لنا إلى أي حدّ كان شوقي حسَّاساً للتصريحات المحبَّة للإسلام التي أدلى بها الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) Guillaume II، في نهاية القرن الأخير [التاسع عشر] . فقد كانت القوة التي صعدت، في هذه الفترة، هي ألمانيا التي كان نفوذها يمتدّ إلى الإمبراطورية النمسوية - المجرية، وكانت لألمانيا سمة إضافية لعبت دوراً لصالحها هي أنها لم تكن تسيطر على أي بلد إسلامي. وقد امتدّ النفوذ الألماني إلى تركيا، المدعومة من قِبَل إنكلترا التي كانت ترغب في خلق توازن مع نفوذ فرنسا وروسيا. وقد أوفدت ألمانيا، التي تعاظم نفوذها إثر الانتصارات الحديثة في أوربا، بعثة عسكرية إلى الجيش العثماني، في الوقت الذي كانت فيه البضائع الألمانية تتدفَّق على تركيا، وحصلت مجموعة مالية على امتياز سكَّة حديد تمتد من الآستانة إلى بغداد، مما يجعل النفوذ الألماني يصل إلى سواحل الخليج العربي.

وفي هذا السياق الملائم جداً لألمانيا، قام الإمبراطور (غليوم الثاني)، سنة ١٨٩٨، بزيارة ضريح صلاح الدين[١] بدمشق، حيث ألقى كلمة عبَّر فيها عن المحبَّة التي يُكِنُّها للعالم الإسلامي.

تأثَّر شوقي بهذا الموقف فوراً، فحيًّا بهذه الأبيات تصريحات الإمبراطور الألماني المحبَّة للإسلام بقوله (من الوافر)[٢]:

١- عَظِيْمُ النَّاسِ مَنْ يَبْكِي الْعِظَامَـــا
وَيَنْدُبُهُمْ وَلَوْ كَـــــانُوْا عِظَامَــــا

(١) وهو صلاح الدين الأيوبي، سلطان مصر والشام، الذي قهر جيوش الفرنجة في وقعة حطين، وحرَّر بيت المقدس، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٩هـ ودفن في ضريح يحاذي الزاوية الشمالية الغربية من المسجد الأموي بدمشق (المترجم) .
(٢) الشوقيات، ٥٦/٤ .

٢- وَأَكْــــرَمُ مِنْ غَـــمَـــــامٍ عِنْدَ مَـــحْلٍ
فَـــتَىً يُحْـــيِيْ بِمِـــدْحَـــتِـــهِ الْكِرَامَــا

وبعد هذه المقدمة المخصصة لمسعى (غليوم الثاني)، وهي منظومة حسب أسلوب المراثي، مع حكمة في المطلع، يخاطب الشاعر الإمبراطور الألماني بقوله [١]:

٥- رَعَــــــاكَ الـلـهُ مِنْ مَـلِكٍ هُـمَـــــــامٍ
تَعَـــهَّـــدَ فِي الثَّـــرَى مَلِكَاً هُمَـــامَـــا
٦- أَرَى النِّسْـــيَـــانَ أَظْمَـــأَهُ فَلَمَّـــا
وَقَـــفْتَ بِقَـــبْـــرِهِ كُنْتَ الْغَـــمَـــامَـــا
٧- تُقَـــرِّبُ عَـــهْـــدَهُ لِلنَّاسِ حَـــتَّى
تَرَكْتَ الجِـــيْلَ فِي التَّـــارِيْخِ عَـــامَـــا
٨- أَتَـدْرِيْ أَيَّ سُلْـطَانٍ تُـحَـــــــيِّـيْ
وَأَيَّ مُـــمَلَّكٍ تُـهْـــدِي السَّـــلاَمَـــا ؟!
٩- دَعَــــوْتَ أَجَلَّ أَهْلِ الأَرْضِ حَـــرْبَاً
وَأَشْــرَفَـــهُمْ إِذَا سَكَنُوْا سَـــلاَمَـــا
١٠- وَقَـــفْتَ بِهِ تُـذَكِّـــرُهُ مُلُـوْكَــــاً
تَـعَـوَّدَ أَنْ يُـلاَقُـــوْهُ قِـــيَـــــامَـا

وهو يشير إلى حروب الفرنجة البعيدة، ويذكر الوقائع الدامية فيها، ليبيِّن بصورة أفضل فحوى سلوك الضيف الألماني[٢]:

١١- وَكَمْ جَـمَـعَـتْـهُمُ حَـــرْبٌ فَكَانُوْا
حَـــدَائِدَهَا وَكَـــانَ هُوَ الْـحُـــسَـــامَـــا
١٢- كِـلاَمُ لِـلْبَـــرِيَّـــةِ دَامِـــيَـــاتٌ
وَأَنْتَ الْيَـــوْمَ مَنْ ضَـــمَـــدَ الْكِلاَمَـــا

(١) م.ن.
(٢) م.ن.

١٣- فَلَمَّـــا قُلْتَ مَـــا قَـــدْ قُلْتَ عَنْهُ
وَأَسْـــمَـــعْتَ الـمَـــمَـــالِكَ وَالأَنَامَـــا
١٤- تَسَـــاءَلَتِ الْبَـــرِيَّةُ وَهْيَ كَلْمَى
أَحُـــبّـــاً كَـــانَ ذَاكَ أَمِ انْتِـــقَـــامَـــا

ويجمع البيتان الختاميان في القصيدة المدح ذاته للإمبراطور والسلطان [صلاح الدين] إذ يقول شوقي[(١)]:

١٥- وَأَنْـتَ أَجَـلُّ أَنْ تُـزْرِيْ بِـمَـــــيْـتٍ
وَأَنْـتَ أَبَـرُّ أَنْ تُـؤْذِيْ عِـظَـامَـــــا
١٦- فَلَوْ كَـــانَ الدَّوَامُ نَـصِـــيْبَ مَلْكٍ
لَنَالَ بِـحَـــدِّ صَـــارِمِـــهِ الدَّوَامَـــا

الملهم الثالث - تركيا العثمانية

كان هناك سببان وراء إشادة شوقي بالأتراك: الأول عاطفي محض، ولكن لا يمكن إهماله، وهو نسبه الأناضولي الذي كان تركياً من قِبَل جدِّه الأخير (أحمد بك النَّجْدَلِي)[(٢)]. والثاني فكري وديني، وهو نتيجة طبيعية لمحبته الملتهبة للإسلام، لأن (شاعر الإسلام) كان يَعُدّ الأتراك حملة راية الوحدة الإسلامية إلى سقوط الخلافة الذي أحس الشاعر به على أنه طعنة خطيرة وُجِّهَتْ إلى الأمَّة [(٣)].

(١) م.ن .
(٢) لايبدو أن النسَب اليوناني لشوقي من قِبَل (تَمْزَار) جَدَّته لأمه قد ولَّد في نفس الشاعر نزاعات (كورنيلية) cornélien، بل كان عنده نوع من التوفيقية دفعته إلى أن يمجِّد القيَم المسيحية لأجداده الإغريق، غير أنه كان يشيد بالأتراك دوماً أثناء الحروب التركية – اليونانية بوصفهم المدافعين عن حمى الإسلام (وقد كان أحمد حليم بك النجدلي أو نجده لي زوجاً لـ (تمزار) السبية اليونانية، وأصله تركي من قرية (نجده) بالأناضول، غير أن شوقي يقطع بأن أصله كردي في مقدمة طبعته الأولى للشوقيات حين يقول: (سمعت أبي – رحمه الله – يردُّ أصلنا إلى الأكراد، فالعرب (على رأي القائلين بأن الأكراد فرع من قبائل العرب (المترجم)
(٣) كان إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ على أيدي الأتراك الطورانيين العلمانيين بقيادة الجنرال (مصطفى كمال) الذي دبَّج شوقي فيه مديحاً عظيماً لانتصاراته على اليونان خلال الحروب المريرة بعد الحرب العالمية الأولى التي انتهت باتفاقية لوزان سنة ١٩٢٢، ومنه قصيدة مطلعها:

للهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ　　يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ العَرَبِ

فلما ألغى الخلافة أصيب شوقي بخيبة أملٍ عظيمة فيه (المترجم) .

تحتوي (الشوقيات) على عشرات القصائد التي يمكن أن نجمعها حول هذا الموضوع المركزي الذي اعتاد النقد أن يطلق عليه اسماً عاماً هو (التركيات). وهي تتدرَّج ابتداء من النِّزَاعات اليونانية – التركية الأولى سنة ١٨٩٦ حتى إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤، وهي تستحقّ أن تُدْرَس على حدَةٍ بسبب الدَّوِيّ الهائل الذي كان لها في تلك الفترة، وبسبب المكانة التي كانت تحتلّها في أحضان (الشوقيات).

كانت انتفاضة جزيرة (كريت) ضد الأتراك، سنة ١٨٩٦، مناسبة لأول قصيدة تركية عند شوقي، وكانت نغمتها العامة ذات صبغة جدلية ملتهبة. ولم يكن نص هذه القصيدة، التي تحمل عنوان (تحية للتُّرْك)[١]، ذا بنية تقليدية، بل كان على صورة مثنويات distiques [٢] .

(١) وهي من البحر الوافر (انظر: الشوقيات، ١/٢٨٠–٢٨٥ وهي تتألف من ٤٠ مثنوية، وهناك قصيدة أخرى بذات العنوان في: الشوقيات، ١/٢٢٥–٢٢٦ وهي من البحر البسيط وذات نظم تقليدي بقافية موحدة هي: مِ، وتتكون من ١٩ بيتاً (المترجم) .

(٢) يعرف الفرنسيون هذا اللون من النظم باسم (distique) بمعنى (مثنوية) ، وهي أشبه بالرباعيات المعروفة، مع الاختلاف في انفراد الرباعية بالنظم واتفاق الأشطر (١و٢و٤) دون الشطر (٣) في القافية . وتتكون المثنوية عند شوقي من بيتين تكون أشطرهما الأربعة في المثنوية الأولى متفقة القافية على حرفٍ واحدٍ، على النحو التالي:

	الشطر الأول	الشطر الثاني
المثنوية الأولى : البيت الأول	.... أ	.... أ
البيت الثاني	.... أ	.... أ

وأما المثنويات التالية حتى نهاية القصيدة فتتفق مع المثنوية الأولى في الوزن من جهة، وفي قافية الشطر (٤) أي الحرف الافتراضي (أ) ، وأما الأشطر (١و٢و٣) فتكون متفقة على حرف واحد يتغير في كل مثنوية لاحقة إلى آخر القصيدة، على النحو التالي:

	الشطر الأول	الشطر الثاني
المثنوية الأولى : البيت الأول	.... أ	.... أ
البيت الثاني	.... أ	.... أ
المثنوية الثانية: البيت الأول	.... ب	.... ب
البيت الثاني	.... ب	.... أ
المثنوية الثالثة: البيت الأول	.... ج	.... ج
البيت الثاني	.... ج	.... أ

وهكذا، إلخ .. (المترجم) .

وتظهر بداية القصيدة، ودفعة واحدة، القضية العادلة للأتراك في وجه الأعمال العدوانية التي جعلتهم في مواجهة مع اليونان، إذ يقول (من الوافر)[١]:

١- بِحَمْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَا
وَحَمْدِكَ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَا
لَقِيْنَا فِيْ عَدُوِّكَ مَا لَقِيْنَا
لَقِيْنَا الْفَتْحَ وَالنَّصْرَ الْمُبِينَا
٢- هُمُ شَهَرُوْا أَذىً وَشَهَرْتَ حَرْبَا
فَكُنْتَ أَجَلَّ إِقْدَاماً وَضَرْبَا
أَخَذْتَ حُدُوْدَهُمْ شَرْقاً وَغَرْبَا
وَطَهَّرْتَ الْمَوَاقِعَ وَالْحُصُونَا

ويهاجم الشاعر ملك اليونان آنذاك (جورج الأول) Georges 1er، المتَّهَم برغبته في الاستيلاء على جزيرة (كريت)، فيقول[٢]:

٤/٢- فَلَمَّا هَبَّ (جُوْرْجِيْهِمْ) هُبُوْبَا
تَلَفَّتَ لاَ يُصِيْبُ لَهُ مُعِينَا
٥- رَأَى كَيْفَ السَّبِيْلُ إِلَى (كِرِيْدِ)
وَكَيْفَ عَوَاقِبُ الطَّيْشِ الْمَزِيدِ
وَكَيْفَ تَنَامُ يَا عَبْدَ الْحَمِيْدِ
وَتَغْفُلُ عَنْ دِمَاءِ الْعَالَمِينَا ؟!

وقد كان ذكر المعارك، كما هي الحال دائماً، غامضاً جداً، فقد ذكر بكل بساطة معركة (لاريسّا) Larissa، ومعركة (فرسال) Pharsale، كما أنه أفسح المجال لبعض الأبيات الطنانة التي تذكّر بعنفوان شعِر المتنبي، فقال [٣]:

---

(١) الشوقيات، ١/٢٨٠ .
(٢) م.س.، ١/٢٨٠-٢٨١ .
(٣) م.س.، ١/٢٨١و٢٨٣و٢٨٤ .

١/٨- بِخَـيْلٍ فِي الْهِضَـابِ وَفِي الرَّوَابِيْ
وَنَـارٍ فِـي الْقِــلاَعِ وَفِـي الطَّـوَابِـي[١]
وَسَــيْفٍ لاَ يَلِيْـنُ وَلاَ يُحَــابِيْ
إِذَا الآجَــالُ رَجَّـتْ مِـنْـهُ لِـيـنَـا

....

١/٢٤- جَـعَلْنَا الأَرْضَ تَحْـتَـهُمُ دِمَـاءَ
وَصَـيَّـرْنَا الدُّخَـانَ لَهُمْ سَـمَـاءَ
٢٥- وَرُبَّ مُـجَـاهِدٍ شَـيْخٍ مُـبَـجَّلْ
تَـرَجَّلَتِ الجِـبَـالُ وَمَـا تَرَجَّلْ
أَرَادَ لِيَـرْكَبَ الـمَـوْتَ الـمُـحَـجَّلْ
إِلَى أَجْـدَادِهِ الـمُـسْـتَـشْـهَـدِينَا

....

٣١ - فَلَمَّـا أذْعَنُـوا أَنَّا الـمَنَايَا
وَأَنَّا خَـيْـرُ مَنْ قَـادَ السَّـرَايَا
تَفَـرَّقَ جَـمْـعُـهُمْ إِلاَّ بَقَـايَا
عَلَى قُلَلِ الجِـبَـالِ مُـجَنْدَلِينَا

وتنتهي هذه القصيدة بتحية المجاهدين الذين أتاحت تضحياتهم الحصول على النصر، يقول الشاعر[٢]:

١/٣٢- صَـلاَةُ اللـهِ رَبِّـيْ وَالسَّـلاَمُ
عَلَى قَـتْلَى بـ (فَـرْسَـالُوْ) أَقَـامُـوا
٣٣- أَنَالُوا الـمُلْكَ فَـتْـحَـاً أَيَّ فَـتْحِ
وَشَـادُوْا لِلْخِـلاَفَـةِ أَيَّ صَـرْحِ

(١) الطوابي: لعلها الحصون .
(٢) الشوقيات، ٢٨٤/١ .

وَجَـــــــــاؤُوْا رَبَّـهُــمْ مِـنْـهُـمْ بِـذِبْـحٍ
تَـقَــــــــــبَّـلَـهُ وَكَـــانَ بِـهِ ضَـنِـيْـنَـا
٣٤/١- سَـلاَمَـاً سَـفْحَ (فَـرْسَـالُوْ) سَـلاَمَـا
وَكُنْ خَــيْــرَ الـمَــقَــامِ لِـمَن أَقَـــامَـــا

وفي تحية أخيرة للعثمانيين يقول شوقي [1]:

٤٠- بَنِيْ عُــثْــمَـــانَ إِنَّا قَــدْ قَــدَرْنَا
فُـــتُـــوْحَكُمُ الْكِبَـــارَ وَقَـــدْ شَكَرْنَا
سَــأَلْنَا اللهَ نَصْــراً فَـــانْتَــصَــرْنَا
بِكُمْ وَاللهُ خَـــيْـــرُ النَّاصِـــرِينَا

وفي قصيدة قصيرة نُشِرَتْ في (المجلة المصرية) يوم ٣٠ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠١، يشيد شوقي ثانية بتركيا، مبيِّناً الروابط العميقة التي تجمعها بمصر، ومن أهمها (اللغة العربية، والإسلام)، فيقول (من البسيط) [2]:

١٣- فَنَحْنُ إِنْ بَعُـــدَتْ دَارٌ وَإِنْ قَـــرُبَتْ
جَـارانِ فِي الضَّـادِ أَوْ فِي الْبَـيْتِ وَالحَـرَمِ
١٤- نَـاهِيْكَ بِالسَّـبَبِ الشَّـرْقِيِّ مِنْ نَسَبٍ
وَحَــــبَّـــذَا سَـــبَبُ الإِسْـــلاَمِ مِنْ رَحِمِ
١٥- شَـمْلُ الْلُغَـاتِ لَدَى الأَقْـوَامِ مُلْتَـئِمٌ
وَالضَّـادُ فِـيْنَا بِشَـمْلٍ غَـيْـرِ مُلْتَـئِمِ [3]

(١) م.س.، ٢٨٥/١ .
(٢) م.س.، ٢٢٦/١ .
(٣) كأن شوقي يستشعر بنظرة مستقبلية في هذا البيت ويتنبَّأ بما سيكون عليه موقف الأتراك القوميين من طلائع العلمانيين الطورانيين من اتِّباع لسياسة (التتريك) في البلدان العربية، مما أدى إلى ردة الفعل القومية عليها بالمطالبة بالحكم الذاتي في الولايات العَربية، ومن ثم الثورة والاستقلال وصعود التيار القومي العربي ليصل ذروته في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، ثم تراجعه لصالح النّزعات الإقليمية أو القُطْرية الضيِّقة، ويذكرنا كلام شوقي بقوله تعالى: (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) (انظر: القرآن، ١٢/من الآية ٢) ، ويُوصَف القرآن بأنه عربي في بضع آيات أخرى، لأن الله تعالى أراد للمسلمين كافة وحدة الفكر عن طريق وحدة اللغة، وأن تكون لغة المسلمين الجامعة لهم هي العربية، وليس هناك مانع من أن يتكلَّم المسلمون إلى جانبها وأن يستعملوا ما طاب لهم من لغاتهم، ولو اتَّخذ العثمانيون العربية لغة رسمية لدولتهم لتغيَّر وجه التاريخ . أما ما يتعلَّق بكون العربية (لغة الضاد) فانظر ملاحظتنا: آنفاً، ص ٣١ هـ ١ (المترجم) .

١٦- فَقَرِّبُوْا بَيْنَنَا فِيْهَا وَبَيْنَكُمُ
فَإِنَّهَا أَوْثَقُ الأَسْبَابِ وَالذِّمَمِ

ولما كان شوقي يرى في الدولة العثمانية آنذاك الضامن الوحيد لوحدة العالم الإسلامي، فلم يكن بوسعه إلا أن يقف موقفاً معارضاً بشدَّة لادِّعاءات الشريف حسين بن علي بمكة، حتَّى قبل أن يعلن الحرب على السلطان العثماني سنة ١٩١٦ (١). وقد استغلَّ الشاعر، في الحقيقة، منذ شهر نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠٤، تلك الاضطرابات التي جرت في منطقة الحجاز، ليكتب قصيدة (٢) تُعَدّ في الوقت نفسه مرافعة عنيفة ضد الشريف (٣) المتَّهَم بأعمال عنف ضد الحجاج إلى بيت الله الحرام، كما كانت القصيدة نداء حاراً إلى السلطان عبد الحميد يطلب إليه فيه أن يتصرَّف بوصفه زعيماً للأمة الإسلامية جمعاء، إذ يقول (من البسيط) (٤):

١- ضَجَّ الحِجَازُ وَضَجَّ الْبَيْتُ وَالحَرَمُ
وَاسْتَصْرَخَتْ رَبَّهَا فِيْ مَكَّةَ الأُمَمُ
٢- قَدْ مَسَّهَا فِيْ حِمَاكَ الضُّرُّ فَاقْضِ لَهَا
خَلِيْفَةَ اللهِ أَنتَ السَّيِّدُ الحَكَمُ
٣- لَكَ الرُّبُوْعُ الَّتِي رِيْعَ الحَجِيْجُ بِهَا
أَلِلشَّرِيفِ عَلَيْهَا أَمْ لَكَ الْعَلَمُ ؟!

(١) في ما يعرف بـ (الثورة العربية الكبرى)، بالتعاون مع الحلفاء (الإنكليز والفرنسيين خاصَّة) ممن كانت لهم أطماع حسب اتفاقية سايكس - بيكو باحتلال بلاد الشام والعراق وتقسيمها لا بإقامة مملكة عربية موحدة في المشرق العربي للشريف حسين كما كانوا قد صوَّروا له الأمر قبل الانتصار على الأتراك (المترجم).
(٢) وهي بعنوان (ضجيج الحجيج).
(٣) وكان هذا الشريف يدعى (عون الرفيق) (المترجم).
(٤) الشوقيات، ١/٢١١-٢١٣ [ويتساءل المرء بعد قراءة هذه القصيدة: هل كان لها دور في هرب شوقي في آخر لحظة من موكب الخديوي عباس المتجه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج سنة ١٩٠٩ خوفاً على نفسه من أي انتقام ؟ (المترجم)].

٤- أُهِيْنَ فِـيْـهَـا ضُـيُـوْفُ اللهِ وَاضْطُـهِـدُوْا

إِنْ أَنْتَ لَمْ تَنْتَـــقِمْ فَــــاللهُ مُنْتَــــقِمُ

٥- أَفِي الضُّـحَى وَعُـيُـوْنُ الـجُنْدِ نَاظِرَةٌ

تُسْـبَى النِّسَـاءُ وَيُؤْذَى الأَهْلُ وَالحَـشَمُ

٦- وَيُسْــفَكُ الدَّمُ فِيْ أَرْضٍ مُــقَــدَّسَــةٍ

وَتُسْـتَـبَـاحُ بِـهَـا الأَعْـرَاضُ وَالـحُـرَمُ

٧- يَدُ الشَّـــرِيْفِ عَلَى أَيْدِي الوُلَاةِ عَلَتْ

وَنَعْلُهُ دُوْنَ رُكْنِ الْبَـــيتِ تُسْــــتَلَمُ

٨- (نِيْـرُوْنُ) إِنْ قِـيْسَ فِيْ بَابِ الطُّغَـاةِ بِهِ

مُـبَــالَغٌ فِـيــهِ و(الـحَـجَّـاجُ) مُـتَّــهَمُ

٩- أَدِّبْهُ أَدِّبْ أَمِـيْــرَ الـمُـؤْمِنِينَ فَـمَــا

فِي الْعَــفْــوِ عَنْ فَـاسِقٍ فَـضْلٌ وَلَا كَــرَمُ

١٠- لَا تَرْجُ فِـيــهِ وَقَــاراً لِلرَّسُـولِ فَـمَـا

بَيْنَ الْبُـــغَـــاةِ وَبَينَ الـمُـــصْطَفَى رَحِمُ

....

١٤- الـحَـجُّ رُكْنٌ مِنَ الإِسْــــلَامِ نُكْبِـــرُهُ

وَالْيَـــــوْمَ يُوْشِكُ هَذَا الرُّكْنُ يَنْهَـــــدِمُ

....

١٦- عَـــزَّ السَّـــبِـــيْلُ إِلَى طَهَ وَتُرْبَتِـــهِ

فَـــمَنْ أَرَادَ سَـــبِـــيْـــلاً فَـــالطَّرِيْقُ دَمُ

١٧- مُـحَـمَّـدٌ رُوِّعَتْ فِي الْقَـبْـرِ أَعْظُمُـهُ

وَبَاتَ مُـسْـتَــأْمِناً فِيْ قَــومِــهِ الصَّنَمُ

١٨- وَخَـانَ (عَـوْنُ الرَّفِـيقُ) الْعَـهْدَ فِيْ بَلَدٍ

مِنـهُ الْعُـــهُـــــوْدُ أَتَتْ لِـلنَّاسِ وَالـذِّمَمُ

١٩- قَــدْ سَــالَ بِالدَّمِ مِنْ ذِبْحٍ وَمِنْ بَشَــرٍ
وَاحْـمَـرَّ فِـيْـهِ الحِـمَى وَالأَشْـهُـرُ الـحُـرُمُ

وتنتهي القصيدة بالنغمة نفسها، ويرجو الشاعر السلطان أن يعاقب الشريف وأعوانه بأشد أنواع العقاب، فيقول (١):

٣٢- فِيْ كُلِّ يَوْمٍ قِــتَــالٌ تَقْـشَـعِــرُّ لَهُ
وَفِـــــــتْـنَـةٌ فِـيْ رُبُـوْعِ الـلـهِ تَـضْـطَرِمُ
٣٣- أَزْرَى الشَّـرِيْفُ وَأَحْزَابُ الشَّرِيفِ بِهَا
وَقَـسَّـمُـوْهَا كَــإِرْثِ المَيْتِ وَانْقَـسَـمُـوْا
٣٤- لاَ تَجْـزِهِمْ عَنْكَ حِلْمَـاً وَاجْـزِهِمْ عَنَتَـاً
فِي الحِلْمِ مَــا يَسِمُ الأَحْـــلاَمَ أَوْ يَصِمُ
٣٥- كَفَى الجَـزِيْرَةَ مَا جَـرُّوْا لَهَا سَـفَـهاً
وَمَــا يُحَــاوِلُ مِنْ أَطْرَافِــهَــا الْعَــجَمُ

....

٣٨- وَالأَهُمُ أُمَــرَاءُ السُّـــوْءِ وَاتَّفَــقُــوْا
مَعَ الْعُــدَاةِ عَلَيْــــهَــا فَــالْعُــدَاةُ هُمُ
٣٩- فَـجَــرِّدِ السَّـيْفَ فِيْ وَقْتٍ يُفِـيْـدُ بِهِ
فَـــإِنَّ لِلسَّــــيْفِ يَوْمَـــاً ثُمَّ يَنْصَــــرِمُ

وفي الفاتح من أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٠٨، نشر حافظ إبراهيم، حول الموضوع نفسه، قصيدة طويلة تتكوَّن من سبعين بيتاً (٢) لم تكن حِدَّتُها أقلَّ من حِدَّة قصيدة شوقي. وقد توجَّه فيها (شاعر النيل) إلى الشريف حسين (٣) بهذه الكلمات (من الكامل) (٤):

(١) الشوقيات، ٢١٤/١ .
(٢) انظر: ديوان حافظ إبراهيم [طبعة مصورة في دار العودة ببيروت عن طبعة مصرية أصلية هي طبعة أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري . وكانت هذه القصيدة مخصصة أصلاً لتهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه على عرش الخلافة سنة ١٩٠٨ (المترجم)] ، ٤٤/١-٥٠ .
(٣) وكان حديث عهد بتولي منصبه سنة ١٩٠٨ (المترجم) .
(٤) ديوان حافظ إبراهيم، ٤٩/١ .

٦٢- تَـالـلـهِ لَوْ جَنَّدْتُمَــــا رَمْلَ الـنَّقَـــا

وَنَزَلْتُــمَـــا بِمَــوَاطِنِ الْعِــقْــبَـــانِ [١]

٦٣- وَغَـرَسْـتُـمَـا أَرْضَ الـحِـجَـازِ أَسِنَّةً

وَأَسَلْـتُـــمَـــــا بَـحْـراً مِنَ الـنِّيْـــــرَانِ

٦٤- وَأَقَـمْـتُـمَـا فِـيْـهَـا الـمَـعَـاقِلَ مَنْعَـةً

مِنْ أَرْضِ نَـجْـــدَ إِلَـى خَلِيْجِ عُــمَـــانِ

٦٥- لَدَهَاكُـمَــا وَرَمَــاكُـمَـا وَذَرَاكُـمَــا

مَــاحِي الـحُـصُـوْنِ وَمَــاسِحُ الْبُلْدَانِ [٢]

إن هذه السهام التي سُدِّدَتْ إلى الشريف حسين من قِبَل شوقي وحافظ إبراهيم، في الفترة نفسها التي كانت التصوُّرات السياسية لعبد الرحمن الكواكبي[٣] تنتشر فيه، وهو الذي حاول، منذ سنة ١٨٩٨، أن يدعو لفكرة خلافةٍ عربيةٍ خالصةٍ بعيدةٍ عن وصاية السلطان عبد الحميد والأتراك. وكان على العرب، من خلال هذا المنظور، أن يستولوا بأيديهم على مؤسَّسة الخلافة القديمة، وهذا ما كان يخلع على ادِّعاءات الشريف حسين بن علي شيئاً من الشرعية.

وكانت قصائد شوقي وحافظ تبدو من هذه الناحية (أشبه برفضٍ تامٍّ لأفكار الكواكبي، وصدىً حقيقياً لتيار الفكر الإسلامي، الذي كان سائداً في مصر، وكان يعارِض آنذاك قيام خلافة جديدة تَحُلّ محلّ الخلافة العثمانية. لقد كان محمد رشيد رضا [٤] ورجال (المنار) يقودون أساساً هذا التيار، ويقبلون الخلافة العثمانية على

(١) الخطاب بالتثنية موجَّه هنا إلى والي الحجاز وشريف مكة معاً (المترجم) .

(٢) يريد بماحي الحصون وماسح البلدان السلطان عبد الحميد (المترجم) .

(٣) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢) كاتب سوري ولد في حلب ودرس الشريعة الإسلامية، وعمل في الصحافة، وأسس لنفسه صحيفة (الشهباء) ثم (الاعتدال) ، سجن مراراً على آرائه المعارضة للعثمانيين، وهاجر إلى مصر، أهم أعماله (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) ، وكان داعية إلى (الجامعة العربية) وإلى فكرة (الخلافة العربية) وعاصمتها مكة المكرمة، يقال إن عملاء السلطان عبد الحميد دسوا له السم فمات به (المترجم) .

(٤) محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) لبناني الأصل، درَس في الأزهر، كان يعظ في المساجد، وكان داعية إلى الاجتهاد في الفقه، تأثر بأفكار الأفغاني ومحمد عبده، هاجر إلى مصر وأنشأ فيها سنة ١٨٩٨ مجلة (المنار) لبث أفكاره الإصلاحية، ودعا إلى تدريس العلوم العصرية للأجيال الناشئة، وأنشأ (دار الدعوة والإرشاد) لتخريج الدعاة، كان شديد الوعي لخطر الاستعمارين الفرنسي والإنكليزي على مستقبل الأمة، كما نبَّه على الخطر اليهودي، له مؤلفات كثيرة منها (تفسير المنار) و(الوحدة الإسلامية) (المترجم) .

عِلاَّتها، معتقدين أن الأتراك وحدهم مَنْ يملك التماسُك السياسي والقدرة على القيادة التي كانت الأمة الإسلامية في حاجة إليهما) [١].

وفي ٢٨ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠٩، وبقرار من المجلسين المجتمعين في الجمعية الوطنية، تم خلع السلطان عبد الحميد الثاني، الذي تسلَّم السلطة سنة ١٨٧٦، بعد أخيه مراد الخامس، وبعد ثلاثين سنة من الحكم المطلق، وقد خصَّ شوقي هذا الحدَث بقصيدة [٢]، يكشف فيها عن هذه النَّزْعة الاستبدادية absolutisme. وكان قصر (يَلْدِز) [٣] Yaldiz، الذي يحيط به فِنَاء واسع، يثير خيال الناس، ولذا ابتدأ شوقي قصيدته بذكر هذا القصر الأسطوري بمثل قوله (من مجزوء الكامل) [٤]:

١- سَلْ (يَلْدِزاً) ذَاتَ الْقُصُوْرِ
هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ الْبُدُورِ ؟!
٢- لَوْ تَسْتَطِيْعُ إِجَابَةً
لَبَكَتْكَ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرِ
٣- أَخْنَى عَلَيْهَا مَا أَنَا
خَ عَلَى الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ

وبعد أن يذكر شوقي الاحتفالات الباهرة التي كانت تقام في قصر (يلدز)، يتطرَّق إلى موضوع خلع السلطان، فيقول[٥]:

---

(١) انظر كتاب منى الخوري: الشعر وبناء مصر الحديثة (١٨٨٢–١٩٢٢) (بالإنكليزية)، ص ١٠٨ .

(٢) وهي تتكوَّن من ٨٠ بيتاً، بعنوان (الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد) .

(٣) يلدز: كلمة تركية تعني (النجمة)، وهذا ما يفسِّر استعمال شوقي كلمة (بدور) في مطلع القصيدة .

(٤) الشوقيات، ١٩١/١ وقد نقض هذه القصيدة الشاعر ولي الدين يكن وتهجم على شوقي بقصيدة مطلعها قوله:
هَاجَتْكَ خَالِيَةُ الْقُصُوْرِ وَشَجَتْكَ آفِلَةُ الْبُدُوْرِ

(٥) الشوقيات، ١٢١/١–١٢٢ لقد كان التعبير في هذه القصيدة ضعيفاً، وهو لا يفاجئنا حين نتذكَّر الماضي التركي لشوقي، أما حافظ إبراهيم فقد كان يظهر وحده، في هذه المناسبة، أشد قسوة في قصيدة كان قد أنشدها في حديقة الأزبكية يوم ٢٣ تموز (يوليو) من سنة ١٩٠٩ التي شهدت خلع السلطان، فقد صاح – بعد أن حيًّا إعلان الدستور العثماني – مخاطباً السلطان المعزول وعملاءه السِّرِّيِّين (من الطويل) :
٤٣- مَضَى عَهْدُ الاسْتِبْدَادِ وَانْدَكَّ صَرْحُهُ وَوَلَّتْ أَفَاعِيْهِ وَمَاتَتْ عَقَارِبُهْ
(انظر: ديوان حافظ إبراهيم، ٥٢/٢ والقصيدة بعنوان: عيد الدستور العثماني)، وظهر الشاعر ولي الدين =

٣٤- عَـبـدَ الحَـمِـيـدِ حِـسَـابُ مِـثْـ

ـلِكَ فِي يَدِ الـمَـلِكِ الْغَـفُـور

٣٥- سُـدْتَ الـثَّـلاَثِـينَ الـطِّـوَا

لَ وَلَـسْنَ بِـالحُكْمِ الْقَـصِـيـرِ

٣٦- تَـنْـهَـى وَتَـأْمُـرُ مَـا بَـدَا

لَكَ فِي الْكَبِـيْـرِ وَفِي الصَّـغِـيـرِ

....

٣٨- كَمْ سَـبَّـحُـوْا لَكَ فِي الرَّوَا

حِ وَأَلَّـهُـوْكَ لَـدَى الـبُـكُـورِ ؟!

٣٩- وَرَأَيْـتَـهُـمْ لَـكَ سُـجَّـداً

كَـسُـجُـوْدِ مُـوْسَى فِي الـحُـضُـورِ

٤٠- خَـفَـضُـوا الرُّؤُوْسَ وَوَتَّرُوْا

بِـالـذُّلِّ أَقْـوَاسَ الـظُّـهُـورِ

٤١- مَـاذَا دَهَـاكَ مِـنَ الأُمُـوْ

رِ وَكُـنْـتَ دَاهِـيَـةَ الأُمُـورِ ؟!

٤٢- مَـا كُـنْـتَ إِذْ حَـدَثَـتْ وَجَـلْـ

ـلَتْ بِـالجَـزُوْعِ وَلاَ الْعَـثُـورِ

= يكن (١٩٢١ م) أعنف من ذلك أيضاً، فقد ردَّ على قصيدة شوقي وصنَّفه، وهو يشير إليه إشارة جارحة، بأنه من (عُبَّاد السَّرير) أي عرش عبد الحميد، فقال (من مجزوء الكامل):

٦١- مَنْ عَاشَ يَسْتَحْلِي الشُّرُوْ — رَيَمُوْتُ مِنْ تِلْكَ الشُّرُوْرِ

٦٢- لَمَّا أُدِيْلَ عَـنِ السَّرِيْـ — ـرِ بَكَاهُ عُبَّادُ السَّرِيْرِ

٦٣- نَـذَرُوا النُّذُوْرَ لِعَوْدِهِ — هَيْهَاتَ يَرْجِعُ بِالنُّذُوْرِ

٦٤- أَسِـفُوْا عَلَيْهِ وَإِنَّمَا — أَسِفُوْا عَلَى المَالِ الدَّرِيْرِ

....

٦٦- طَلَبُـوْا لَهُ عَفْوَ الْغَفُوْ — رِوَشَذَّ عَنْ عَفْوِ الْغَفُوْرِ

٦٧ - قَلِّصْ رِحَـالَكَ رَاحِلاً — وَدَعِ البَرِيَّةَ فِي الْهَجِيْرِ

(انظر: ديوان ولي الدين يكن، ص٣٠) .

٤٣- أَيْـــــنَ الــــــرَّوِيَّــــــةُ وَالأَنَـــــا
ةُ وَحِكْمَــــةُ الشَّـــيْخِ الخَـــبِــــيــــرِ ؟!
٤٤- إِنَّ الْـقَــــــضَــــــاءَ إِذَا قَـــــــضَـى
دَكَّ الْقَـــــوَاعِـــــدَ مِنْ (ثَـبِـــــيــــــرِ) [(١)]

....

٤٨- قَـــالُوا: اعْـــتَـــزِلْ قُلْتَ: اعْـــتَـــزَلْـ
ـتُ.. الـــحُـكْـمُ لِـلّـــهِ الْـقَـــــــــــدِيـرِ
٤٩- صَـــــــبَــــــرُوْا لِدَوْلَـتِـكَ السَّنِيْـ
ـنَ وَمَــا صَــبَــرْتَ سِــوَى شُـــهُـــورِ
٥٠- أُوْذِيْتَ مِـنْ دُسْـــــــتُــــــــوْرِهِـمْ
وَحَـنَنْـتَ لِـلْـحُكْمِ الْـعَـــــسِـــــيــــــرِ

وبعد تذكير وجيز بالدور الذي لعبه القائد (نيازي بك) في انقلاب جمعية (تركيا الفتاة)، والقائد (محمود شوكت) الذي أعاد العمل بالدستور في إستنبول [(٢)]، تنتهي القصيدة بنوع من إعلان الولاء لخَلَفِ عبد الحميد، وهو السلطان (محمد رشاد)[(٣)]، إذ يقول [(٤)]:

٦٩- الـمُـــــؤمِنُـوْنَ بِـمِـــــصْـرَ يُهْـ
ـدُوْنَ الـسَّــــلاَمَ إِلَـى الأَمِـــــيـــــرِ
٧٠- وَيُبَـــايِـعُـوْنَكَ يَـا مُـــحَـــمْـ
ـمَـــدُ فِي الضَّـــمَـــائِرِ وَالـصُّـــدُورِ

....

(١) ثبير: اسم جبل ضخم في جزيرة العرب (يقال إنه بمكة) يتردَّد ذكره كثيراً في الشعر العربي (المترجم) .
(٢) أعيد العمل بالدستور في إستنبول في ٢٤ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠٩ .
(٣) وهو أخو السلطان عبد الحميد (المترجم) .
(٤) الشوقيات، ١٢٤/١ .

٧٣- أَنْتَ الْكَبِيْرُ يُقَلِّدُوْ
نَكَ سَيْفَ (عُثْمَانَ) الْكَبِيرِ

٧٤- شَيْخُ الْغُزَاةِ الْفَاتِحِيْ
نَ حُسَامُهُ شَيْخُ الذُّكُورِ

٧٥- يَمْضِيْ وَيُغْمَدُ بِالْهُدَى
فَكَأَنَّهُ سَيْفُ النَّذِيرِ

٧٦- بُشْرَى الإِمَامِ مُحَمَّدٍ
بِخِلاَفَةِ اللهِ الْقَدِيرِ [1]

٧٧- بُشْرَى الخِلاَفَةِ بِالإِمَا
مِ الْعَادِلِ النَّزِهِ الجَدِيرِ

٧٨- الْبَاعِثِ الدُّسْتُورَ فِي الْـ
إِسْلاَمِ مِنْ حُفَرِ الْقُبُورِ

٧٩- أَوْدَى مُعَاوِيَةٌ بِهِ
وَبَعَثْتَهُ قَبْلَ النُّشُورِ

٨٠- فَعَلَى الخِلاَفَةِ مِنْكُمَا
نُورٌ تَلأْلأَ فَوْقَ نُورِ

كان شوقي في إستنبول حين دُشِّنَتْ سنة ١٩١١ سفينتان حربيتان كان الباب العالي قد اشتراهما من ألمانيا، وقد سُمِّيَتْ إحداهما (باربروس) [٢] Barberousse،

(١) كثيراً ما يردِّ الشعراء، ومنهم شوقي، أن الخليفة هو (خليفة الله) تعالى الله عما يصفون، وإنما هو (خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم) في المؤمنين من بعده لرعاية شريعة الله التي أتى بها، بدليل أن أبا بكر (رضي الله عنه) كان يقال له (خليفة رسول الله) ، ولعل في مفهوم (خليفة الله) معنى الحكم الإلهي المطلق الذي كان سائداً في العصر الوسيط الأوربي عند ملوك الغرب، وكان الناس هناك يصورون الملك بأنه ظلّ الله على الأرض، وهذا غير مقبول بأي حال من الأحوال، لأنه يجعل الخليفة منَزَّهاً فوق الشبهات والمحاسبة، وما هو إلا عبد من عباد الله يجري عليه ما يجري عليهم، وحمِّل مسؤولية ثقيلة إن لم يحافظ على صونها والقيام بها عُزِلَ أو حوسب ونال ما يستحق من جزاء (المترجم) .

(٢) باربروس: هو خير الدين باربروس البحار الشهير بتصديه لسفن الفرنجة في الحوض الغربي من البحر المتوسط بدعم من الدولة العثمانية وتنسيق معها (المترجم) .

والثانية (طَرْغُود)[1] . Targud فحيًّا بهذه المناسبة مولد الأسطول العثماني بقصيدة [2] نشرتها مجلة (الهلال) في عدد الفاتح من حزيران (يونيو) سنة ١٩١١. وكان الشاعر مبتهجاً برؤية الدولة العثمانية تُحَدِّثُ وسائل دفاعها، فكان يبحث عن حِكَمٍ رصينةٍ وسوابق تاريخية بعيدة، إذ يقول (من الكامل) [3]:

٢٢- المُلْكُ وَالدَّوْلاَتُ مَا يَبْنِي الْقَنَا
وَالْعِلْمُ لاَ مَا تَرْفَعُ الأَحْلاَمُ

....

٢٤- خَطَّ النَّبِيُّ بِرَاحَتَيْهِ خَنْدَقاً
وَمَشَى يُحِيْطُ بِهِ قَنَاً وَسِهَامُ

٢٥- يَا (بَرْبَرُوْسُ) عَلَى ثَرَاكَ تَحِيَّةٌ
وَعَلَى سَمِيِّكَ فِي الْبِحَارِ سَلاَمُ

....

٢٩- شَمَّاءُ فِيْ عُرْضِ الخِضَمِّ كَأَنَّهَا
بُرْجٌ بِذَاتِ الرَّجْعِ لَيْسَ يُرَامُ [4]

٣٠- كَانَتْ كَبَعْضِ الْبَارِجَاتِ فَحَفَّهَا
لَمَّا تَحَلَّتْ بِاسْمِكَ الإِعْظَامُ

....

٣٣- وَتَلاَكَ (طُرْغُوْدٌ) كَمَا قَدْ كُنْتُمَا
جَنْبَاً لِجَنْبٍ وَالْعُبَابُ ضِرَامُ

(١) طرغود: وهو اسم كورسيكي شهير من جزيرة كورسيكا الفرنسية في البحر المتوسط أصله (دراغوت) Dragut ، كان باربروس قد اشتراه ورباه بحاراً، وأصبح في ما بعد ذا شأن كبير في البحرية العثمانية وعرف باسم (تورغود علي باشا) Turgud Ali Pacha .

(٢) وهي بعنوان (الأسطول العثماني) .

(٣) الشوقيات، ٢٢٨/١-٢٢٩ وتبلغ القصيدة ٤٧ بيتاً .

(٤) ذات الرجع: يقصد السماء، والرجع هو المطر .

٣٤- أَرْسَى عَلَى بَابِ الإِمَــــامِ كَـــأَنَّهُ
لِلْفُلْكِ مِنْ فَـــرْطِ الجَـــلاَلِ إِمَـــامُ

وفي السنة التالية، ١٩١٢، أتيحت الفرصة لشوقي لكي يشيد ببطولة الجنود الأتراك: فقد دعا (إيلوثير فينيزيلوس الأول) Eleuthère Venizelos 1er، وهو وزير من أصل كريتي، اليونانَ إلى الدخول في الحروب البلقانية، وكان البلغار قد استولوا على (أدرنة) Andrinople. وفي قصيدة يبدي فيها شوقي اهتمامه بإسبانيا لأول مرة، قارنَ بين ضياع إقليم مقدونيا الإسلامي وفقدان الأندلس سنة ١٤٩٢، وحملت تلك القصيدة عنواناً رمزياً هو (الأندلس الجديدة) (١)، إذ يقول (من الكامل) (٢):

١- يَا أُخْتَ أَنْدَلُس عَلَيْكِ سَـــلاَمُ
هَوَتِ الخِــلاَفَـــةُ عَنكِ وَالإِسْــلاَمُ
٢- نَزَلَ الْهِـلاَلُ عَنِ السَّمَـاءِ فَلَيْتَـهَـا
طُوِيَتْ وَعَمَّ الْعَـــــالَمِينَ ظَلاَمُ

....

٤- جُرْحَانِ تَمْضِي الأُمَّتَانِ عَلَيْهِمَا
هَذَا يَسِـــيْلُ وَذَاكَ لاَ يَلْتَـــامُ
٥- بِكُمَا أُصِيْبَ المُسْلِمُوْنَ وَفِيْكُمَا
دُفِنَ الْيَـرَاعُ وَغُـيِّبَ الصَّـمْصَـامُ
٦- لَمْ يُطْوَ مَـأْتَمُـهَـا وَهَذَا مَـأْتَمٌ
لَبِسُوا السَّوَادَ عَلَيْكِ فِيهِ وَقَامُوا
٧- مَا بَيْنَ مَصْرَعِهَا وَمَصْرَعِكِ انْقَضَتْ
فِي مَـــا نُحِبُّ وَنَكْرَهُ الأَيَّامُ

(١) وهي تقع في ١٠٥ أبيات .
(٢) الشوقيات، ١/ ٢٣٠و٢٣٠و٢٣٣ .

٨- خَلَتِ الْقُـــرُوْنُ كَلَيْلَةٍ وَتَصَـــرَّمَتْ
دُوَلُ الْفُـــتُــوْحِ كَـــأَنَّهَـــا أَحْـــلاَمُ
٩- وَالدَّهْرُ لاَ يأْلُو الـمَــمَـــالِكَ مُنْذِراً
فَـــإِذَا غَـــفَلْنَ فَـــمَـــا عَلَيْـــهِ مَـــلاَمُ
١٠- مَـقْـدُوْنِيَـا وَالمُـسْلِمُـوْنَ عَـشِـيْـرَةٌ
كَـــيْفَ الخُـــؤُولَةُ فِـــيْكِ وَالأَعْـــمَـــامُ

....

٢٧- بِالأَمْسِ أَفْــرِيْقَـا تَوَلَّتْ وَانْقَـضَى
مُلْكٌ عَلَى جِــيْــدِ الخِـضَـمِّ جُـسَـامُ
٢٨- نَظَمَ الْهِـــلاَلُ بِهِ مَــمَـــالِكَ أَرْبَعَـــاً
أَصْـــبَـــحْنَ لَيْسَ لِعِـــقْـــدِهِنَّ نِظَامُ
٢٩- مِنْ فَــتْحِ هَاشِمَ أَو أُمَــيَّــةَ لَمْ يُضِعْ
اَسَـــاسَـــهَـــا تَتَـــرٌ وَلاَ أَعْـــجَـــامُ
٣٠- وَالْيَــوْمَ حُكْمُ اللهِ فِيْ مَــقْـدُوْنِيَـــا
لاَ نَقْضَ فِـــــيـــــهِ لَنَا وَلاَ إِبْرَامُ
٣١- كَانَتْ مِنَ الْغَـرْبِ الْبَقِيَّةُ فَانْقَضَتْ
فَـــعَلَى بَنِيْ عُـــثْـــمَـــانَ فِـــيـــهِ سَـــلاَمُ

وقام الشاعر بهذه المقارنة التاريخية التالية حتَّى يشيد بدفاع حامية (أدرنة) القوي [1]:

٧٦- وَقَفَ الزَّمَـــانُ بِكُمْ كَـمَـــوقِفِ طَارِقٍ
الْيَـــأْسُ خَلْفٌ وَالرَّجَـــاءُ أَمَـــامُ [2]

(١) الشوقيات، ١/٢٣٧ .
(٢) وتتعلَّق الإشارة، هنا، بالقرار الذي اتَّخَذه طارقُ بن زياد بإحراق السفن بعد عبور المضيق الذي يحمل اسمه اليوم، حتى يقطع الرجاء بأي فرار، وبالخطاب الذي ألقاه قبل معركة (وادي لكة) Guadalete .

وقد ألهمت الحربُ اليونانية – التركية، سنة ١٩٢١، و(اتفاقية لوزان)، الشاعر قصيدة مشغولة بإتقان [١]، وهي تمرين مدرسي حقيقي، نكتشف فيه عدداً من شواهد الاقتراض من الشعراء القدماء، وهي تمرين رائع على ما فيه من عِلاَّتٍ في الذوق شدَّت انتباه النقد كما سنرى.

وتبدأ هذه القصيدة باقتراضٍ من أبي تمام [٢] الذي قال في البيت الأول من القصيدة التي مدح بها المعتصم [٣] بمناسبة انتصاره في عَمُّورِيَة، هذه الحكمة التي أصبحت مشهورة في ما بعد (من البسيط) [٤]:

١- السَّــيْفُ أَصْــدَقُ أَنْبَــاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِيْ حَــــدِّهِ الحَــــدُّ بَيْنَ الجِـــدِّ وَالْلَعِبِ

فقد أخذ شوقي منه: الموضوع، والبحر (البسيط)، وقافية (الباء)، مع حركة (الكسرة)، فافتتح قصيدته تلك بهذا البيت [٥]:

١- اللهُ أَكْـبَــرُ كَمْ فِي الْفَـتْحِ مِنْ عَــجَبِ
يَا خَــالِدَ التُّــرْكِ جَــدِّدْ خَــالِدَ الْعَــرَبِ [٦]

(١) وهي من البحر البسيط، وتقع في ٨٨ بيتاً، وعنوانها (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) .

(٢) أبو تمام: من أكبر شعراء العربية، ولد بقرية جاسم بحوران جنوب دمشق، وتعلم في دمشق، رحل إلى مصر، ومن ثم إلى بغداد وخراسان، ومدح الكبراء ومنهم الخليفة المعتصم بن الرشيد، وكان أول من أكثر من البديع في الشعر العربي وأسرف في استعماله، توفي في الموصل سنة ٢٣١هـ عن نحو خمسين سنة، ترك لنا ديواناً ضخماً، ومختارات شعرية عرفت بـ (حماسة أبي تمام) وأخرى عرفت بـ (الوحشيات) (المترجم) .

(٣) المعتصم: هو محمد بن هارون الرشيد تولى سنة ٢١٨هـ بعد أخيه المأمون، وكانت أمه جارية تركية، فمال إلى اتخاذ الأتراك حرساً له وجيشاً واستكثر منهم، وكانوا قوماً أشداء حارب بهم الروم في وقعة عمورية الشهيرة، وقمع بهم الخارجين على الدولة، إلا أنهم استبدوا بالخلفاء من بعده، فأصبحت الكلمة الأولى لهم في العصر العباسي الثاني (٢٣٢هـ-٣٣٤هـ) ، توفي سنة ٢٢٧هـ (المترجم) .

(٤) انظر: ديوان أبي تمام (طبعة محمد عبده عزام) ، ٤٠/١ (المترجم) .

(٥) الشوقيات، ٥٩/١ .

(٦) خالد الترك: يريد به القائد (مصطفى باشا كمال) الذي بلغ أوج الشعبية والمحبة في تركيا والعالم الإسلامي لانتصاراته الباهرة على الحلفاء الذين أرادوا في الحرب العالمية الأولى بعد انهيار الدولة العثمانية أن يتوغلوا في تركيا، ولانتصاراته على اليونان خاصة بعد وضع الحرب العالمية أوزارها حتى سنة ١٩٢٢ واتفاقية (لوزان) للصلح وإنهاء الحرب، ثم استبدّ بتركيا وألغى الخلافة سنة ١٩٢٤، وحولها إلى جمهورية ذات توجه علماني غربي محض، لايزال قائماً وشبه مقدَّس إلى اليوم، وأما (خالد العرب) فهو سيف الله المسلول خالد بن الوليد المخزومي القائد والفاتح المعروف (المترجم) .

ثم تبعته، بعد ذلك، هذه الأبيات التي تذكّرنا بأبي تمام [١]:

١٦- فَقُلْ لِبَانٍ بِقَوْلٍ رُكْنَ مَمْلَكَةٍ
عَلَى الْكَتَائِبِ يُبْنَى الْمُلْكُ لاَ الْكُتُبِ

....

١٨- لاَ خَيْرَ فِيْ مِنْبَرٍ حَتَّى يَكُوْنَ لَهُ
عُوْدٌ مِنَ السُّمْرِ أَوْ عُوْدٌ مِنَ الْقُضُبِ

ويروي طه حسين في كتابه (حافظ وشوقي) بأي حماسة استقبلت هذه القصيدة، غير أنه يضيف فوراً أن قراءة ثانية لهذه (الدُّرَّة الشوقية) تكشف لنا فيها عدداً لا بأس به من الصور القديمة والمستهلكة التي لم تكن دائماً على درجة عالية من الذوق، فيقول: (أعدنا قراءة القصيدة، وحينئذٍ لاحظتَ أنتَ ولاحظتُ أنا أن إعجابنا الأول لم يكن إلا ظاهرة اجتماعية، وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضاً غير قليل هذه المرة، ذلك لأننا كنا- أثناء القراءة الثانية - قد تخلَّصنا من الجماعة التي كانت تحيط بنا، ولم نحكِّم إلا ذوقنا الشخصي. وذوقنا الشخصي معقَّد كما تعلم.. وأذكُر وتذكُر أنت أيضاً أننا لهونا يومئذٍ بإخضاع هذه القصيدة لهذا الذوق المعقَّد، فضحكنا، وأغرقنا في الضحك والسخرية من هذه الصُّوَر العتيقة البالية تُتَّخَذ لتصوير الحياة الجديدة الحاضرة، وضحكنا بنوع خاصّ من هذا البيت [٢]:

٤٦- قَذَفْتَهُمُ بِالرِّيَاحِ الْهُوْجِ مُسْرَجَةً
يَحْمِلْنَ أُسْدَ الشَّرَى فِي الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ [٣]

وأضحكتنا هذه الرياحُ المُسْرَجة، وإن كان المراد بها الخيل، وأضحكتنا أُسْدُ الشَّرَى على هذه الخيل، وإن كان المراد بها فرسان الأتراك، ثم قصدنا إلى الإنصاف، وقلنا: شاعر يقلِّد القدماء، فلا ينبغي أن يُنْظَر إليه إلا بأعين القدماء، ولا

(١) الشوقيات، ١/٦٠ .
(٢) م.س.، ١/٦١ .
(٣) البَيْض: الخُوَذ . اليَلَب: الدروع .

ينبغي أن يُقَاس إلا بمقاييسهم.. فأمَّا أنا فَزعمتُ أن هذه القصيدة فارغة إلا من الألفاظ ليس وراءها شيء) [1].

ولا يمكننا، في الواقع، أن نمتنع عن الاعتقاد، أثناء قراءة هذه القصيدة، أن شوقي كان مُنكَبًّا على تمرين شعري لإظهار البراعة، ويؤكّد لنا ذلك اقتراضٌ آخر في الأبيات ٦٢-٦٦ [2]، التي تعرض لموضوع صاغه أبو تمام في قوله [3]:

٦٩- إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوْفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ
مَوْصُوْلَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ [4]

٧٠- فَبَينَ أَيَّامِكَ الْلاَتِيْ نُصِرْتَ بِهَا
وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

إذ يقول شوقي [5]:

٦٢- يَوْمٌ كَبَدْرٍ فَخَيْلُ الحَقِّ رَاقِصَةٌ
عَلَى الصَّعِيْدِ وَخَيْلُ اللهِ فِي السُّحُبِ

٦٣- غُرٌّ تُظَلِّلُهَا غَرَّاءُ وَارِفَةٌ
بَدْرِيَّةُ الْعُوْدِ وَالدِّيْبَاجِ وَالْعَذَبِ [6]

٦٤- نَشْوَى مِنَ الظَّفَرِ الْعَالِيْ مُرَنَّحَةٌ
مِنْ سَكْرَةِ النَّصْرِ لاَ مِنْ سَكْرَةِ النَّصَبِ

٦٥- تُذَكِّرُ الأَرْضَ مَا لَمْ تَنْسَ مِنْ زَبَدٍ
كَالمِسْكِ مِنْ جَنَبَاتِ السَّكْبِ مُنْسَكِبِ [7]

(١) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص٣٦-٣٨ .
(٢) يقصد بها أبيات قصيدة شوقي (المترجم) .
(٣) ديوان أبي تمام (طبعة محمد عبده عزام) ، ٧٣/١ .
(٤) ذمام غير منقضب: عهد غير منقطع .
(٥) الشوقيات، ٦٢/١-٦٣ .
(٦) العَذَب: جمع عَذَبَة، وهي الخرقة التي تربط بها الراية على عودها .
(٧) السَّكْب: اسم أول فرس ملكه النبي (ص) وكان كُمَيْتاً أَغرّ محجَّلاً، والسكب صفة تعني الجواد النشيط .

٦٦- حَــتَّى تَعَــالَى أَذَانُ الْفَــتْحِ فَــاتَّأَدَتْ
مَشْيَ الـمُـجَلِّيْ إِذَا اسْـتَوْلَى عَلَى الْقَصَبِ

وربما كان شوقي يفكّر في بيت أبي تمام الذي يقول فيه (١):

١٢- فَــــتْحٌ تَفَــــتَّحُ أَبْوَابُ السَّـمَـــاءِ لَهُ
وَتَبْــــرُزُ الأَرْضُ فِيْ أَثْوَابِهَــــا الْقُــــشُبِ

حين قال (٢):

٧٩- لـمّـــا أَتَيْتَ بِبَــدْرٍ مِنْ مَطَالِعِــهَـــا
تَلَفَّتَ الْبَـيْتُ فِي الأَسْـتَـارِ وَالحُـجُبِ (٣)

وقد أبدى طه حسين بشأن هذا الموضوع ملاحظة فيها شيء من السخرية حين قال: (ثم استمرّ شوقي يصف ابتهاج العالم الإسلامي في عشرة أبيات زلزلت فيها الأرض زلزالها، فسعى بلدٌ إلى بلدٍ، واصطدمت مدينة بمدينة، وتخاطب الموتى في دمشق وحلب، والأحياءُ في الهند ومصر، كل ذلك ولم يظفر بقول أبي تمام (٤):

١٢- فَــــتْحٌ تَفَــــتَّحُ أَبْوَابُ السَّـمَـــاءِ لَهُ
وَتَبْــرُزُ الأَرْضُ فِيْ أَثْوَابِهَــا الْقُــشُبِ) (٥)

ونلاحظ أن هناك لغة في هذه المواضيع، المعقَّدةِ بلا فائدة، تشهد على بحث مفرط عن استعارات وجناسات، كما في هذا البَيت الذي نجد فيه صورة جميلة إلا أن الجناسين لم يكونا موفَّقَيْن(٦):

(١) ديوان أبي تمام (طبعة محمد عبده عزام)، ٤٦/١ .
(٢) الشوقيات، ٦٣/١ .
(٣) لا نرى أي رابط بين معنى بيت أبي تمام وبيت شوقي، لأن أبا تمام أراد أن انتصار المعتصم لقي قبولاً حسناً في السماء وصعد هذا العمل إلى الله تعالى لأن فيه نصرة لدينه، كما عبرت الأرض عن فرحتها بلبس أجمل ما عندها من حلل الجمال الطبيعي . أما شوقي فأراد أن يقول إن الغازي (مصطفى كمال) حين أتى أرض المعركة مع اليونان، التي يرى أنها أشبه بأرض معركة بدر من حيث كونها في سبيل الله، تطلَّع بيت الله الحرام يترقَّب مجريات هذه المعركة التي توشك أن تقع ليعرف نتائجها وقلبه مع المسلمين (المترجم) .
(٤) ديوان أبي تمام، ٤٦/١ .
(٥) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص٤٢ .
(٦) الشوقيات، ٦١/١ [ونحن نخالف المؤلِّف في حكمه على هذين الجناسين: (سقاريا وسقر) و(أغرقت والإغريق)، لأنهما في غاية التوفيق كما نرى (المترجم)].

٣٥- مَـا كَـانَ مَـاءُ (سَـقَـارِيًّا) سِـوَى سَـقَـرٍ
طَغَتْ فَــأَغْــرَقَتِ الإِغْــرِيْقَ فِي الْلَهَبِ[١]

وإذا كان استنباط الناقد المصري الشهير طه حسين يخلو من الرِّقَّة في نقده، فإنه عبَّر به تعبيراً جيداً عن المآخذ التي سبَّبها أمير الشعراء لنفسه عن طريق استعمال التلاعب بالألفاظ استعمالاً تعسُّفياً، إذ يقول: (وكانت خلاصةُ رأيكَ ورأيي أن هذه القصيدة إنما هي أشبه شيء بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفالُ مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي تُلْقَى إليهم، فيوفَّقون في الصورة، ويخطئون الموضوع)[٢].

وقد ألهمت العداوة بين اليونان وتركيا شوقي سنة ١٩٢١ قصيدة أخرى طويلة، تتكوَّن من ٢٦٠ بيتاً [٣]، أشاد فيها بانتصارات الأتراك بشيء من الحماسة أكبر أيضاً. ويعطينا المقطع التالي فكرة عن ذلك، فقد وصف الشاعر فيه معركة (فرسال)، وجاء بتشبيهات متنوعة، وجريئة جداً أحياناً، في سلسلة طويلة من الأبيات التي كانت تبدأ جميعاً بقوله (كَأَنَّ) (من الطويل) [٤]:

١٩١- كَــأَنَّا أُسُــوْدٌ رَابِضَــاتٌ.. كَــأَنَّهُمْ
قَطِيْعٌ بِأَقْـصَى السَّـهْلِ حَـيْـرَانُ مُـذْئِبُ
١٩٢- كَأَنَّ خِيَـامَ الجَيْشِ فِي السَّـهْلِ أَيْنُقٌ
نَوَاشِــزُ فَــوْضَى فِيْ دُجَى الْلَيْلِ شُــزَّبُ

....

---

(١) أمام اندفاع اليونان، كان على الأتراك أن يُخْلُوا (إسكي شِهِر) Eski-Sheher ، وأن يقاتلوا متراجعين بعمق ٣٠٠ كم إلى (سَخَارِيَا) Sakharya ، حيث أقاموا أوضاعاً جديدة لحماية (أنقرا) Angora ، وقد هاجم اليونان (سخاريا) هذه في فجر يوم ١٤ آب (أغسطس) من سنة ١٩٢١ . ونشِبت معارك يائسة ومذبذبة استمرَّت ١٤ يوماً . وفي ٢٨ من الشهر نفسه، خرَق (مصطفى كمال) ، الذي أقام مركز قيادته في القرية الصغيرة (آلا غوز) Ala Goz ، الخطوط اليونانية . وفي ١٣ أيلول (سبتمبر) ، كان على اليونان أن يجتازوا (سخاريا) ، وأن يتراجعوا نحو الغرب، فجرت فيها معركة كانت بلا شك من أشد المعارك مرارة عليهم، انظر الرواية المفصَّلة التي عرضها (بنواست – ميشان) Benoist-Méchin في كتابه: الذئب والفهد (١– مصطفى كمال أو موت إمبراطورية) (بالفرنسية) ، ص٢٦٥–٢٧٠ .

(٢) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص٤٤ .

(٣) وعنوانها (صدى الحرب) .

(٤) الشوقيات، ١/٥٤–٥٥ .

١٩٤- كَـــأَنَّ الْقَنَا دُوْنَ الخِـــيَـــامِ نَوَازِلاً

جَـــــدَاوِلُ يُجْـــرِيْهَـــا الظَّلاَمُ وَيَسْكُبُ

١٩٥- كَأَنَّ الدُّجَى بَحْرٌ إِلَى النَّجْمِ صَاعِدٌ

كَـأَنَّ السَّـرَايَا مَـوْجُـهُ الـمُـتَـضَـرِّبُ

....

١٩٨- كَـأَنَّ وُجُـوْهَ الخَـيْلِ غُـرَّاً وَسِـيْـمَـةً

دَرَارِيُّ لَيْـلٍ طُـلَّـعٌ فِـيْـهِ ثُـقَّـبُ

١٩٩- كَـأنَّ أُنُوْفَ الخَـيْلِ حَـرَّى مِنَ الْوَغَى

مَـجَـامِـرُ فِي الظَّلْمَـاءِ تَهْـدَا وَتَلْهَبُ

....

٢٠١- كَـــأَنَّ سَنَـا الأَبْوَاقِ فِي الْلَيْلِ بَرْقُـــهُ

كَـأَنَّ صَـدَاهَا الرَّعْـدُ لِلْبَـرْقِ يَصْـحَبُ

٢٠٢- كَـــأَنَّ نِدَاءَ الـجَـيْشِ مِنْ كُلِّ جَـانِبٍ

دَوِيُّ رِيَـاحٍ فِـي الـدُّجَـى تَـتَـذَأَّبُ

٢٠٣- كَـأَنَّ عُـيُـوْنَ الجَـيشِ مِنْ كُلِّ مَـذْهَبٍ

مِنَ السَّـــهْلِ جِنٌّ جُـــوَّلٌ فِـــيْـــهِ جُـــوَّبُ

٢٠٤- كَـــأَنَّ الْوَغَى نَارٌ.. كَـــأَنَّ جُنُوْدَنَا

مَـجُـوْسٌ إِذَا مَـا يَمَّـمُـوا النَّارَ قَـرَّبُوْا

٢٠٥- كَـأَنَّ الْوَغَى نَـارٌ.. كَـأَنَّ الرَّدَى قِـرًى

كَـــأَنَّ وَرَاءَ الـنَّـارِ حَـــاتِمَ يَـأْدِبُ

....

٢٠٧- وَثَبْنَا.. يَضِـيقُ السَّـهْلُ عَنْ وَثَبَـاتِنَا

وَتَـقْـدُمُـنَـا نَـارٌ إِلَـى الـرُّومِ أَوْثَـبُ

ويندفع شـوقي، من ثَمَّ، إلى القَدْح العنيف في اليونان، بسلسلة من الأبيات تبدأ جميعاً باسم الاستفهام (أين ؟)، وكانت تفيض بالسخرية [١]:

٢٢٦- فَيَا قَوْمُ: أَيْنَ الـجَيْشُ في ما زَعَمْتُمُ ؟
وَأَيْنَ الجَــوَارِيْ وَالدِّفَـــاعُ الـمُــرَكَّبُ ؟
٢٢٧- وَأَيْنَ أَمِيْرُ الْبَأْسِ وَالْعَزْمِ وَالحِجَا؟
وَأَيْنَ رَجَــاءٌ فِي الأَمِــيْــرِ مُــخَــيَّبُ ؟
٢٢٨- وَأَيْنَ تُخُـوْمٌ تَسْتَبِيْحُوْنَ دَوْسَهَا ؟
وَأَيْنَ عِــصَـــابَاتٌ لَكُمْ تَتَــوَثَّبُ ؟

....

٢٣١- وَمَا شِدْتُمُ مِنْ دَوْلَةٍ عَرْضُهَا الثَّرَى
يَدِيْنُ لَهَــا الجِنْسَــانِ: تُرْكٌ وَصَــقْلَبُ

وكان الشاعر يرى أن على المنتصر أن يَظْهَر كريمَ النفسِ، ثم يختم قصيدته إثر ذلك بسؤال الخليفة أن يتقبّل مديحه هذا، والأبيات الأخيرة هذه [٢] تذكّرنا ثانية بمعنى لأبي تمام بشـأن صدق السيف والكتب، غير أن شيئاً من الخيلاء عند الشـاعر كان يخالط لهجة التواضع التي يبديها، إذ يقول [٣]:

٢٥٠- أَمَـوْلَايَ غَنَّتْكَ السُّـيُـوْفُ فَـأَطْرَبَتْ
فَــهَلْ لِيَــرَاعِيْ أَنْ يُغَنِّيْ فَــيُطْرِبُ ؟!

....

٢٥٣- مَـدَحْـتُكَ وَالدُّنْيَـا لِسَـانٌ.. وَأَهْلُهَـا
جَــمِـيْـعَــاً لِسَـانٌ.. يُمْلِيَـانِ.. وَأَكْـتُبُ

....

(١) الشوقيات، ١/٥٦-٥٧ .
(٢) وهي الأبيات من ٢٥٠ إلى ٢٦٠ .
(٣) الشوقيات، ١/٥٨ [وتبدو لنا هذه الأبيات مميِّزةً لشخصية شوقي التي هي في الحقيقة غيابُ شخصيته: فقد كان الشاعر صدًى يعيد إنتاج مشاعر معاصريه بأمانة وهو يكتب ما يملون عليه أكثر مما يكتب هو عن نفسه وتجاربه ورؤيته الذاتية، أي أكثر مما تملي عليه نفسه أو شخصيته أو ربة الشعر الخاصة به (المترجم)] .

٢٥٧- وَإِنِّيْ لَطَيْــرُ النِّيْلِ لاَ طَيْــرَ غَــيْــرُهُ
وَمَـــا النِّيْلُ إِلاَّ مِنْ رِيَاضِكَ يُحْـــسَبُ
٢٥٨- إِذَا قُلْتُ شِعْرَاً فَالْقَوَافِيْ حَوَاضِرٌ
وَبَغْـــدَادُ بَغْـــدَادُ وَيَثْـــرِبُ يَثْـــرِبُ
وَلَم أَعْـــدَمِ الظِّلَّ الخَـــصِـــيبَ وَإِنَّمَـــا
أُجَـــاذِبُكَ الظِّلَّ الَّذِيْ هُوَ أَخْـــصَبُ
٢٦٠- فَلاَ زِلْتَ كَهْفَ الدِّيْنِ وَالْهَادِيَ الَّذِي
إِلَى اللهِ بِالزُّلْفَى لَهُ نَتَـــقَـــرَّبُ

كان إلغاء الخلافة الإسلامية، يوم ٣ آذار (مارس)، من سنة ١٩٢٤، بالنسبة لجميع الأوساط التقليدية، ضربة خطيرة سُدِّدَت لوحدة العالم الإسلامي (١)، وقد ألهم هذا الحدَث شوقي قصيدة (٢)، كانت بمنْزِلة مرثية حقيقية، وكانت نقيضاً لكل قصائده الحماسية التي نظمها، حتى ذلك التاريخ، تمجيداً للانتصارات التركية.

وقد لاحظ (فرانتشيسكو غابرييلي) (٣) Francesco Gabrieli، إلى أي حدّ صَدَم إلغاء الخلافة هذه المشاعر التقليدية لدى شوقي الذي كان شديد الولَع بالمَثَل الأعلى للخلفاء الأولين (٤) فقال (٥): (لم تكن الخلافة عند العرب والمسلمين، إلى ما قبل أجيال قليلة، كلمة فارغة، أو ذكرى شاحبة من الماضي، كما هو الشأن عندهم اليوم، وإنما كانت مؤسَّسة تثير الإعجاب والاحترام. وحين ألغت تركيا الجديدة، الجمهورية والعلمانية، على يد الجمعية المتطرِّفة تركيا الفتاة، تلك الخلافة، استحضر شوقي تلك الذكرى الشهيرة، بانفعال صادق لأنه كان محافظاً، كما هو الشأن في سائر التاريخ

(١) خلافاً لأولئك الذين كانوا، تَبَعَاً لعلي عبد الرازق، يُسَوِّغون إلغاء هذه الخلافة، انظر كتاب علي عبدالرازق: الإسلام وأصول الحكم، القاهرة، ١٩٢٥ .
(٢) وهي من البحر الكامل، والقافية (اح) .
(٣) فرانتشيسكو غابرييلي: من كبار المستعربين الإيطاليين، وله دراسات في الأدب العربي قديمه وحديثه وبحوث في التاريخ العربي والإسلامي وترجمات إلى الإيطالية، انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٤٨ (المترجم) .
(٤) يقصد بهم الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) (المترجم) .
(٥) أثبت المؤلِّف نص رأي (غابرييلي) هذا باللغة الإيطالية (المترجم) .

المكتوب المستشهد به للإسلام، وانتساب شوقي إلى الرؤية التقليدية التي تنظر نظرة مثالية إلى الخلفاء الأولين في بساطة العيش، دفعه إلى توجيه اللوم إلى الخليفة الأموي معاوية وخلفائه لأنهم هم الذين حولوا هذا المنصب الأعلى في الإسلام ليكون وراثياً، وكان يُعَبَّر عن هذا المنصب بالهيئة الاستشارية أو الشورى [١]، وكان التوجُّس الديموقراطي تجاه الحاكم الفرد، الذي يمكن أن يتحوَّل بسهولة إلى طاغية، في صميم فكر شوقي وتأمُّله في التاريخ الإسلامي: ومن يعلم، إذا عشنا مدة أطول في القرن العشرين، إن كنا نغيِّر فكرتنا، ونُحْرِق بعض حبات البَخُور أيضاً للزعماء الجدد في الغرب وفي الشرق..)[٢].

ومن غير أن نغامر في إبداء فرضيات حول تغيُّرٍ إشكاليٍّ عند شوقي لو أنه قد عاش أكثر، يبدو لنا أن ما صدمه في مثل هذه الحالة أكثر إنما هو النَّزْعة العلمانية[٣] le laïcisme العنيدة والقاسية في (الكمالية)[٤] Kémalisme، حتى إن شكلاً من

(١) قال شوقي مثلاً يخاطب الخلافة متمنياً عليها أن تعود:

٥٩- عُوْدِيْ إِلَى مَا كُنْتِ فِيْ فَجْرِ الْهُدَى ... عُمَرٌ يَسُوْسُكِ وَالعَتِيقُ يَلِيْكِ
٦٠- إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَارَثُوْكِ عَلَى الْهَوَى ... بَعْدَ ابْنِ هِنْدٍ طَالَمَا كَذَبُوْكِ
٦١- لَمْ يَلْبَسُوْا بُرْدَ النَّبِيِّ وَإِنَّمَا ... لَبِسُوْا طُقُوْسَ الرُّوْمِ إِذْ لَبِسُوْكِ

(انظر: الشوقيات، ١/١٦٨) .

(٢) انظر مقالة (غابرييلي) : تخليد ذكرى أحمد شوقي (بالإيطالية)، في مجلة: الشرق الحديث Oriente Moderno، مج ٣٩، سنة ١٩٥٩، ص٤٩٢ .

(٣) العلمانية: نزعة إلى فصل الدين عن الدولة والحياة العامة نشأت في أوربا نتيجة لتنازع المصالح بين رجال الكنيسة من جهة وملوك أوربا ورجال الدولة من جهة أخرى (المترجم) .

(٤) الكمالية: نسبة إلى (مصطفى كمال) ، القائد العسكري المظفر خلال الحرب العالمية الأولى، والذي دافع عن تركيا فيما بعد الحرب ضد غزو الحلفاء وأطماع اليونان فيها، حتى أصبح بطلاً إسلامياً في العالم الإسلامي، وبطلاً قومياً للأتراك، فلقبوه بأبي الأتراك (أتا تورك) ، ولكنه وجد الفرصة مواتية ليستبد بالأمر ويقضي على الفساد المستشري في البلاد بسبب إدارة الخلافة العثمانية الضعيفة والمتهالكة التي خرجت زمام الأمور من يدها، فبدأ بإصلاحات انعطافية حادة كثيرة على رأسها إلغاء الخلافة الإسلامية، وإعلان الجمهورية التركية، واتِّخاذ مدينة أنقرة عاصمة لهذه الجمهورية، وإدارة الظهر للعرب والمسلمين والإسلام عامة، وإلغاء كتابة اللغة التركية بالحروف العربية وإحلال الحروف اللاتينية محلَّها، والدعوة إلى سفور المرأة على الطريقة الغربية، ونزع اللباس التقليدي ولبس الطرابيش في البلاد وارتداء البزات الغربية وربطة العنق والقبعة، والتوجُّه التام نحو تغريب تركيا في كل مظاهر الحياة، وقد عرف هذا التوجُّه بـ (الكمالية) التي طُبِّقَتْ بقسوة على الأتراك، ولا تزال الطبقة العسكرية توصف بأنها الحارس الأمين على إرث الكمالية هذه، وتطبيقه واستمراره، وأصبحت شخصية مصطفى كمال، بمرور الزمن، شخصية مقدَّسة في نظرهم (المترجم) .

الديموقراطية كان يبدو أنه اكتسبه منذ عودته من منفاه، وكان يمثّله – في نظره – نظام حكم الخلفاء الأولين، كما لاحظ (غابرييلي).

ومن الضروري أن نستشهد، هنا، بمقاطع كثيرة من هذه القصيدة ذات المغزى، لبيان عواطف الشاعر تجاه هذه القضية، إذ يقول (من الكامل) (١):

١- عَـــادَتْ أَغَـــانِي الْعُـــرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ
وَنُعِـــيْتِ بَيْنَ مَـــعَـــالِمِ الأَفْـــرَاحِ

٢- كُـــفِّنْتِ فِيْ لَيْلِ الزِّفَـــافِ بِثَـــوْبِهِ
وَدُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْـــــبَـــــاحِ

٣- شُـــيِّـــعْتِ مِنْ هَلَعٍ بِعَـــبْـــرَةِ ضَـاحِكٍ
فِيْ كُلِّ نَاحِـــيَـــةٍ وَسَكْرَةِ صَـــاحِ

٤- ضَـــــجَّتْ عَلَيْكِ مَـــــآذِنٌ وَمَنَابِرٌ
وَبَكَتْ عَلَيْكِ مَـــــمَـــــالِكٌ وَنَوَاحِ

٥- الْهِنْدُ وَالِهَـــةٌ وَمِـــصْـــرُ حَـــزِيْنَةٌ
تَبْكِيْ عَلَيْكِ بِمَـــدْمَعٍ سَـــحَّـــاحِ

٦- وَالشَّـــامُ تَسْـــأَلُ وَالْعِـــرَاقُ وَفَـــارِسٌ
أَمَـــحَـــا مِنَ الأَرْضِ الخِـــلاَفَـــةَ مَـــاحِ

٧- وَأَتَتْ لَكِ الجُـــمَعُ الجَـــلاَئِلُ مَـــأْتَمَـــاً
فَـــقَـــعَـــدْنَ فِـــيْـــهِ مَـــقَـــاعِـــدَ الأَنْوَاحِ

٨- يَـا لَلرِّجَـــــالِ لِـحُـرَّةٍ مَـــــوْءودةٍ
قُـــتِلَتْ بِغَـــيْـــرِ جَـــرِيْرَةٍ وَجُنَاحِ

٩- إِنَّ الَّذِيْنَ أَسَتْ جِـــرَاحَكِ حَـــرْبُهُمْ
قَـــتَلَتْكِ سِلْمُـــهُمُ بِغَـــيْـــرِ جِـــرَاحِ

(١) الشوقيات، ١/١٠٥و١٠٦و١٠٧و١٠٨ .

١٠- هَتَكُوْا بِأَيْدِيْهِمْ مُلاَءَةَ فَخْرِهِمْ
مَوْشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الْفَتَّاحِ

١١- نَزَعُوْا عَنِ الأَعْنَاقِ خَيْرَ قِلاَدَةٍ
وَنَضَوْا عَنِ الأَعْطَافِ خَيْرَ وِشَاحِ

١٢- حَسَبٌ أَتَى طُوْلُ الْلَيَالِيْ دُوْنَهُ
قَدْ طَاحَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَصَبَاحِ

١٣- وَعَلاَقَةٌ فُصِمَتْ عُرَى أَسْبَابِهَا
كَانَتْ أَبَرَّ عَلاَئِقِ الأَرْوَاحِ

١٤- جَمَعَتْ عَلَى البِرِّ الحُضُوْرَ وَرُبَّمَا
جَمَعَتْ عَلَيْهِ سَرَائِرَ النُّزَّاحِ

١٥- نظَمَتْ صُفُوْفَ المُسْلِمِيْنَ وَخَطْوَهُمْ
فِيْ كُلِّ غُدْوَةِ جُمْعَةٍ وَرَوَاحِ

١٦- بَكَتِ الصَّلاَةُ وَتِلْكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ
بِالشَّرْعِ عِرْبِيْدِ الْقَضَاءِ وَقَاحِ

١٧- أَفْتَى خُزَعْبِلَةً وَقَالَ ضَلاَلَةً
وَاَتَى بِكُفْرٍ فِي الْبِلاَدِ بَوَاحِ

١٨- إِنَّ الَّذِيْنَ جَرَى عَلَيْهِمْ فِقْهُهُ
خُلِقُوْا لِفِقْهِ كَتِيْبَةٍ وَسِلاَحِ

١٩- إِنْ حُدِّثُوْا نَطَقُوْا بِخُرْسِ كَتَائِبٍ
أَوْ خُوْطِبُوْا سَمِعُوْا بِصُمِّ رِمَاحِ

٢٠- أَسْتَغْفِرُ الأَخْلاَقَ لَسْتُ بِجَاحِدٍ
مَنْ كُنْتُ أَدْفَعُ دُوْنَهُ وَأُلاَحِي

٢١- مَالِيْ أُطَوِّقُهُ المَلاَمَ وَطَالَمَا
قَلَّدْتُهُ المَأْثُوْرَ مِنْ أَمْدَاحِي

٢٢- هُوَ رُكْنُ مَـــمْلَكَةٍ وَحَـــائِطُ دَوْلَةٍ

وَقَــرِيْعُ شَــهْـبَـاءٍ وَكَـبْشُ نِطَاحِ

٢٣- أَأَقُـوْلُ مَنْ أَحْـيَـا الجَـمَـاعَـةَ مُلْحِـدٌ

وَأَقُـــوْلُ مَنْ رَدَّ الـحُـــقُـــوْقَ إِبَاحِي

٢٤- الحَقُّ أَوْلَـى مِنْ وَلِـيِّكَ حُـــرْمَـــةً

وَأَحَقُّ مِـنكَ بِـنُصْـــرَةٍ وَكِـــفَـــاحِ

....

٢٨- أَدُّوْا إِلَى الْغَـازِي النَّصِيْـحَةَ يَنْتَـصِحْ

إِنَّ الجَــوَادَ يَثُـــوْبُ بَعْـــدَ جِـــمَــاحِ

٢٩- إِنَّ الْغُــرُوْرَ سَــقَى الرَّئِيْسَ بِرَاحِـهِ

كَـيفَ احْـتِـيَـالُكَ فِيْ صَـرِيْعِ الرَّاحِ ؟!

٣٠- نَقَلَ الشَّـرَائِعَ وَالْعَـقَـائِدَ وَالْقُـرَى

وَالنَّاسَ نَقْلَ كَـتَـائِبٍ فِي السَّـاحِ

....

٣٢- هُمُ أَطْلَقُـوْا يَدَهُ كَـقَـيْـصَـرَ فِـيْـهِمُ

حَـــتَّى تَنَاوَلَ كُلَّ غَـــيْـــرِ مُـــبَـــاحِ

....

٣٩- غَـــــزَوَاتُ (أَدْهَـمَ) كُلِّـلَـتْ بِـذَوَابِـلٍ

وَفُـــتُـــوْحُ (أَنْوَرَ) فُـــصِّلَتْ بِصِـــفَـــاحِ

٤٠- وَلَّتْ سُـيُـوْفُـهُـمَـا وَبَانَ قَنَاهُمَـا

وَشَــبَـــا يَرَاعِـيْ غَــيْـــرُ ذَاتِ بَرَاحِ

٤١- لاَ تَبْـــذُلُوْا بُرْدَ النَّبِيِّ لِعَـــاجِـــزٍ

عُـــــــزُلٍ يُـدَافِـعُ دُوْنَـهُ بِـالـرَّاحِ

٤٢- بِالأَمْسِ أَوْهَى الـمُـسْلِمِينَ جِـرَاحَـةً

وَالْيَـــوْمَ مَـــدَّ لَـهُـمْ يَدَ الجَـــرَّاحِ

وفي العـام التـالي، وخـلال حـفل تكريمي أقـيم لشـوقي، في الفـاتح من آب (أغسطس) سنة ١٩٢٥ بدمشق [١]، أشار خليل مردم بك إلى هذه القصيدة الناقدة حين أنشد الأبيات التالية التي كانت كأنها صدًى لردود الفعل الإسلامية على إلغاء الخلافة (من الكامل) [٢]:

٣٥- قُمْ وَاسْتَلِمْ دُوْرَ الخِلاَفَةِ إنَّهَا
أَمْسَى لَهَا بِيَدِ الرَّدَى اسْتِسْلاَمُ
٣٦- طُفْ فِيْ زَوَايَاهَا وَعَظِّمْ شَأْنَهَا
مِنْ شَأْنِهَا التَّعْظِيْمُ وَالإِكْرَامُ
٣٧- مَاذَا دَهَى الخَضْرَاءَ صَوَّحَ غُصْنُهَا
وَعَلاَ مُحَيَّاهَا الْوَسِيْمَ قِيَامُ [٣]
٣٨- فَكَأَنَّهَا لَمْ يَأْتَلِقْ فِي أُفْقِهَا
عُمَرُ الخَلِيْفَةُ وَالإِمَامُ هِشَامُ

وفي ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٢٣، وبقرار من الجمعية الوطنية الكبرى، تم إعلان مدينة (أنقرة) عاصمة لتركيا، فحيًّا شوقي بقصيدة [٤] ميلاد العاصمة الجديدة، وألقى، في الوقت نفسه، تحية الوداع الأخيرة على (إستنبول) التي كانت له فيها ذكريات كثيرة أيام شبابه. وكانت هذه القصيدة تشتمل إذن على لوحتين: الأولى لوحة (أنقرة) التي تُعَدّ مستقبَل تركيا، والثانية لوحة (إستنبول) التي تُعَدّ المجد الماضي لتركيا.

(١) المقصود به الحفل التكريمي الذي أقامه أدباء سورية وشعراؤها وسياسيوها وعلية القوم في المجمع اللغوي العربي بدمشق لأحمد شوقي حين زار دمشق بعد زيارته لبيروت وزحلة، وقد خلَّد زيارته هذه بعدد من القصائد الرائعة، ولعلّ هذا الحفل التكريمي هو الذي أوحى إلى الأدباء في القاهرة أن يعدُّوا حفلاً مثله للشاعر سنة ١٩٢٧، وأن يدعوا إليه أدباء العرب وشعراءهم المشهورين آنذاك (المترجم) .

(٢) انظر: ديوان خليل مردم بك، ص٢٦٢ (من قصيدة بعنوان (تحية شوقي) ، انظر: م.س.، ص ٢٥٩-٢٦٣).

(٣) الخضراء: يعني بها دار الخلافة . صوَّح غصنها: جفَّ ويبس (المترجم) .

(٤) وهي بعنوان (تكليل أنقرة وعزل الآستانة) .

ولنعد قليلاً إلى ذكر معركة (سخاريا) التي جرت قرب (أنقرة)، فقد رأى الشاعر في هذه المعركة أصلاً مجيداً يؤسِّس للعاصمة الجديدة وللأجيال المستقبلية، إذ يقول (من الكامل) [(١)]:

٤- فَعَقَدْتِ تَاجَكِ مِنْ ظُبَاً مَسْلُوْلَةٍ
وَحَلَلْتِ عَرْشَكِ مِنْ قَنَاً مَشْبُوكِ

ويبدو أن شوقي كان مدركاً، من ناحية أخرى، أن (أنقرة) تركية أيضاً مثل (إستنبول) التي لا يمكن للمواطنية العالمية فيها أن تسمح لتركيا الحديثة بأن تتطوَّر، وقد لاحظ (نوربير بيشوف) Norbert Bischoff أن (كل قصر، بل كل حجر في إستنبول كان شاهداً على انحطاط تركيا وانهيار قوتها، وكان شاهداً أيضاً على انهيار غطرسة الغرباء فيها، ثم إن ذكريات الإذلال القومي الكبير كانت تمر على زرقة سماء البوسفور كسربٍ من الأشباح)[(٢)].

إن تعلُّق شوقي بإستنبول، وإلغاء الخلافة الذي كان يتألَّم له، كانا يمنعانه من المتابعة، ومع ذلك كتب وهو يرى أن العاصمة الجديدة نقية من أي عار، فقال [(٣)]:

١٠- لاَ الْفَرْدُ مَسَّ جَبِيْنَكِ الْعَالِيْ وَلاَ
أَعْوَانُهُ بِأَكُفِّهِمْ لَمَسُوكِ

غير أن شوقي يكشف لنا، على وجه الخصوص، عن هذه الجهود العنيدة التي أظهرها العنصر التركي الخشِنُ في بناء مدينة جديدة في موقع منيع، فيقول [(٤)]:

١٥- نَحَتَ الشُّعُوْبُ مِنَ الجِبَالِ دِيَارَهُمْ
وَالْقَوْمُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ نَحَتُوكِ

---

(١) الشوقيات، ١/١٩٤ .
(٢) انظر كتابه: تركيا في العالم (بالفرنسية) ، ص١٨٠ .
(٣) الشوقيات، ١/١٦٤ .
(٤) م.س.، ١/١٦٥ .

١٦- إِنَّ الَّذِيْنَ بَـنَـوْكِ أَشْــــبَــــهُ نِيَّـــــةً
بِشَـبَـــابِ خَـيْـبَــرَ أَوْ كُــهُــوْلِ تَبُـوكِ

لقد كان قرار اتِّخَاذ (أنقرة) عاصمة للدولة، في الحقيقة، يبدو كأنه إجراء بطولي، فقد كتب (نوربير بيشوف) يقول: (كثير من الأمكنة كان يبدو أقل ملاءمة لبناء مدينة حديثة كبيرة كهذه المدينة التي كانت تقوم فيها المدينة البدائية القديمة، فقد كانت أنواع الحمى تنتشر فيها، مع قلة المياه، والتطوُّر الاقتصادي الضعيف في محيطها، وكان كل شيء يجعل هذا المشروع عويصاً تماماً.. ولكن الشعب التركي، الذي أعطى لهذه البقعة من الأرض شرف اختيارها لبناء مركز الوطن فيها على الرغم من أن الطبيعة كانت تعاملها بشح شديد، وبالعمل عليها بحماسة شديدة، كان يرغب في أن ينقل إلى الأناضول كله إصلاحات صارخة تعوضه عن الإهمال الذي تُرِك فيه طوال قرون) (١).

ومع ذلك، لم يستطع الشاعر أن ينسى إستنبول أيام شبابه، فترك لنفسه العِنَان ليعبِّر عن حنينه إليها بهذه الأبيات ذات النَّزْعَةِ الغنائية الأصيلة، إذ يقول (٢):

٣١- مِنِّي لِعَــهْــدِكِ يَا (فَـرُوْقُ) تَـحِـيَّـــةٌ
كَـــــعُـــــيُـــــونِ مَـــــائِكِ أَوْ رُبَا وَادِيكِ(٣)
٣٢- أَوْ كَـــالنَّسِــيــمِ غَـــدَا عَلَيْكِ وَرَاحَ مِنْ
فُـوْفِ الرِّيَاضِ وَوَشْـيِـهَــا الـمَـحْـبُـوكِ
٣٣- أَوْ كَـالأَصِـيلِ جَـرَى عَلَيكِ عَـقِـيْـقُـهُ
أَوْ سَــــالَ مِنْ عِــــقْــــيَـــانِهِ شَــــاطِيكِ

(١) انظر كتابه: تركيا في العالم (بالفرنسية) ، ص١٨١-١٨٢ .
(٢) الشوقيات، ١/١٦٦و١٦٨ .
(٣) فروق: من أسماء إستنبول .

٣٤- تِلْكَ الـخَـمَـائِلُ وَالْعُـيُـوْنُ اخْـتَـارَهَا

لَــكِ مِــنْ رُبَــا جَــنَّــاتِــهِ بَــارِيــكِ

٣٥- قَـدْ أَفْـرَغَتْ فِـيْكِ الطَّـبِـيْـعَـةُ سِـحْـرَهَا

مَنْ ذَا الَّذِي مِنْ سِــحْــرِهَا يَرْقِــيكِ

....

٤٠- وَلَيَــالِيَــاً لَمْ نَدْرِ أَيْنَ عِــشَــاؤُهَا

مِنْ فَــجْــرِهَا لَوْلاَ صِــيَــاحُ الدِّيكِ

....

٥٥- قُلْ لِلْخِـلاَفَـةِ قَـوْلَ بَاكٍ شَـمْـسَـهَـا

بِـالأَمْـسِ لــمَّــا آذَنَـتْ بِـدُلُـوكِ

٥٦- يَا جَــذْوَةَ التَّـوْحِـيْـدِ هَلْ لَكِ مُطْفِئٌ

وَالـلـهُ جَلَّ جَــلاَلُهُ مُــذْكِــيكِ

....

٥٩- عُـوْدِي إِلَى مَا كُنْتِ فِيْ فَـجْـرِ الْهُـدَى

عُــمَــرُ يَسُــوْسُكِ وَالْعَــتِــيقُ يَلِيكِ

٦٠- إِنَّ الَّذِيْـنَ تَـوَارَثُـوكِ عَلَـى الْهَــوَى

بَـعْــدَ ابْـنِ هِـنْـدٍ طَـالَمَا كَــذَبُوكِ

٦١- لَمْ يَلْبَــسُــوْا بُرْدَ النَّبِيِّ وَإِنَّمَــا

لَبِــسُــوْا طُقُــوْسَ الرُّومِ إِذْ لَبِــسُــوكِ

٦٢- أَوْ أَنْ تَزُفَّ لَكِ الْوِرَاثَـةُ فَــاسِــقَــاً

كَــيَــزِيْدَ أَوْ كَــالحَــاكِمِ المَــأْفُــوكِ

٦٣- فُــضِّيْ ثُيُــوبَ الْفَــرْدِ ثُمَّ خُــذِيْ بِـهِ

فِي أَيِّ ثَـوْبَـيْــهِ بِـهِ جَــاؤُوكِ

١ - ثورة عرابي باشا:

لم يسجِّل لنا شوقي، شاعر الوطنية المصرية، بحق عرابي باشا، أيَّ عداوة، على الرغم من كونها عداوة مستترة، تشِفّ أحياناً من خلال بعض الشوقيات: فهل كانت هذه العداوة صادقة أم متساهلة ؟ يميل محمد صبري بلا تردُّدٍ إلى الفرضية الأولى(١). ويبدو، في هذه الحالة، أن التأثير الذي تمارسه على الشاعر أوساطُ (السَّراي) لم يكن قليلاً. ومثل هذه الأوساط ترى، في الواقع، أنه لاستبعاد أي شُبْهَة خيانة عن الخديوي توفيق، ينبغي أن يُقَدَّم عرابي في صورة متمرِّدٍ على العرش وعلى مصر معاً(٢).

وقد غامر رياض باشا، في خطاب ألقاه في الإسكندرية يوم ٨ حزيران (يونيو) من سنة ١٩٠٤، بمناسبة افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية، بأن امتدح منافع الاحتلال الإنكليزي (٣)، فما كان من شوقي إلا أن ردَّ على مزاعمه بقصيدة (٤) تحمل في (الشوقيات) عنوان (خاتمة رياض) أنهاها بهذه الأبيات (من الوافر) (٥):

٣٢- أُحِــبُّكِ مِــصْــرُ مِنْ أَعْـمَــاقِ قَلْبِيْ
وَحُــــبُّكِ فِي صَــــمِــــيْمِ الْقَلْبِ نَامِي
٣٣- سَـيَـجْـمَـعُنِيْ بِكِ التَّـارِيْخُ يَوْمَــاً
إِذَا ظَهَــــــرَ الْكِرَامُ عَلَى الْلِئَـــــــامِ

(١) انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٥٠/١ وما بعدها .

(٢) ينبغي فهم موقف شوقي هذا على ضوء كون الخديوي توفيق ولي نعمته وصاحب الفضل عليه في تشجيعه الأدبي وإرساله على حسابه في بعثة إلى باريس لدراسة الحقوق، ثم في توظيف ابنه الخديوي عباس من بعده إياه في (الدائرة الأوربية) في قصر حكمه قرابة عشرين سنة متصلة رتع شوقي فيها بأنواع النعيم وحظي بالجاه العريض والثروة والشهرة الأدبية، كما نشأ في رعاية إسماعيل باشا والد الخديوي توفيق، فكان لا بد له من الوفاء إلى حدٍّ بعيد لكل ذلك في حياة توفيق وسلطان ابنه، وشاعرنا يتمتع بخصلة الوفاء وشكر النعمة، وإن كان في دخيلة نفسه يعرف الحقائق ويميل إلى إقرارها في شعره بصيغ عامة شاملة لا يؤخذ عليه منها شيء مخصوص بحق أولياء نعمته، وهذا شأن كل من يؤمن بالفلسفة التوفيقية في الحياة (المترجم) .

(٣) وكان اللورد (كرومر) Lord Cromer حاضراً في هذا الافتتاح .

(٤) وهي تتكون من ٣٩ بيتاً .

(٥) الشوقيات، ٢١١/١ .

٣٤- لأَجْلِكِ رُحْتُ بِالدُّنْيَـــا شَـــقِـــيَّـــاً
أَصُـــــدُّ الْوَجْـــــهَ وَالدُّنْيَـــــا أَمَـــــامِي
٣٥- وَأَنْظُرُ جَنَّةً جَـــــــمَـــــــعَتْ ذِئَابَاً
فَـــــيَــــصْـــــرِفُنِي الإِبَاءُ عَنِ الزِّحَـــــامِ
٣٦- وَهَبْـــتُكِ غَـــيْــرَ هَيَّـــابٍ يَرَاعَـــاً
أَشَـــــدَّ عَلَـى الْعَـــدُوِّ مِنَ الحُـــــسَـــــامِ
٣٧- سَـــيَكْتُبُ عَنْكِ فَـــوْقَ ثَرَى رِيَاضٍ
وَفِي التَّـــارِيْخِ صَـــفْـــحَـــةَ الاتِّهَـــامِ
٣٨- أَفِي السَّـــبْـــعِـــيْنَ وَالدُّنْيَـــا تَوَلَّتْ
وَلاَ يُرْجَى سِـــوَى حُـــسْنِ الخِـــتَـــامِ
٣٩- تَكُوْنُ وَأَنْتَ أَنْتَ رِيَاضُ مِـــصْـــرٍ
عُـــــرَابِي الْيَـــــوْمَ فِيْ نَظَرِ الأَنَامِ ؟!

وهناك إشارة أخرى إلى حركة التمرُّد التي قام بها أنصار عرابي تَمَّت بمناسبة رحلة الخديوي توفيق إلى مصر العليا من ٤ كانون الثاني (يناير) إلى ٨ شباط (فبراير) سنة ١٨٩١، فقد أرسل شوقي من باريس، حيث كان آنذاك، إلى الخديوي توفيق، قصيدة همزية تتألَّف من ٤٢ بيتاً [(١)]، نُشِر منها ٣٦ بيتاً فقط في المجلَّد الأول من طبعة (الشوقيات) الأولى تحت عنوان (تهنئة للمرحوم توفيق باشا بقدومه من الوجه القبلي والاحتفال بعيد ميلاده)، وقد نشرتها (الوقائع) كاملة في ٢٨ شباط (فبراير) من السنة نفسها، وقد ظهرت في الأبيات الستة المحذوفة إشارة إلى أنصار عرابي في الأبيات التالية منها قوله (من الخفيف) [(٢)]:

(١) ولم تظهر هذه القصيدة في الطبعة الحديثة (للشوقيات) [يعني طبعة ١٩٦٤] ، انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ١/٢٥١ .
(٢) م.ن.

قُـــمْتَ بِالأَمْـــرِ وَالحَـــوَادِثُ شَـــتَّى
وَلِعَلْيَـــــاكَ بِالشَّـبَـــــابِ ازْدِهَـاءُ
كُنْتَ أَشْـــــهَى وِرْدَاً مِنَ الْقَطْرِ لـمّـــا
أُشْـــــرِبَتْكَ الْقُلُوْبُ وَهْيَ ظِمَـــــاءُ
فَطَغَى فِي الْبِـــلادِ قَـــوْمٌ أُزِيْحُـــوْا
فَـــأُزِيْحَتْ مِنْ جَـــفْنِهَـــا الأَقْـــذَاءُ

وقد سجّل محمد صبري، بشأن هذا الموضوع، قوله: (والحق يقال إن الإنكليز ورجال السراي نجحوا في تشويه حوادث الثورة العرابية، حتى إن المرحوم أمين الرافعي، في مذكرته للوفد المصري، في سنة ١٩١٩، عن القضية المصرية، قال: «إن حوادث الثورة العرابية يحيط بها الغموض».. وعلى أية حال بدأ المؤرِّخون المصريون، بعد سنة ١٩٢٠، في كتابة تاريخهم الصحيح، وبعبارة أخرى: أصبح للمؤرِّخين المصريين، لأول مرة، وجهة نظر مصرية صميمة في كتاباتهم، فلا عذر لشوقي إذن في ما قاله عن العرابيين في سنتي ١٩٢٣و١٩٢٤. أما ما كتبه في الصحف ، سنة ١٩٠١، غُفْلاً من الإمضاء، ولم يُنْشَر في الديوان، وذلك إبّان الضجة الكبرى التي صحبت عودةَ عرابي من المنفى وتصريحاتِه، فقد يُلْتَمَس له فيه بعضُ العذر) [1].

وفي أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١، كان ولي عهد إنكلترا في جزيرة سيلان، فالتمس منه عرابي العفو، فعفا عنه، وقد غادر عرابي سيلان إلى مصر في ١٧ أيلول (سبتمبر)، ولكنه قبل قيامه، أدلى إلى صحيفة (أخبار سيلان) The Times of Ceylan بتصريحات أثنى فيها على الاحتلال الإنكليزي. ولما وصل إلى السويس في ٢٩ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها، أدلى إلى مراسل صحيفة (التايمز) Times اللندنية بتصريح نُشِر في عدد ١١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٠١، يمكن أن نقرأ فيه بقلم المراسل قوله عن عرابي: (وصرَّح لي، مع السرور، بإعجابه بحكم الإنكليز في مصر،

(١) م.س.، ٢٥٢/١ .

كما أُعْجِب به في جزيرة سيلان، ويظهر أن ما حصل له في مدة الثماني عشرة سنة التي أقامها في المنفى بتلك الجزيرة صيَّره صديقاً حميماً لإنكلترا) (١).

وبعد وصول عرابي إلى القاهرة، في مساء ٣٠ أيلول (سبتمبر)، لم يكتفِ بتصريحاته السابقة التي أثارت سخط الرأي العام، فنشرت له (المقطَّم)، جريدة الاحتلال، في ٢ تشرين الأول (أكتوبر) حديثاً جاء فيه: (ولما فرغ من شرح سفرته قلنا له:

س – هل وجدتم ما رأيتموه من مصر في هذين اليومين مختلفاً عما كان عليه حين مفارقتكم لها ؟

فقال:

ج – إن عائلتنا كبيرة.. وقد قابلتُ أكابرهم الذين جاؤوا السويس للتسليم عليَّ فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال، فوجدتهم متفقين في الجواب.. سألتهم: أصحيح أن السُّخْرة أُلْغِيَتْ ؟ فقالوا: نعم صحيح. قلت: والكرباج ؟ قالوا: بطل من زمان طويل. قلت: وكيف تُحَصَّل الأموال من الأهالي ؟ قالوا: بالحق والعدل، وكل إنسان يعرف ما له وما عليه. فسألتهم: وكيف الاستبداد في الأحكام الآن ؟ أجابوا: لم يتبقَّ للاستبداد أثر في البلاد، فكلُّ شيء مقيَّد بقانون ونظام. فشكرت الله حينئذٍ لأنه حقَّقَ مناي، وأراني قبل مماتي ما طالما كنتُ أتمناه لبلادي، وقلت: هذا هو الإصلاح.. ولكن لحكمةٍ له جَلَّ جَلالُه قضى أن لا يتمَّ على يدي بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال، وكانوا لنا أعداء، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء) (٢).

---

(١) م.س.، ١/٢٥٢–٢٥٣ .

(٢) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ١/٢٥٣ (لقد اتَّهم المؤرخون فيما بعد، والحركة الوطنية المعاصرة لهذه التصريحات عرابي باشا بتهم تصل إلى حد الخيانة، كما أن الذين شهدوا ثورته اتهموه أيضاً بالخيانة، فهو بين نارين دائماً، والحقيقة أن إجابات عرابي على سؤال جريدة (المقطم) تدل على ذكاء عرابي الشديد: فهي إجابات ساخرة من نحو إن لم تكن الأمور التي سأل أقاربه عنها محققة على أرض الواقع، وهي إجابات تمثِّل أهدافاً وغايات لأي ثورة إن كانت تلك الأمور غير محققة على أرض الواقع، ثم إنه بنى رأيه لا عن قناعة بما رأى في الواقع، وإنما على آراء أقاربه التي سمعها، فهو حكم بالنتيجة على ما سمع منهم، وفي هذا حسن تخلُّص منه لم يفهمه الوطنيون المتحمسون وقتها. ثم إنه يسخر من هؤلاء الوطنيين الذين ليس بأيديهم سوى الكلام، لأنه لم يجدهم دافعوا عنه حين كان =

إن هذه اللغة التي يصعب تصديقها من وطني مصري حضَّت على صرخة غضب أطلقتها الصحف الوطنية، ومنها صحيفة (اللواء)، في عدد ٢٨ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٠١، في افتتاحية بقلم مصطفى كامل، نقرأ فيها قوله عن عرابي: (لم يكفِهِ ما جناه على وطنه، حتى سمعناه يفتخر بالاحتلال وآثاره، ويراه النعمة الكبرى على هذه الديار الأسيفة.. نسِيَ عرابي أو تناسى أن الإنكليز أبوا أن يستلم سيفَهُ قائدٌ منهم أو ضابطٌ صغير إظهاراً لاحتقارهم لزعيم حركة لم يتَّصِف جيشه وجنوده إلا بالجبن الفاضح والهرَب السريع)[1].

وفي عدد ٣ تشرين الأول (أكتوبر)، عادت صحيفة (اللواء) إلى ذكر عرابي ثانية في افتتاحية أخرى بلا إمضاء بالقول: (مصرُ اليومَ مَرْسَحٌ[2] يُمَثَّل فيه آخر فصلٍ من رواية " عاقبة خيانة عرابي "، وهو أسوأ فصول هذه الرواية المحزنة) [3].

وقد أسهم شوقي في هذه المعركة بقلمه، ونشر قصيدتين بلا إمضاء: ظهرت الأولى في صحيفة (اللواء)، يوم ٢٩ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١ في مكان الافتتاحية وبعنوان اتِّهامي ضخم هو (عرابي وما جنى)[4]، وكانت النغمة العامة فيها هي نغمة النقد اللاذع الممزوج بسخرية جارحة، ويكفي مطلع القصيدة للدلالة على مدى عنفها، إذ يقول (من البسيط)[5]:

= وطنياً ثائراً لأجل مصر وأبنائها المضطهدين، ولم يسعوا في نصرته لتخليصه من منفاه ليقود حركتهم، وحينما مدح المحتلين لم يعجبهم ذلك، مع أن مدحهم في هذا السياق إنما هو إسهام في تأجيج الكره لهم، وربما وُضع على لسان عرابي في هذه التصريحات ما لم يقله، فنفاه، فسُمع التقوُّل عليه، ولم يُسْمَع النفي له (المترجم).

(١) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٥٣/١ .

(٢) كانت كلمة (مرسح) بمعنى (مسرح) قائمة على ألسنة الناس، وخاصة العامة منهم، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً، إلى أن استقر استعمال كلمة (مسرح) نهائياً بعد ذلك (المترجم) .

(٣) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٥٣/١ .

(٤) وقد أسقطت القصيدة من طبعة ١٩٦٤ لأسباب سياسية ووطنية بمصر ثورة تموز (يوليو) (المترجم) .

(٥) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٥٥/١ [تأمّلنا في طريقة نظم هذه القصيدة فلم نجد أي صلة أسلوبية بينها وبين طريقة شوقي، ونكاد نجزم أنها أقرب وألصق بطريقة حافظ إبراهيم المتدفقة والمتأجِّجة بنار العاطفة الغاضبة، وربما كانت لغير حافظ إبراهيم من معاصريه، وهذا مذهب ضعيف .. (المترجم)] .

١- أَهْلاً وَسَـهْـلاً بِحَـامِـيْـهَـا وَفَـادِيْهَـا
وَمَــرْحَــبَــاً وَسَــلاَمَــاً يَا عُــرَابِيْــهَــا
٢- وَبِالْكَرَامَــةِ يَا مَنْ رَاحَ يَفْـضَـحُــهَـا
وَمَـقْـدَمِ الْـخَـيْـرِ يَا مَنْ جَـاءَ يُخْـزِيْهَـا

ويمكن إذن تفسير موقف شوقي الحاد، أحياناً، من الوطنيين المصريين، وهذا ما بيَّنه موقفه من عرابي في هذه الواقعة بياناً تاماً، برغبته في ألا يزعج الخديوي. ولنلاحظ، هنا أيضاً، أن هذه الحِدَّة نفسها موجودة في تصوراته السياسية التي نكتشف فيها بعض التناقضات: لقد كان شوقي يظهر نوعاً من الميل الاجتماعي في قصيدة [١]، غير أنه كان يبدو مرتاباً بالحركات الشعبية في قصيدة أخرى، ألم يصرِّح في مرثيته للكاتب الروسي (تولستوي) [٢] Tolstoï بقوله ؟ (من الطويل) [٣]:

٤٦- وَقَــامَ مَــقَــامَ الْفَــرْدِ فِيْ كُلِّ أُمَّــةٍ
عَلَى الـحُكْمِ جَمٌّ يَسْــتَــبِــدُّ غَــفِــيْــرُ

وهذا بيت متميِّز لفت انتباه محمد صبري الذي سجل بشأنه ملاحظة يقول فيها: إن الديموقراطية التي تقوم على النظام الحديث للأحزاب، في الواقع، تتحول إلى فوضى، ثم إلى استبداد الفرد. وأظن، في عالمنا الحاضر، أن أكثر الأنظمة الحكومية قد أصبحت مزيجاً من الأنظمة المختلفة: فجمهورية قيصر كانت مزيجاً من الديموقراطية الجزئية والفردية.. وفي إنكلترا، ومنذ قرن، كانت قلَّة أرستقراطية تحكم بدلاً من الملك وباسمه. وفي الجمهورية الأمريكية، كما في إنكلترا وأكثر البلدان الأوربية، أصبح رجال المال من أكثر الناس نفوذاً، فهم وأعوانهم وصنائعهم دهماء مستبدون[٤].

(١) والقصيدة بعنوان (تولستوي) .
(٢) تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) : من أكبر الكتاب الروس الكلاسيين، اشتهر بميله الاجتماعي والعطف على الفلاحين والفقراء، مع كونه منتمياً إلى أسرة إقطاعية غنية، وعرف بروايته المطولة (الحرب السلام) ، وهي مترجمة إلى العربية (المترجم) .
(٣) الشوقيات، ٨٢/٣ .
(٤) انظر مقالة محمد صبري: الوطن والتاريخ في شعر شوقي، في مجلة: المجلة (المصرية) ، العدد ١٤٤ (الخاص بأحمد شوقي) ، كانون الأول (ديسمبر) ، سنة ١٩٦٨، ص ١٨ [لم نتمكن من الوصول إلى عدد المجلة المذكور، فترجمنا الاقتباس بشيء من التصرف ريثما نصل إليه مستقبلاً (المترجم)].

ويوحي إلينا شوقي، في قصيدته (توت عنخ آمون)، بأنه يطعن في الحكومة ذات الطابع الملكي، ويحترم بناء السلطة من تحت، إذ يقول (من الوافر) [(١)]:

٧١- زَمَــانُ الْفَــرْدِ يَا فِــرْعَــوْنُ وَلَّى
وَدَالَتْ دَوْلَـةُ الـمُـتَـجَـبِّـرِيْنَا

٧٢- وَأَصْـبَـحَتِ الرُّعَـاةُ بِكُلِّ أَرْضٍ
عَلَى حُكْمِ الرَّعِـيَّـةِ نَازِلِيْنَا [(٢)]

٢ - قضية دنشواي:

من المناسب أن نفرد، هنا، حيِّزاً للقصيدة التي بكى فيها شوقي ضحايا مأساة دنشواي، من بين القصائد الخاصة بالمواضيع الكبرى في الوطنية المصرية.

لنذكر، قبل كل شيء، وباختصار، بغية فهم النصوص التي ستمر بنا، ما تلك القضية المؤلمة [(٣)]:

في ١٣ حزيران (يونيو) من سنة ١٩٠٦، وصل ضباط من الجيش البريطاني إلى قرية متواضعة في دلتا النيل تدعى (دنشواي)، ليصطادوا فيها الحمام، فنصح لهم شيخ من الفلاحين، عن طريق الترجمان، بأن ينصرفوا عن هذا النوع من الصيد، لأنه أمر غير مستحب عند الناس، كما يخشى من وقوع حادث أو إشكال. ومع ذلك بدؤوا بالصيد فيها تحت أنظار الفلاحين المستائين منه، وفجأة وقعت حادثة لم يتضح سببها تماماً: إذ نشبت نار في قشِّ بيدرٍ لأحد الفلاحين، وأصابت رصاصة طائشة في الوقت نفسه إحدى الفلاحات، فتراكض الفلاحون، وتشاجروا مع الضباط إثر ذلك، وجُرِح ثلاثة مصريين وثلاثة إنكليز. وتمكن أحد الضباط من الفرار، وأخذ يجري جرياً عنيفاً

(١) الشوقيات، ٢٧٤/١ .

(٢) يذكِّر هذا البيت هنا بقول فرجيل Virgile باللاتينية) (انظر: الإنيادة، ١٤٨/١-١٤٩) :

Ac ueluti mango in populo cum saepe coorta est
Sedito saeuitque animis ignobile ulgos

(٣) انظر تفاصيل هذه القضية في كتاب إبراهيم أمين غالي: مصر الوطنية والتحررية من مصطفى كامل إلى سعد زغلول (١٨٩٢-١٩٢٧) (بالفرنسية) ، ص٥١ وما بعدها .

ليصل إلى معسكر يقع على بعد خمسة كيلومترات من المكان، للحصول على نجدة، ولكنه مات من ضربة شمس في الطريق. فأوقف – نتيجة ذلك – اثنان وخمسون فلاحاً، واتُّهِمُوا بالتمرُّد على قوات الاحتلال، وعُقِدَتْ لذلك يوم ٢٤ حزيران (يونيو) محكمة خاصة بسلطات استثنائية. كان اللورد (كرومر) في إجازة بإنكلترا، وقد أشار ممثِّله في القاهرة (فاينلي) Finlay إلى المبدأ القائل: (إن أيَّ اعتداء على مواطن بريطاني ينبغي أن يلقى أشد عقوبة ممكنة). وبدأ الجهاز القضائي بالعمل فوراً. وعلى إثر مرافعاتِ ادِّعاءٍ كانت عنيفة، ودفاعاتٍ خجولة، صَدَرت الأحكام: بالشنق على أربعة فلاحين، وبالأشغال الشاقة المؤَبَّدة على اثنين، وبالسجن خمس عشرة سنة على واحد، وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالسجن ثلاث سنوات مع الجلد أمام الناس على واحد، وبالجلد فقط على خمسة فلاحين أمام الناس، وبالبراءة على واحد وثلاثين متهماً.

كان لهذه القضية دويّ كبير، وكان من الصعب على شوقي أن يلتزم الصمتَ بشأن هذا الموضوع، وربما كانت رغبته الخفية أنه لا يريد إزعاج السلطات البريطانية، ولا الأوساط المقرَّبة من الخديوي. ولذلك لزم الصَّمْتَ ما يقارب السنة، ولعلّ استياء بعض الأوساط الوطنية هو الذي دفعه إلى الإمساك بقلمه سنة ١٩٠٧، ليكتب في الحادثة، في حين أن حافظ إبراهيم كان قد استنكر مرتين ذلك الحكم القاسي على الفلاحين. وينبغي أن نلاحظ أن قصيدة شوقي المتأخِّرة لم تكن تتكوَّن إلا من أربعة عشر بيتاً فقط، ولم تكن نغمتها العامة في حِدَّة قصيدتي (شاعر النيل).

وقد ظهرت هذه القصيدة في الطبعات المختلفة للشوقيات، في المجلد الأول[(١)] الذي جُمِعَتْ فيه المواضيع السياسية، والتاريخية، والاجتماعية، ويقول فيها شوقي (من الكامل) [(٢)]:

١- يَا دِنْشِـوَايُ عَلَى رُبَاكِ سَـلاَمُ
ذَهَبَتْ بِأُنْسِ رُبُوعِكِ الأَيَّامُ

---

(١) صدر هذا المجلد الأول سنة ١٩٢٦ في حياة شوقي (المترجم).

(٢) الشوقيات، ٢٤٤/١–٢٤٥.

٢- شُــهَـدَاءُ حُكْمِكِ فِي البِـلاَدِ تَفَـرَّقُــوا
هَيْـــهَـــاتَ لِلشَّـــمْلِ الشَّـــتِـــيْتِ نِظَامُ
٣- مَـــرَّتْ عَلَيْــــهِمْ فِي اللُحُـــوْدِ أَهِلَّةٌ
وَمَـــضَى عَلَيْـــهِمْ فِي الْقُـــيُـــوْدِ الْعَـــامُ
٤- كَــيْفَ الأَرَامِلُ فِــيْكِ بَعْــدَ رِجَــالِهَــا
وَبِأَيِّ حَـــــالٍ أَصْـــــبَحَ الأَيْتَـــــامُ ؟!
٥- عِـشْـرُونَ بَيْـتَـاً أَقْـفَـرَتْ وَانْـتَـابَهَـا
بَعْــدَ البَــشَــاشَـــةِ وَحْــشَـــةٌ وَظَلاَمُ
٦- يَا لَيْتَ شِـعْـرِيْ: فِي الْبُـرُوْجِ حَـمَـائِمُ
أَمْ فِي الْبُـــرُوْجِ مَنِيَّـــةٌ وَحِـــمَـــامُ ؟!
٧- نِيْـــرُونُ لَوْ أَدْرَكْتَ عَـــهْـدَ كِـــرَوْمَـــرٍ
لَعَــــرَفْتَ كَــــيْفَ تُنَفَّـــــذُ الأَحْكَامُ
٨- نُوحِيْ حَـــمَــــائِمَ دِنْشِـــوَايَ وَرَوِّعِيْ
شَــــعْـــــبَـــــاً بِوَادِي النِّيْـلِ لَيْسَ يَنَامُ
٩- إِنْ نَامَتِ الأَحْــــيَـــــاءُ حَــــالَتْ بَيْنَهُ
سَــــحَــــرَاً وَبَيْنَ فِــــرَاشِـــهِ الأَحْـــلاَمُ
١٠- مُــــتَــــوَجِّعٌ يَتَــــمَـــثَّلُ الْيَـــوْمَ الَّذِيْ
ضَــــــجَّتْ لِشِــــــدَّةِ هَـوْلِهِ الأَقْـــــدَامُ
١١- السَّـوْطُ يَعْـمَلُ وَالـمَـشَـانِقُ أَرْبَعٌ
مُـــتَــــوَحِّـــدَاتٌ وَالـجُنُـوْدُ قِـــيَـــامُ
١٢- وَالـمُـسْـتَـشَــارُ إلى الْفَظَائِعِ نَاظِرٌ
تَـدْمَـى جُـلُـوْدٌ حَــــــــــوْلَـهُ وَعِـظَـامُ
١٣- فِي كُلِّ نَـاحِـــيَــــةٍ وَكُلِّ مَــــحَلَّةٍ
جَـــزَعَـــاً مِنَ الـمَـــلاَِ الأَسِـــيْفِ زِحَـــامُ

١٤- وَعَلَى وُجُــوْهِ الـثَّـــاكِلِينَ كَــآبَةٌ
وَعَلَى وُجُــوهِ الـثَّــاكِــلاَتِ رَغَــامُ

ومن غير أن تبلغ هذه القصيدة قمَّة الحِدَّة، فقد كانت عنيفة على الرغم من قصرها، ولعل حقيقة التزام شوقي الصمت المدَان هي التي دفعت شوقي ضيف إلى أن يكتب في ذلك قائلاً: (كأني بشوقي نظم هذه المقطوعة [١] ردّاً على من يلومونه لصمته حيث يجب الكلام، فلما مرَّت الفرصة، ولم يتغنَّ البلبلُ ولم يصدَح بأنغام شجيَّة تلائم الموقف، ظل يَذْكُر ذلك، حتَّى إذا دار العام انتهز الفرصة، ونشر هذه القطعة ليقرأها الناس في الصحف، لعلَّه يرضيهم، أو لعلَّه يكفِّر بها عن سكوته السابق. ولا بدَّ أنهم دُهِشُوا - كما نُدْهَشُ نحن الآن - حين رأوا شوقي لا يُلِمّ باللورد كرومر إلا إلمام النسيم الخفيف، وكأنه لا يريد أن يُسْخِط الإنكليز، ولا أن يغضبهم، وهي لباقة أو مداورة تعلَّمها في القصر من غير شكّ..) [٢].

ولا يمكننا أن ننفي ما كان عند شوقي من طبيعة دبلوماسية، ولا ما كان من تأثير القصر فيه، ولكن هل يمكننا أن نتحدَّث عن (إلمام النسيم الخفيف) بخصوص المقارنة التي عقدها بين اللورد (كرومر) و(نيرون)[٣] Néron في قصيدة نرى السَّوطَ فيها يَجْلِدُ، والمشانقَ تُنْصَب ؟ إن هذا النوع من النقد، الذي لا نشك فيه، يجد - حسبما نرى - تفسيراً له بالمقارنة، الضمنية أحياناً، بين قصيدة شوقي وقصيدتي حافظ إبراهيم اللتين نظمهما في الموضوع نفسه، علماً أن الأخير كان لاذعاً في تعبيره.

(١) يُفضَّل هنا أن يوصف ما قاله شوقي في موضوع دنشواي بالقصيدة أو القصيدة القصيرة لا المقطوعة، لأن المقطوعة الشعرية ما كانت عموماً عشرة أبيات فما دونها إلى البيتين حسب مصطلح الأقدمين (المترجم) .

(٢) انظر كتابه: شوقي شاعر العصر الحديث، ص٢١ .

(٣) نيرون (٣٧م-٦٨م) إمبراطور روماني خلف والده بالتبني (كلوديوس) Claudius ، تولّى وهو ابن ١٦ سنة، كان متأثراً بمعلمه الشاعر (سينيكا) Seneca ، بدأ بالإصلاح، غير أنه سرعان ما انغمس باللهو وانتهاب اللذات، فكثرت المؤامرات والاغتيالات في عهده، وماتت أمه غير راضية عنه، قتل معلمه (سينيكا) ، كما قتل زوجته الأولى، وكان حريق روما أشهر جرائمه، فقد أمر بحرق دورها بمن فيها من ساكنين، فقتل آلاف من سكان روما، وكان يجلس في برج عالٍ وهو يعزف على قيثارته ويغني بأشعار هوميروس في وصف حريق طروادة، ويستمتع بمشهد الحريق، ووجه التهمة في إشعال النار إلى المسيحيين وسفك دماءهم، ومن ضحاياه سنة ٦٨م الرسولان (بولس) و(بطرس) ، عدَّه مجلس الشيوخ عدواً للشعب فانتحر بطعنة خنجر في السنة نفسها، وفي هذه السنة أيضاً قتل الوثنيون المصريون الرسول (مُرْقُص) (المترجم) .

وقعت الحادثة في ١٣ حزيران (يونيو)، فنشر (شاعر النيل)، في ٢ تموز (يوليو) قصيدة كانت بكل وضوح ذات نغمة عنيفة جداً، نقرأ منها قوله (من الخفيف) (١):

١- أَيُّهَــا الْقَــائِمُــوْنَ بِالأَمْــرِ فِــينَا
هَلْ نَسِــيْــتُمْ وَلاَءَنَا وَالْوِدَادَا

٢- خَـفِّضُوْا جَـيْشَكُمْ وَنَامُـوا هَنِيْـئَاً
وَابْتَـغُـوْا صَـيْـدَكُمْ وَجُـوْبُوا الْبِـلاَدَا

٣- وَإِذَا أَعْــوَزَتْـكُـمُ ذَاتُ طَـوْقٍ
بَيْنَ تِلْكَ الرُّبَا فَـصِـيـدُوا الْعِـبَـادَا

٤- إِنَّمَـا نَحْنُ وَالـحَـمَـامُ سَـوَاءٌ
لَمْ تُـغَــادِرْ أَطْـوَاقُنَـا الأَجْـيَـادَا

....

٨- أَحْـسِنُوا الْقَـتْلَ إِنْ ضَنَنْتُمْ بِعَـفْـوٍ
أَقِـصَـاصَـاً أَرَدْتُمُ أَمْ كِـيَـادَا

٩- أَحْـسِنُوا الْقَـتْلَ إِنْ ضَنَنْتُمْ بِعَـفْـوٍ
أَنُفُـوْسَـاً أَصَـبْـتُمُ أَمْ جَـمَـادَا

١٠- لَيْتَ شِـعْـرِيْ أَتِلْكَ مَـحْكَمَـةُ التَّـ
ـفْـتِـيْشِ عَـادَتْ أَمْ عَـهْـدُ نِيْـرُوْنُ عَـادَا

ثُمَّ عاد حافظ إبراهيم، بعد ثلاثة أيام فقط، إلى هذا الموضوع الذي هيَّج العواطف، وكان اللورد (كرومر)، أثناء تلك الحادثة، في بريطانيا العظمى. ثم نشر، يوم ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٠٦، إثر عودته إلى مصر، قصيدة جديدة كانت نغمتها دوماً لاذعة عنيفة، يقول فيها (من الكامل) (٢):

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ٢/٢٠و٢١ [وعنوان القصيدة (حادثة دنشواي)] .
(٢) م.س.، ٢/٢٣و٢٤ [وعنوان القصيدة (استقبال اللورد كرومر عند عودته من مصيفه بعد حادثة دنشواي)].

٩- أَوَ كُلَّمَـــــــا بَاحَ الحَـــــــزِيـنُ بِأَنَّـةٍ
أَمْــسَتْ إِلَى مَــعْنَى التَّـــعَــصُّبِ تُنْسَبُ

....

١٠- رِفْــقَــاً عَــمِــيْـدَ الدَّوْلَتَــيْنِ بِأُمَّــةٍ
لَيْـــسَتْ بِغَـــيْـــرِ وَلاَئِهَـــا تَتَـــعَـــذَّبُ

....

١٥- حَـسِـبُـوا النُّفُـوْسَ مِنَ الْبِـلاَدِ بَدِيْلَةً
فَــتَـسَــابَقُـوْا فِيْ صَــيْـدِهِنَّ وَصَــوَّبُوْا

وتتعاظم النغمة عندما يأتي الشاعر عل ذكر العقوبات الصـارمة والرعب الذي سبَّبه مشهد المشانق والجلد، فيقول (١):

١٦- نُكِبُــوْا وَأَقْــفَــرَتِ الـمَنَازِلُ بَعْـدَهُمْ
لَوْ كُنْتَ حَــاضِــرَ أَمْــرِهِمْ لَمْ يُنْكَبُــوْا
١٧- خَلَّيْــتَـــهُمْ وَالْقَــاسِطُوْنَ بِمَــرْصَـدٍ
وَسِـــيَـــاطُهُمْ وَحِـــبَـــالُهُمْ تَتَـــأَهَّبُ
١٨- جُلِدُوْا وَلَوْ مَنَّيْـــتَـــهُمْ لَتَـــعَلَّقُــوْا
بِحِـبَــالِ مَنْ شُنِقُــوْا وَلَمْ يَتَــهَـيَّـبُـوْا
١٩- شُنِقُـوا وَلَوْ مُنِحُـوا الخِـيَـارَ لأَهَّلُوْا
بِلَظَى سِـــيَــاطِ الجَــالِدِينَ وَرَحَّـــبُــوْا
٢٠- يَتَـحَـاسَـدُوْنَ عَلَى الـمَمَـاتِ وَكَأْسُـهُ
بَـيْنَ الشِّـــفَـــاهِ وَطَعْـــمُـــهُ لاَ يَعْـــذُبُ

وبعيداً عن هذه القصائد البليغة التي تتعلَّق بالشخصيات المرموقة في تلك الفترة، كانت صحف المعارَضة، وعلى رأسها صحيفة (اللواء)، التي كانت تُفرِد عدداً غير قليل من صفحاتها للنصوص العاميَّة، تنشُر آنذاك مقالاتٍ لاذعةً (٢).

(١) م.س.، ٢/ ٢٤ .

(٢) ومن بينها مقالة (عفريت مُنْيَتِي) و(عفريت الهُمَارَة) [يبدو أن الكاتب الساخر تعمَّد أن ينطق الحاءَ هاءً في كلمة (الحمارة) ليحاكي نطق الإنكليز لها (المترجم)] .

وهناك مسرحية تاريخية – سياسية، من أربعة فصول، كتبها حسن مرعي، مدير مجلة (الصحائف الشهرية)، بعنوان (صيد الحمام أو قضية دنشواي، مسرحية مأسوية، موضوع الساعة) (١).

يذكر مؤلِّف المسرحية، في مقدمته، الظروف التي كتبت فيها، وكيف منعتْها الرقابة بعد أن كان مقرَّراً لها أن تُمَثَّل في القاهرة (٢). وقد عُرِضَتْ القضية في الفصول الأربعة على النحو التالي:

الفصل الأول - اجتماع الضباط.

الفصل الثاني- صيد الحمام في دنشواي. مقتل فلاحة مصرية يؤدي إلى موت ضابط إنكليزي.

الفصل الثالث - الحُكْم.

الفصل الرابع - التنفيذ (في ٢٨ حزيران / يونيو)

وألحقت بالمسرحية قصيدة حافظ إبراهيم، واقتباسٌ من صحيفة (المنبرالأغرّ) جاء في العدد ٢٠، يوم ٤ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٠٦.

كانت الفصول الثلاثة الأولى مكتوبة بصيغة حوار، أما الفصل الرابع، فيتكوَّن من بوحٍ غنائي بسيط تمَّ تأليفه على شكل رسالة نقدية ذات مستوى أدبي ضعيف، كُتِبَتْ بلغة الأزِقَّة المليئة بالتعابير المحلِّيَّة.

---

(١) انظر مقالة (مسافري) Mosaferi صيد الحمام .. (بالفرنسية) ، في: مجلة العالم الإسلامي Revue du Monde Musulman مج٣، سنة ١٩٠٧، ص٥٠٤–٥٠٩ [يبدو لنا أن العنوان الطويل الذي أثبته المؤلِّف في المتن لهذه المسرحية، إنما هو عنوان مقالة مسافري وتتمته: .. مسرحية تاريخية – سياسية في أربعة فصول من تأليف (حسن مرعي) مدير مجلة (الصحائف الشهرية) بالجمَاليّة (القاهرة). وأما العنوان الذي أثبته مؤلِّف هذا البحث في فهرس مصادره للمسرحية المذكورة فهو باختصار (دنشواي)، وربما كان تحت هذا العنوان بعض التفاصيل التوضيحية في عنوان فرعي (المترجم)] .

(٢) قبل أن تُطْبَع المسرحية، حاول مدير البوليس أن يشتري مخطوطتها بثمن بخسٍ، وقد أفرحت هذه الواقعة الصحافة المحلية . وقد أبرق حسن مرعي، للحصول على ترخيص بتمثيلها، إلى السير إدوارد غري Edward Grey Sir رقية ساخرة يعرض نصها في المطبوعة .

ونُدْرِك، أمام ثورة العواطف وردود الفعل الوطنية الهائجة هذه [١]، إدراكاً أفضل الموقف النقدي الموجَّه إلى شوقي، الذي ظهرت له قصيدة متأخِّرة، ذات عِيارٍ خفيف، تتألَّف من ١٤ بيتاً فقط.

٣ - استقالة اللورد (كرومر) ورحيله:

في الفاتح من نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠٧، بعد أقل من سنة من قضية دنشواي، استقال اللورد (كرومر) من منصب حاكم مصر الذي تولاّه منذ سنة ١٨٨٣، وغادر مصر. وقد أتاح رحيله هذا لمشاعر الغضب، في أوساط الوطنيين الذين كانوا ينتقدونه، أن تنطلق من عقالها، بسبب طعنه في الإسلام أساساً، وبسبب عدم بذله أي مجهود صادق لمحاولة فهم تطلُّعات المصريين [٢].

وكانت مأساة دنشواي، على وجه الخصوص، قد أثارت هذه الكراهية التي تفجَّرت إثر رحيل اللورد (كرومر): فقد نشر مصطفى كامل، الذي كان يعبِّر عن المرارات الوطنية، في عدد يوم ١٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٧ من صحيفة (اللواء) افتتاحية عنيفة اللهجة كانت أشبه بمرافعة حقيقية ضد الحاكم السابق لمصر [٣]:.. سنتذكَّر أن (كرومر) هو الذي ضغط بيدٍ من حديد على عرش مصر. سنتذكَّر أنه هو الذي فتح السودان برجالنا وأموالنا، ثم حرمنا بعدها من كلّ الحقوق والسلطات فيه. سنتذكَّر أنه هو الذي شجَّع من المصريين مَنْ ضحَّوا بأنبل المشاعر من أجل المنافع

(١) لا نظن أن علينا الكشف عن المنشورات الكثيرة جداً، والتي لم يكن لبعضها سوى جرأة محدودة جداً، وَلْنُشِرْ مع ذلك إلى أن (بروكلمان) Brockelman ذكر أرجوزة لأحمد محرَّم (وهو شاعر ولد سنة ١٨٧٧ ويقف في مستوى محمود سامي البارودي) بعنوان (أرجوزة محرَّم أو قول الراوي في حادثة المنساوي (كذا وردت ربما بمعنى: دنشواي !) ، انظر: تاريخ الأدب العربي GAL الملحق، ٧٩/٣ .

(٢) كان اللورد (كرومر) ، مؤلِّف كتاب (مصر الحديثة) ، وكتاب (النَّزْعة الإمبراطورية القديمة والحديثة) ، وكتاب (حكم العناصر الفاعلة) (بالإنكليزية) ، يخالط كثيراً الأوساط الأوربية فقط طوال إقامته في مصر . انظر بشأن اللورد (كرومر) على وجه الخصوص مقالة (روبيرت تيغنور) Rober L. Tignor اللورد (كرومر) والإسلام (بالإنكليزية) ، في مجلة: العالم الإسلامي The Muslim World، مج٣، سنة ١٩٦٢، ص٢٢٣-٢٣٣ . وانظر كذلك كتاب إبراهيم أمين غالي: مصر الوطنية والتحرُّريَّة من مصطفى كامل إلى سعد زغلول (١٨٩٢-١٩٢٧) (بالفرنسية) ، ص٤٧ وما بعدها .

(٣) انظر نص الافتتاحية في كتاب إبراهيم أمين غالي: مصر الوطنية والتحررية، ص٧٢ [ولما تعذَّر علينا الوصول إلى صحيفة اللواء، فقد ترجمناها بشيء من التصرف، حتى نتمكَّن من الوصول إلى الأصل العربي لها (المترجم)] .

المادية. سنتذكَّر أنه هو الذي حَرَم الفقراء من التسجيل في مدارس الدولة، وهو الذي حارب اللغة العربية، وهو الذي اتَّهم المصريين بالجهل والتقصير، وهو الذي أعلن بصوت عالٍ ضرورة مراقبة الإنكليزي للمصري ولو كان هذا المصري رئيسه. وسنتذكَّر أنه هو الذي طعن في الدين، الإسلامي فاستثار حفيظة المسلمين كما استثار حفيظة المسيحيين. وسنتذكَّر أنه هو الذي وضع كل نفوذه لمحاربة المطالبات الوطنية، ورَفْضِ الاعتراف بأهلية الأمة وهيئاتها في حق التمثيل الوطني. وسنتذكَّر أنه هو الذي استعمل كل جهوده لخنق هذا الشعور الوطني، وظن أنه بالذهب والثروة يمكنه أن يرضي أمة ويشتري ضمير شعب. وسنتذكَّر خاصة أنه هو الذي كان يريد الانتقام من مشاعر الشباب بفرض (إجراء دنلوب) promotion de Dunlop ، بعد إضراب الطلبة، وأراد في دنشواي أن ينتقم من مشاعر الأمة. ولم يكتف بمنظر الشعب الحزين، فقام بمنح مكافآت لمن امتثلوا لأوامره طوال المأساة. هذا ما سيتذكَّره المصريون. وسنتذكَّر أيضاً، حتَّى نكون منصفين، أنه ظل، خلال ممارسته لعمله، نموذجاً للنَّزَاهة التي يمكن أن تكون مثالاً لمن يتولَّون السلطة، وكان بإمكانه، لو شاء، أن يكون أغنى رجل على وجه البسيطة، بحكم نفوذه، إلا أنه آثر الشَّرَف على الثروة، وحسناً فعل..

وقد أنشأ شوقي، في هذا السِّيَاق العاطفي، قصيدته المشهورة التي تحمل في (الشوقيات) عنوان (وداع اللورد كرومر [١]) [٢]، فقال (من الكامل) [٣]:

---

(١) كان وداع اللورد (كرومر) في ٤ أيار (مايو) من سنة ١٩٠٧، في دار الأوبرا بالقاهرة، بحضور الشخصيات المصرية، التي كان من بينها (حسين كامل) (الذي أصبح (السلطان حسين) ، سنة ١٩١٤، إثر خلع الخديوي عباس حلمي الثاني عن العرش (المترجم) ، وقد ألقى اللورد (كرومر) كلمة شعر الناس بأنها إهانة للخديوي إسماعيل قال فيها: إنه لا يفارق هذه البلاد لأسباب سياسية (تصفيق طويل جداً). ثم اتَّهم المصريين بنكرانهم الجميل وجحودهم . وتكلَّم عن يد التمدُّن الغربي التي كانت تبسطها إنكلترا لعملها في الخمس والعشرين سنة الماضية، والتي انتشلت المصريين من بالوعة اليأس . ثم قال: وَهَبْ أني اقتنعتُ – وما أنا مقتنع مطلقاً – أن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة الجليلة، فإني لا أزال أؤمِّل، مع ذلك، أن يعترف نسلُهم بها، إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين (ضحك). وختم كلامه مبشِّراً المصريين باسم حكومة جلالة الملك رسمياً بدوام الاحتلال البريطاني إلى ما شاء الله بمصر، وسخر من الحركة الكاذبة المفتعلة لإنشاء مجالس نيابية سريعاً . انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٧٥/٢ هـ ١ .

(٢) وهي القصيدة (رقم ٢٠١) [كان عدد أبياتها ٥٥ بيتاً في طبعة (١٩٢٦–١٩٤٣) ، فحذف ١٢ بيتاً منها في طبعة سنة ١٩٦٤ بالقاهرة بسبب الظروف السياسية بمصر الثورة، لما تتضمنه تلك الأبيات من إشادة بالأسرة الملكية العلوية: كمحمد علي باشا، وإسماعيل باشا، وبما كان من ازدهار في عهديهما (المترجم)] .

(٣) الشوقيات، ١٧٣/١–١٧٤ .

١- أَيَّامُكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيْلاَ
أَمْ أَنْتَ فِرْعَوْنٌ يَسُوْسُ النِّيلا ؟!

٢- أَمْ حَاكِمٌ فِيْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَمْرِهِ
لاَ سَائِلاً أَبَداً وَلاَ مَسْؤُولا؟!

٣- يَا مَالِكَاً رِقَّ الْعِبَادِ بِبَأْسِهِ
هَلاَّ اتَّخَذْتَ إِلَى الْقُلُوْبِ سَبِيلا ؟!

٤- لمّا رَحَلْتَ عَنِ الْبِلاَدِ تَشَهَّدَتْ
فَكَأَنَّكَ الدَّاءُ الْعَيَاءُ رَحِيلا

٥- أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً
أَدَبٌ لَعَمْرُكَ لاَ يُصِيْبُ مَثِيلا

٦- هَلاَّ بَدَا لَكَ أَنْ تُجَامِلَ بَعْدَمَا
صَاغَ الرَّئِيْسُ لَكَ الثَّنَا إِكْلِيلا (١)

٧- أُنْظُرْ إِلَى أَدَبِ الرَّئِيْسِ وَلُطْفِهِ
تَجِدِ الرَّئِيسَ مُهَذَّباً وَنَبِيلا

٨- فِيْ مَلْعَبٍ لِلْمُضْحِكَاتِ مُشَيَّدٌ
مَثَّلْتَ فِيهِ الْمُبْكِيَاتِ فُصُولا

٩- شَهِدَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِ لَعْنَ أُصُوْلِهِ
وَيُصَدَّرُ الأَعْمَى بِهِ تَطْفِيلا (٢)

١٠ - جُبْنٌ أَقَلَّ وحَطَّ مِنْ قَدْرَيْهِمَا
وَالمَرْءُ إِنْ يَجْبُنْ يَعِشْ مَرْذُولا

....

(١) الرئيس، هنا، هو رئيس الوزراء في عهد كرومر (مصطفى باشا فهمي) ، وهو الذي دعا لتكريم (كرومر) وتوديعه بدار الأوبرا الخديوية، وأثنى على جهوده في حكم مصر (المترجم) .

(٢) يقصد بالحسين، هنا، حسين كامل الذي أصبح (السلطان حسين) فيما بعد، وهو من أسرة محمد علي باشا . ويقصد بالأعمى الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان ضعيف البصر فبالغ شوقي في وصفه بالعمى، وربما أراد بالعمى هنا عمى البصيرة، لأن هذا الشيخ كان كما يذكر محمد صبري في: الشوقيات المجهولة، ٦٩/٢ هـ٣ - محرر صحيفة (الوقائع المصرية) ، وكان أحد أعضاء المحكمة الشرعية العليا، ثم صار بعد ذلك من أصدقاء اللورد كرومر، وكان من كبار المصفقين له في حفلة الوداع بالأوبرا رغم جهله بلغة الخطيب، ولذا كان من معارضي الخديوي عباس بطبيعة الحال (المترجم) .

١٢- أَنْـذَرْتَـنَـا رِقًّـــــــــــاً يَـدُوْمُ وَذِلَّـةً
تَبْـــقَـى وَحَـــالاً لاَ تَرَى تَـحْـــوِيلا
١٣- أَحَـــسِــبْتَ أَنَّ اللـهَ دُوْنَكَ قُــدْرَةً
لاَ يَمْلِكُ التَّــغْــيِـيْــرَ وَالتَّــبْـدِيلا ؟!
١٤- اللـهُ يَـحْكُمُ فِـي الــمُلُوْكِ وَلَـمْ تَـكُنْ
دُوَلٌ تُنَـازِعُــــهُ الْقُــــوَى لِتَــــدُولا ؟!
١٥- فِــرْعَــوْنُ قَــبْلَكَ كَــانَ أَعْظَمَ سَطْوَةً
وَأَعَــزَّ بَيْنَ الْعَــالَـمِــيْنَ قَــبِــيـــلا
١٦- الْـيَــوْمَ أَخْلَفَتِ الْوُعُــوْدَ حُكُوْمَــةٌ
كُنَّا نَظُنُّ عُـــهُـــودَهَا الإِنْجِــيـــلا
١٧- دَخَلَتْ عَلَى حُكْمِ الْوِدَادِ وَشَــرْعِــهِ
مِــصْــراً فَكَانَتْ كَــالسُّــلاَلِ دُخُــولا
١٨- هَدَمَتْ مَــعَــالِمَهَــا وَهَدَّتْ رُكْنَهَــا
وَأَضَــاعَتِ اسْـتِـقْــلاَلَهَــا الـمَــأْمُـولا
١٩- قَــالُوْا: جَلَبْتَ لَنَا الرَّفَــاهَةَ وَالْغِنَى
جَــحَــدُوْا الإِلَـهَ وَصُنْعَـــهُ وَالنِّيـــلا
٢٠- وَحَـيَـاةَ مِـصْـرَ عَلَى زَمَـانِ مُـحَـمَّـدٍ
وَنُهُـوْضَـهَـا مِنْ عَـهْـدِ إِسْـمَـاعِـيـلا (١)

ولا ينسى الشاعر، خلال هذا النقد اللاذع، حادثة دنشواي التي كانت لا تزال قريبة العهد، فيشير إليها بهذا البيت(٢):

(١) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦) ، ١٧٩/١ ورقم البيت هنا يعود إلى الطبعة المذكورة لا طبعة ١٩٦٤ المعتمدة لدينا (المترجم) .

(٢) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦) ، ١٨٠/١ ورقم البيت هنا يعود إلى الطبعة المذكورة لا طبعة ١٩٦٤ المعتمدة لدينا، ويقول في البيت إن كان الخديوي إسماعيل قد أمر في عهده بقتل المفتش إسماعيل باشا، فإن عهد كرومر كان مليئاً بالقتلى على يد الإنكليز، ودنشواي أحد الشواهد على ذلك (المترجم) .

٢٨- أَوْ كَـانَ قَـدْ صَـرَعَ الـمُـفَـتِّشَ مَـرَّةً
فَلَكَم صَنَعْتَ بِدِنْشِـوَايَ قَـتِـيـلا

وبالنظر إلى كل هذه المصائب، فإن الفوائد، التي تمكنت مصر من الحصول عليها بسياسة اللورد (كرومر)، كانت تبدو لشوقي قليلة النفع، إذ يقول [(١)]:

٢٠- كَمْ مِنَّةٍ مَـوْهُوْمَـةٍ أَتْبَـعْـتَـهَـا
مَنًّاً عَلَى الفَطِنِ الخَـبِـيْـر ثَقِـيـلا [(٢)]

ثم يشير شوقي إلى التقارير التي كان اللورد (كرومر) يكتبها ويرفعها كل سنة للحكومة البريطانية، منتقداً سياسته في مصر، فيقول [(٣)]:

٢١- فِيْ كُلِّ تَقْـرِيْرٍ تَقُـوْلُ: خَلَقْـتُكُمْ
أَفَـهَـلْ تَـرَى تَقْـرِيـرَكَ التَّـنْزِيـلا
٢٢- هَلْ مِنْ نَدَاكَ عَلَى الـمَـدَارِسِ أَنَّهَـا
تَذَرُ الْعُلُوْمَ وَتَأْخُـذُ الْفُـوتْبُـولا [(٤)]

(١) الشوقيات، ١٧٤/١ [أما رقم هذا البيت في طبعة ما قبل ١٩٦٤ فهو (٣٢) وقد أثبتنا هنا رقمه في الطبعة المعتمدة من قبلنا انسجاماً مع الغالبية المطلقة من شواهد الشوقيات في هذا البحث (المترجم)].

(٢) وفي قصيدة أنشأها حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٧، أثنى على رحيل اللورد (كرومر) هو أيضاً، وبشكل أوسع فقال (من الطويل) :

٥- فَلِمْ لاَ نَرَى الأَهْرَامَ يَا نِيْلُ مُيَّدَاً وَفِرْعَوْنُ عَنْ وَادِيْك مُرْتَحِلٌ غَدَا ؟!

وعدَّد بعض المنافع المسجَّلة له، وخاصة حرية الصحافة، فقال:

١٨- وَسَنَّ لَكُمْ حُرِّيَّةَ القَوْلِ عِنْدَمَا رَأَى القَوْلَ فِيْ أَسْرِ السُّكُوْتِ مُقَيَّدَا

ثم استنكر عليه شاعر النيل مساوئه، وخاصة إعطاءه الأولوية لتعليم اللغات الأخرى غير العربية، وكذلك استئثار السياسة الإنكليزية بالسودان، فقال:

٢٣- قَضَيْتَ عَلَـى أُمِّ اللُّغَاتِ وَإِنَّهُ قَضَاءٌ عَلَيْنَا أَوْ سَبِيْلٌ إِلَى الرَّدَى
٢٤- وَوَافَيْتَ وَالقُطْرَانِ فِي ظِلِّ رَايَةٍ فَمَا زِلْتَ بِالسُّوْدَانِ حَتَّى تَمَرَّدَا

(انظر: ديوان حافظ إبراهيم، ٢٧/٢و٢٨و٢٩) .

(٣) الشوقيات، ١٧٤/١-١٧٥ [وأرقام هذه الأبيات في طبعة ما قبل ١٩٦٤ هي من ٣٣ إلى ٤٠ (المترجم)].

(٤) كلمة (فوتبول أو فطبول) (أي: كرة القدم) ، هي الكلمة التي درج استعمالها على ألسنة الناس من الإنكليزية football، قبل أن تعرَّب الألفاظ الدالة على أنواع الرياضات ومصطلحاتها منذ السبعينات من القرن المنصرم، ونلاحظ النظرة العميقة في هذا البيت للدور الخطير الذي يلعبه الاستعمار في إلهاء الشعوب بما لا ينفعها (كأنواع الرياضات المختلفة) ، في حين أنه يصرفها عما ينفعها (كطلب العلوم والتعمق في أنواعها) ، والمعروف أن بروتوكولات حكماء صهيون تتبنى السياسة ذاتها وتدعو إليها (المترجم) .

٢٣- أَمْ مِنْ صِيَانَتِكَ الْقَضَاءَ بِمِصْرَ أَنْ
تَأْتِيْ بِقَاضِيْ دِنْشِوَايَ وَكِيلا
٢٤- أَمْ هَلْ يَعُدُّ لَكَ الإِضَاعَةَ مِنَّةً
جَيْشٌ كَجَيْشِ الْهِنْدِ بَاتَ ذَلِيلا
٢٥- انْظُرْ إِلَى فِتْيَانِهِمْ مَا شَأْنُهُمْ
أَوَلَيْسَ شَأْنَاً فِي الجُيُوْشِ ضَئِيلا ؟!
٢٦- حَرَّمْتَهُمْ أَنْ يَبْلُغُوا الرُّتَبَ الْعُلاَ
وَرَفَعْتَ قَوْمَكَ فَوْقَهُمْ تَفْضِيلا
٢٧- فَإِذَا تَطَلَّعَتِ الجُيُوْشُ وَأَمَّلَتْ
مُسْتَقْبَلاً لَمْ يَمْلِكُوا التَّأْمِيلا
٢٨- مِنْ بَعْدِ مَا زَفُّوْا لإِدْوَرْدَ الْعُلاَ
فَتْحَاً عَرِيْضَاً فِي البِلاَدِ طَوِيلا[1]

ويلي ذلك مقطع ذو سخرية جارحة تتأتَّى قوتها من قوله (لو كنتُ) و(أو كنتُ) في أول كل بيت منه، يقول[2]:

٢٩- لَوْ كُنْتُ مِنْ حُمْرِ الثِّيَابِ عَبَدْتُكُمْ
مِنْ دُوْنِ عِيْسَى مُحْسِنَاً وَمُنِيلا
٣٠- أَوْ كُنْتُ بَعْضَ الإِنْكِلِيْزِ قَبِلْتُكُمْ
مَلِكَاً أُقَطِّعُ كَفَّهُ تَقْبِيلا

(١) إدورد: هو ملك بريطانيا العظمى (إدوارد السابع) Edward VII حكم من سنة ١٩٠١ بعد أمه الملكة (فكتوريا) إلى سنة ١٩١٠ . يفضح شوقي، في هذا البيت، من حيث يدري أو لا يدري، سياسة الإنكليز الخبيثة في السيطرة على مستعمراتها، وتتلخَّص في تجنيد أبناء مستعمرة لاستخدامهم في السيطرة على مستعمرة أخرى حيث لا يكون لهم إلا أن يطيعوا قادتهم الإنكليز وتنفيذ أوامرهم التي تخدم مصلحة بريطانيا أولاً وآخراً (المترجم).

(٢) الشوقيات، ١٧٥/١ [وأرقام الأبيات في طبعة ما قبل ١٩٦٤ من ٤١ إلى ٤٨ وقد عبَّر شوقي في هذه الأبيات عن جملة أمانٍ افتراضية يستحيل تحقيقها في مثل حالته، ولكنه أراد من خلالها أن يبيِّن أن اللورد (كرومر) لم يفعل شيئاً – فيما عمل – إلا خدمة لوطنه وأهل وطنه لا للمصريين، ولذلك كان لزاماً عليهم أن يقدروا صنيعه لأجلهم (المترجم)].

٣١- أَوْ كُنْتُ عُـضْـوَاً فِي الْكُلُوْبِ مَـلأْتُهُ
أَسَـفَـاً لِفُـرْقَـتِكُمْ بُكَاً وَعَـوِيلا[(١)]

٣٢- أَوْ كُنْتُ قِسِّـيْسَـاً يَهِـيْمُ مُـبَشِّـرَاً
رَتَّلْتُ آيَـةَ مَـدْحِكُمْ تَرْتِيـلا

٣٣- أَوْ كُنْتُ صَـرَّافَـاً بِلَنْدَنَ دَائِنَاً
أَعْطَيْـتُكُمْ عَنْ طِيْـبَـةٍ تَحْـوِيلا

٣٤- أَوْ كُنْتُ تَيْـمِسَكُمْ مَـلأْتُ صَحَـائِفِيْ
مَـدْحَـاً يُرَدِّدُ فِي الْوَرَى مَـوْصُـولا [(٢)]

٣٥- أَوْ كُنْتُ فِيْ مِـصْـرٍ نَزِيْلاً جَـاهِدَاً
سَـبَّـحْتُ بِاسْـمِكَ بُكْرَةً وَأَصِـيـلا

٣٦- أَوْ كُنْتُ سِـرْيُوْنَاً حَلَفْتُ بِأَنَّكُمْ
أَنْتُمْ حَـيَـوْتُمْ بِالْقَنَاةِ الجِـيـلا[(٣)]

وَلَم تُوحِ أوسِمة الشرف والألقاب، التي أُنْعِمَ بها على اللورد (كرومر) في بلاده، إلى الشاعر إلاّ بهذه الأبيات التي تستخِفّ بها، إذ يقول [(٤)]:

٣٩- فَـارْحَلْ بِحِـفْظِ اللهِ جَلَّ صَنِيْـعُـهُ
مُـسْـتَـعْـفِـيَـاً إِنْ شِـئْـتَ أَوْ مَـعْـزُوْلا

٤٠- وَاحْـمِلْ بِسَـاقِكَ رَبْطَةً فِيْ لَنْدَنٍ
وَاخْلُفْ هُنَاكَ غِـرايَ أَو كَـمْـبِـيـلا[(٥)]

٤١- أَوْ شَـاطِرِ الـمَلِكَ الْعَظِيْـمَ بِلاَدَهُ
وَسُسِ الـمَـمَـالِكَ عَـرْضَـهَـا وَالطُّولا

(١) الكلوب: النادي، والأصل الإنكليزي club ، ويبدو لنا أن شوقي كان يتظرّف أحياناً باستعمال بعض الألفاظ من اللغة الإنكليزية لكونها شائعة على ألسنة الناس أو دارجة في استعمالاتهم، وهذا معروف عند الشعراء القدماء حينما كان أحدهم يدس في أبياته بعض الألفاظ الأجنبية وخاصة الفارسية (المترجم) .

(٢) يقصد بـ (التيمس)The Times صحيفة (التايمز) اللندنية (المترجم) .

(٣) سريون: هو الفرنسي (دو سريون) الذي كان مدير شركة قناة السويس في زمن كرومر (المترجم) .

(٤) الشوقيات، ١٧٦/١ [وأرقام الأبيات في طبعة ما قبل ١٩٦٤ من ٥١ إلى ٥٤ (المترجم)] .

(٥) ربطة الساق: وشاح تكريمي عند الإنكليز . وغراي وكمبيل: وزيران إنكليزيان.

٤٢- إِنَّـا تَـمَـنَّـيْـنَـا عَـلَـى الـلـهِ الـمُـنَـى
وَالـلـهُ كَـانَ بِـنَـيْـلِـهِـنَّ كَـفِـيـلا

غير أن ما يأخذه شوقي على اللورد (كرومر) هو استخفافه بقيم الإسلام ومحاربته إياها. وكان اللورد (كرومر) قد كتب يقول: (إن الاتِّجاه العام للإسلام إنما هو تشجيع التعصُّب وإحداث الكراهية والاحتقار ليس فقط للمشركين، وإنما أيضاً، وبصيغة أخرى، لكل الموحِّدين iconothéistes الذين لا يرغبون في ترديد العبارة التي تعلن أن محمداً رسول الله [1].. وقد صَبّ مؤسِّس الإسلام لعناتٍ شديدةً على كل من لا يُقِرّ بالوحي الإلهي [2]، وقد وقعت كلماته على أرض خصبة، لأن عدداً كبيراً ممن اعتنقوا الإسلام كانوا شبه متوحِّشين، وغالباً ما كانوا متوحِّشين عُدوانيين [3].. وقد لُقِّنَ المسلمون أن المبادئ المتوحشة لقانون الثأر [4] مقبولة في دينهم.. وهكذا يميل

(١) يتحامل (كرومر) بهذه التهمة تحاملاً واضحاً على الإسلام، لأن الإسلام لا يكره ولا يحقد ولا يتعصَّب على من لا يشهد أن محمداً رسول الله، فقد قال تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَيّ) (انظر: القرآن، ٢/من الآية ٢٥٦) ، كما قال: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (انظر: القرآن، ١٨/ من الآية ٢٩) ، والدعوة مبذولة لكل الناس والاستجابة خيار لهم، لأن كل إنسان يحاسبه خالقه يوم القيامة لا المسلمون في الدنيا . وقد أوصى النبي بحسن معاملة غير المسلمين في ظل سيادة الإسلام، وبحسن الجوار مع من لا يعتدي على المسلمين أياً ما كان دينهم (المترجم) .

(٢) لستُ أدري شاهداً واحداً من القرآن أو سنة النبي (ﷺ) على هذا الزعم والافتراء ، فالمؤمن ليس بلعَّان ولا فحاش كما ذكر النبي (ﷺ) في بعض حديثه، فكيف يكون النبي (ﷺ) نفسه كذلك ؟! (المترجم) .

(٣) العرب منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قوم متحضرون صنعوا كبريات الحضارات في جزيرة العرب وبلاد الرافدين والشام، ويكفي أن نذكر الكتابات الأبجدية التي اخترعوها ونشروها في آفاق المعمورة، أما إذا كان يعني بتوحش العرب بداوتهم، فالبداوة ليس توحشاً، لأن البداوة لا تتعارض مع القيم والمثل الإنسانية العليا بأي حال، وقد جاء النبي ليعلن أنه إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق عند العرب، والتتمة شيء يسير يضاف إلى شيء كثير، علماً أن في القرآن وحديث النبي (ﷺ) منظومةً أخلاقيةً لو أخذ العالم كله بها لأصبح مجتمع البشر أقرب إلى مجتمع الملائكة، كما أن كل الأمم مرت بمرحلة البداوة أو النمط الرعوي من العيش، يضاف إلى ذلك أن قسماً من العرب كانوا بداة أما الأغلبية فكانوا من الحضر . وأما وصف المسلمين بأنهم عدوانيون، فينفيها قوله تعالى: (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (انظر: القرآن، ٢/ من الآية ١٩٠) ، وقوله تعالى في الدفاع المحدود عن النفس على قدر العدوان: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (انظر: القرآن، ٢/ من الآية ١٩٤) ، والدفاع عن النفس غريزة شرعتها الأديان السماوية والقوانين الوضعية في كل زمان ومكان (المترجم) .

(٤) لعل كرومر يقصد بـ (قانون الثأر) (القصاص) في الجرائم في قوله تعالى: (ولكم في القِصاص حياة يا أولي الألباب) (انظر: القرآن، ٢/ من الآية ١٧٩) ، وهذا القصاص كما هو معلوم تعمل به كل المجتمعات المتحضرة، وهو الذي ألغى عادة الثأر الجاهلية التي يؤخذ بها البريء بجريرة المجرم ظلماً وعدواناً، وأما مبدأ المحاسبة في الإسلام فمبدأ فردي وشخصي يقوم على قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (انظر: القرآن، ٦/ من الآية ١٦٤) ، وهذه قمة العدالة الإنسانية والإنصاف الذي هو مطمح كل إنسان (المترجم)

الإسلام، خلافاً للمسيحية، إلى إحياء فكرة أن الانتقام والكراهية، لا المحبة والرحمة، ينبغي لهما أن يكونا أساس العلاقة بين الأفراد..) (١).

وكان المصريون قد شعروا أن البيت الأخيرة من قصيدة شوقي العنيفة هذه كان، بلا أنى شك، الردّ القاسي من الناطق باسم مصر والإسلام على آراء اللورد (كرومر) في الإسلام (٢)، إذ يقول (٣):

٤٣- مَنْ سَبَّ دِيْنَ مُـحَـمَّـدٍ فَـمُـحَـمَّـدٌ
مُـتَـمَـكِّنٌ عِـنْـدَ الإلَـهِ رَسُـوْلا

ولم يكتفِ شوقي، بمناسبة رحيل اللورد (كرومر)، بإنشاء هذا النقد العنيف الذي ظهر وحده في (الشوقيات)، وإنما كانت له قصيدتان أخريان ظهرتا في الفترة نفسها غفلاً من التوقيع في صحيفة (الجوائب المصرية)، في عددي ٣و٤ أيار (مايو) من سنة ١٩٠٧ (٤)، وفي العدد ٩ من (خيال الظل) يوم ١٠ أيار (مايو) من السنة نفسها (٥): أما القصيدة الأولى فقد قُدِّمَتْ على أنها (لشاعر عظيم وأديب من أكابر الأدباء)، ولجأ شوقي فيها إلى اتِّباع طريقة (التشخيص) (٦) التي أتاحت له أن يجعل تشكيلة واسعة من الاتجاهات السياسية والاجتماعية في الشعب المصري تعبِّر عن نفسها بشأن هذا الموضوع. ولما أعطي الكلام لقرية دنشواي جعلها الشاعر تقول (من البسيط)(٧):

(١) انظر كتاب اللورد (كرومر) : مصر الحديثة (بالإنكليزية) ، ١٣٨/٢-١٣٩ .

(٢) مما يؤسَف له أن اللورد (كرومر) عاش في مصر خمسة وعشرين عاماً، ثم خرج منها شديد الجهل بالإسلام كما دخلها أول مرة، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على استخفافه المبدئي بهذا الدين القيم، وضيق صدره عن فهمه، وعدم وجود نية أصلاً للاطلاع عليه من مصادره المباشرة، ويدل أخيراً على عنجهية الإنكليز وغرورهم، وهم في أوج استعمارهم واتساع إمبرطوريتهم (المترجم) .

(٣) الشوقيات، ١٧٦/١ [ورد في هـ (٢) من الشوقيات في الصفحة نفسها التعليق التالي: (كان اللورد كرومر قد طعن على الدين الإسلامي في تقريره سنة ١٩٠٦، فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر، فشاعرنا يشير إلى ذلك) . ورقم هذا البيت في طبعة ما قبل ١٩٦٤ هو ٥٥ (المترجم)].

(٤) انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٦٨/٢-٧٢ وكانت متعددة البحور، والقافية متنوعة .

(٥) م.س.، ٧٥/٢ من البحر الكامل، والقافية (امَا) .

(٦) كانت كلمة (التشخيص) شائعة بين العامة حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية للدلالة على فن التمثيل الذي تقوم به الشخصيات (المترجم) .

(٧) م.س.، ٦٩/٢ .

يَـا لُـورْدُ إِنْ تَـكُ آثَـارٌ مُـــــــــــخَـلَّـدَةً
فَـــــإِنَّنِيْ أَثَرٌ لِلْعَـــــدْلِ مَلْحُـــــوظُ
لَـنَشْكُرَنَّكَ مَـــــا دَامَ الخَـــــرَابُ بِنَـا
وَالـصُّنْعُ عِنْدَ كِـرَامِ النَّاسِ مَـحْـفُـوظُ

ويعود الشاعر، في القصيدة الثانية، وهي من عشرة أبيات، إلى دنشواي مرة أخرى، وإلى الطعن الذي وجهه اللورد (كرومر) إلى الإسلام، فيقول (من الكامل) (١):

١- يَا رَاحِـــلاً عَنَّا وَذِكْـــرُكَ خَـــالِدٌ
أَبَدَاً لِيُــــحْـــيِيْ بَيْنَنَا الآلاَمَـــا
٢- سِـرْ بِالسَّـلاَمَـةِ حَـامِـلاً زَفَـرَاتِنَا
وَاذْكُـــرْ مَـــقَـــامَكَ بَيْنَنَا الأَعْـــوَامَـــا
٣- وَاذْكُـــرْ حِكَايَةَ دِنْشِـــوَايَ فَـــإِنَّهَـــا
كَمْ خَلَّـفَتْ بَـيْنَ الـرُّبُـوْعِ يَـتَـــــامَى
٤- وَاعْلَـمْ بِـأَنَّـكَ قَـــــدْ أَهَـنْـتَ دِيَـانَـةً
كَمْ أَخْـضَـعَتْ لِنَبِـيِّـهَـا الأَفْـهَـامَـا
٥- هَلْ يُنْكِرُ الأَقْـــوَامُ أَنَّ مُـــحَـــمَّـــداً
مَـــلأَ الْوُجُـــوْدَ حَـــضَـــارَةً وَسَـــلاَمَـــا

كان رحيل اللورد (كرومر) والموقف المتساهل الذي اعتمده خَلَفُه السير (إيلدون غورست) Sir Eldon Gorst تجاه الخديوي عباس، قد سجَّلا، لفترةٍ، نهاية انتقادات شوقي السياسية العنيفة. وناب عنه، منذئذٍ، شعراء آخرون في هذا المجال، من أمثال: محمد عبد المطلب (١٨٧٠-١٩٣١)، وأحمد محرَّم (١٨٧١ -١٩٤٥)، وأحمد الكاشف (١٨٧٨-١٩٤٨)، وعبد الحليم المصري (١٨٧٧-١٩٢٢)، وخاصَّةً علي الغاياتي الذي نشر، في تموز (يوليو) من سنة ١٩١٠، كتاباً صارخاً بعنوان (وطنياتي) (٢).

(١) م.س.، ٢/٧٥ .
(٢) وطنياتي لعلي الغاياتي، ط٢، القاهرة، سنة ١٩٣٨، وانظر بشأن الغاياتي: الشعر وبناء مصر الحديثة لمنى الخوري (بالإنكليزية) ، ص ٨٨ وما بعدها .

وسيرجع شوقي إلى شعره الانتقادي عندما يخلع الخديوي عباس حلمي عن عرشه[1]، وكان هذا الحدث مناسبة لنظم قصيدة ملتبسة، حاول فيها أن يوَفِّق بين السلطان الجديد (حسين كامل) والإنكليز. والمراد بها تلك القصيدة الشهيرة [2] التي عمد فيها إلى مدح الخديوي إسماعيل والإنكليز بالتناوب، إذ يقول في إسماعيل (من الكامل)[3]:

٣٢- أَأَخُونُ إِسْمَاعِيْلَ فِيْ أَبْنَائِهِ
وَلَقَدْ وُلِدْتُ بِبَابِ إِسْمَاعِيلا

وكان قال في الإنكليز [4]:

١٧- حُلَفَاؤُنَا الأَحْرَارُ إِلاَّ أَنَّهُمْ
أَرْقَى الشُّعُوْبِ عَوَاطِفَاً وَمُيُولا

....

١٩- لمَّا خَلاَ وَجْهُ الْبِلاَدِ لِسَيْفِهِمْ
سَارُوْا سِمَاحَاً فِي الْبِلاَدِ عُدُولا
٢٠- وَأَتَوْا بِكَابِرِهَا وَشَيْخِ مُلُوْكِهَا
مَلِكَاً عَلَيْهَا صَالِحِاً مَأْمُولا

ولم يستطع شوقي، مع ذلك، أن يمنع نفسه من أن يعلن، وبطريقة مزوَّقةٍ، بشأن المطامع السرية لإنكلترا في مصر، قوله [5]:

---

(١) كان خلعه عن العرش مع بوادر الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، أما السلطان الجديد (حسين كامل)، الذي هو عم الخديوي عباس المخلوع، فقد كان ألعوبة بأيدي الإنكليز (المترجم).

(٢) ولم تظهر هذه القصيدة في طبعة سنة ١٩٦٤ [لأسباب سياسية تتعلق بمصر الثورة، نظراً لتضمنها امتداح السلطان حسين، والإنكليز، والخديوي إسماعيل، ومحمد علي باشا (المترجم)].

(٣) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦)، ١٨٤/١.

(٤) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦)، ١٨٣/١ [ظن الباحث أن ما قيل في الإنكليز على طول القصيدة مدحٌ لهم، وإنما نرى فيه سخرية لا ذعة جداً إلى حد بعيد، لأنه يمدحهم بصفات ليست فيهم عن قصد ليثبت لهم عكسها في عيون الناس، كأن تقول عن بخيل إنه (حاتم زمانه!)، وواضح أيضاً أن وصفه للسلطان حسين لا يقلّ سخرية عنها، ولعل هذا ما أثار نقمة السلطان الجديد والإنكليز معاً عليه وأدى بهم إلى اتِّخاذ قرار نفيه (المترجم)].

(٥) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦)، ١٨٥/١.

٥٣- وَانْفَضَّ مَلْعَــبُـــهُ وَشَــــاهِدُهُ عَلَى
أَنَّ الـرِّوَايَـةَ لَـمْ تَـتِـمَّ فُــــــــصُـــــــولا

وقد أغضبت هذه الإشارة، بلا أدنى شك، السلطات البريطانية. ومع ذلك، يبدو لنا من الصعب أن نزعم أن تلك القصيدة كانت السبب الوحيد لإجراء النفي الذي أقدمت عليه تلك السلطات بحق الشاعر. وقد لاحظت منى الخوري (أنه على الرغم من القيود الشديدة التي فرضها غورست، وفيما بعد اللورد كتشنر، على الصِّحَافة وحرية التعبير، يصعب الاعتقاد بأن مثل تلك الإشارة، وما تنطوي عليه، كانت العامل الحاسم أو الحجة القوية لنفيه. والحقيقة.. أن شوقي كان قد اتُّهِم بخيانة بلاده وخيانة سيِّده القديم) (١).

وكان على شوقي أن يدافع عن نفسه من منفاه بإسبانيا، بأن جاهلاً ما فسَّر قصيدته تفسيراً خاطئاً، ولم يتمكن من الوصول إلى إدراك ما فيها من صوت داخلي ينبِّه الشعب على التهديد الذي تشكله بريطانيا العظمى على حريته، ثم أضاف قوله: (يكفي آلافَ الشبان المثقفين أن يعرفوا لغتهم ليدركوا المعنى الحقيقي للقصيدة، التي يحفظها أكثرهم عن ظهر قلب. واللهُ يعلمُ أن بسمارك (٢) Bismarck لو كان مكاني، في الفترة التي حصلت فيها ردة فعل السلطان حسين العنيفة التي تفوق كل وصف على قصيدتي، لما تمكَّن من مغادرة مصر باعتزاز وكرامة كما فعلتُ أنا) (٣).

(١) انظر كتابها: الشعر وبناء مصر الحديثة (بالإنكليزية) ، ص٩٨ .

(٢) بسمارك (أوتّو فون -) (١٨١٥-١٨٩٨) ، سياسي بروسي، كان قد درَس القانون، وعمل محامياً، ثم وزيراً لخارجية بروسيا، ثم رئيساً لوزرائها، وخاض ثلاث حروب منتصرة في سبيل توحيد الألمان المتشرذمين في عشرات الدوقيات المتناثرة: الأولى مع الدانمارك سنة ١٨٦٤، والثانية مع النمسا سنة ١٨٦٦، والثالثة مع فرنسا سنة ١٨٧٠، ووحَّد الألمان في دولة واحدة، وتولى مستشارية الريخ الثاني (من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٩٠) ، وعقد حلفاً مع النمسا والمجر وإيطاليا بقي حتى الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

(٣) انظر: مذكراتي في نصف قرن لأحمد شفيق، ٣/٢٥٦ .

وكان شوقي يوجّه في شعره دعوات كثيرة إلى الخلافة [(١)]، ويكرّر تأييده لعبد الحميد في أبيات ملتهبة تقدّم لنا القصيدة التالية مثالاً نموذجياً عليها [(٢)]، إذ يقول (من الخفيف) [(٣)]:

٥- إِيْهِ (عَبْدَ الحَمِيْدِ) جَلَّ زَمَانُ
أَنْتَ فِيْهِ خَلِيْفَةٌ وَإِمَامُ
٦- مَا رَأَتْ مِثْلَ ذَا الَّذِيْ تَبْتَنِي الأَقْـ
ـوَامُ مَجْداً وَلَنْ يَرَى الأَقْوَامُ
٧- دَوْلَةٌ شَادَ رُكْنَهَا أَلْفُ عَامٍ
وَمِئَاتٌ تُعِيْدُهَا أَعْوَامُ

....

١٣- شَرَفٌ بَاذِخٌ وَمُلْكٌ كَبِيْرُ
وَيَمِيْنٌ بُسُطٌ وَأَمْرٌ جُسَامُ
١٤- عُمَرٌ أَنْتَ بَيْدَ أَنَّكَ ظِلٌّ
لِلْبَرَايَا وَعِصْمَةٌ وَسَلاَمُ
١٥- مَا تَتَوَّجْتَ بِالخِلاَفَةِ حَتَّى
تُوِّجَ الْبَائِسُوْنَ وَالأَيْتَامُ
١٦- وَسَرَى الخِصْبُ وَالنَّمَاءُ وَوَافَى الْـ
ـبِشْرُ وَالظِّلُّ وَالجَنَى وَالْغَمَامُ

....

٢٣- أُمَّةُ التُّرْكِ وَالْعِرَاقُ وَأَهْلُوْ
هُ وَلُبْنَانُ وَالرُّبَا وَالخِيَامُ
٢٤- عَالَمٌ لَمْ يَكُنْ لِيُنْظَمَ لَوْلاَ
أَنَّكَ السِّلْمُ وَسْطَهُ وَالْوِئَامُ

....

(١) قد يوحي سياق العبارة هنا أن الأبيات التي سيستشهد بها الباحثُ قالها شوقي بعد نفيه إلى إسبانيا سنة ١٩١٤، والحقيقة أنه قالها في زمن السلطان عبد الحميد، كما ذكرنا في الهامش السابق، ولذا يبدو لنا إقحام الموضوع غريباً هنا (المترجم).

(٢) الشوقيات (طبعة ١٩٦٤) ، ١/٢٣٩-٢٤٤ وهي قصيدة من ٦٠ بيتاً بعنوان (ضيف أمير المؤمنين) ، وقالها في شبابه حين كان يمضي بعض الأوقات في الآستانة عاصمة الخلافة يشكر فيها السلطان عبد الحميد، الذي علم بوجود الشاعر في مدينته، فأرسل إليه أنه سيكون ضيفاً عليه مدة إقامته فيها (المترجم) .

(٣) الشوقيات، ١/٢٤٠-٢٤١و٢٤٢ .

٢٨- وَضَعَ الشَّرْقُ فِيْ يَدَيْكَ يَدَيْهِ
وَأَتَتْ مِنْ حُمَاتِهِ الأَقْسَامُ

وربما كان البيت التالي على وجه الخصوص موحياً، وكان له دويٌّ عظيم بتوجيهه نداءً إلى الوحدة تحت راية الإسلام (١):

٣٤- أَيُّهَا النَّافِرُوْنَ عُوْدُوْا إِلَيْنَا
وَلِجُوْا الْبَابَ إِنَّهُ الإِسْلاَمُ

وكانت خاتمة القصيدة دعوة ملحة إلى (الجامعة الإسلامية) pan-islamisme التي يصعب على بريطانيا العظمى أن تستسيغها، يقول (٢):

٤١- نَسْتَمِيْحُ الإِمَامَ نَصْراً لِمصْرٍ
مِثْلَمَا يَنْصُرُ الحُسَامَ الحُسَامُ

٤٢- فَلِمِصْرٍ وَأَنْتَ بِالحُبِّ أَدْرَى
بِكَ يَا حَامِي الحِمَى اسْتِعْصَامُ

....

٤٤- وَإِلَى السَّيِّدِ الخَلِيْفَةِ نَشْكُوْ
جَوْرَ دَهْرٍ أَحْرَارُهُ ظُلاَّمُ

٤٥- وَعَدُوْهَا لَنَا وُعُوْداً كِبَاراً
هَلْ رَأَيْتَ الْقُرَى عَلاَهَا الجَهَامُ

....

٤٨- فَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا هِيَ مِصْرُ
وَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا الأَهْرَامُ

٤٩- وَارْعَ مِصْراً وَلَمْ تَزَلْ خَيْرَ رَاعٍ
فَلَهَا بِالَّذِي أَرَتْكَ ذِمَامُ (٣)

(١) الشوقيات، ١/٢٤٣ .

(٢) م.س.، ١/٢٤٢و٢٤٣ .

(٣) في الشوقيات (زِمَامُ) بالزاي، ونظنه تحريفاً أو خطأ مطبعياً لما أثبتنا أعلاه، عن طريق نطق الذال زاياً (المترجم) .

غير أننا حين نفكّر بالنقد العنيف الذي كان في الشعر السياسي عند كل من حافظ إبراهيم، فإننا نشهد مع (أربرّي) Arberry، وبشيء من الاستغراب، أن قَدَرَي الشاعرين المصريين الكبيرين حافظ وشوقي مختلفان جداً، فقد كتب يقول: (إن حافظ إبراهيم، الذي كان مواطنوه يَعُدُّونه أكثر شعراء السياسة ثورية، قد أمضى حياتَه كلَّها بهدوء في مصر، أما شوقي فقد عرف النَّفْيَ لبضع سنوات) [١]. ويُفَسَّر هذا النوع من الوقائع الغريبة في الظاهر تفسيراً جزئياً بالنغمة التوفيقية التي كانت تلطِّف عند حافظ، وفي أغلب الأحيان، من وقع أشد القصائد قسوةً، ويبدو لنا أن منى الخوري قد أدركت جيداً ما يميِّز (شاعر النيل) من (أمير الشعراء) حين كتبت تُحَلِّل طبعيهما: (إن القصائد الوطنية، التي كانت تبدو عنيفة جداً قدر الإمكان عند حافظ، كانت تُفْتَتَح بتمهيد وِدِّيّ، ثم تُخْتَتَم بدعوة إلى التوافق الذي يقلِّل من حِدَّة روحها الثورية. يضاف إلى ذلك أن حافظ إبراهيم، وعلى الرغم من كونه تلميذاً للشيخ محمد عبده.. بقي شاعراً معتدلاً عموماً، ويؤيِّد سياسة التعاون مع الإنكليز، وهي السياسة التي كان الوطنيون التحرريون libéraux أنفسهم ينادون بها. وفي الوقت الذي نُفِيَ فيه شوقي بسبب قصيدته الشهيرة التي يحذِّر فيها المصريين من احتمال ضمٍّ بلادهم إلى الإمبراطورية البريطانية، كان (شاعر النيل) يطالب السلطان الجديد (حسين كامل)، وبإلحاح، بأن يكون حليفاً مخلصاً لسلطة الاحتلال.. ولم تُصِمَّ السلطات البريطانية، من جانبها، الأذن عن موقف التوفيق هذا الذي كان بعضُ آثار حافظ صدًى له، فكانت تغفِر له هجومه الشديد عليها لذلك، وهذا ما كان يتيح له أن يهاجمها. فليس غريباً إذن أن يكون حافظ قد أمضى حياته بهدوء في مصر، وأن يُنْفَى شوقي الناطق باسم جيش من المتحمِّسين المتعصِّبين للخديوي، وللوطنيين، ولأنصار الجامعة الإسلامية المتمردين على

---

(١) انظر مقالة (آرثر جون أربرّي) Arthur John Arberry حافظ إبراهيم وشوقي (بالإنكليزية) ، في: مجلة الجمعية الملكية الآسيوية JRAS ، مج٣٥، سنة ١٩٣٧، ص٥١ .

الإنكليز. وباتِّخاذ سلطة الاحتلال إجراءً قاسياً جداً بحق شاعر القصر تكون قد اعترفت بتأثير شعره القوي في حركة المقاومة، وبالعدد المتنامي لأنصارها المتحمِّسين في مصر وفي العالم الإسلامي أيضاً) (١).

وكما أشار طه حسين (٢)، فإن شوقي جعل من نفسه، منذ عودته من منفاه على وجه الخصوص، شاعر العاطفة الوطنية المصرية (٣)، وقد بدأت المواضيع الاجتماعية تظهر في (شوقياته) ابتداءً من سنة ١٩١٩، ولم تكفَّ عن التنامي إلى وفاته.

إن سير الأحداث لم يتم– وقد رأينا ذلك – من غير أن يُمْلِيَ على شوقي متطلَّباتٍ جديدةً، وينبغي لنا مع ذلك ألا ننسى أن شوقي كان قد تتلمذ، كالبارودي، وعبد الله فكري، وحمزة فتح الله، على يد حسين المرْصِفي، الذي كانت دروسه في المادة الاجتماعية امتداداً لدروس رفاعة الطهطاوي (٤) (٥). وقد كانت للمرصفي ثماني كلمات مفاتيح هي (الأمة، والوطن، والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسة، والحرية، والتربية)، وكانت جميعاً تشكِّل نسيج قصائد شوقي المخصَّصة لمصر في هذا الشطر من حياته.

---

(١) انظر كتابها: الشعر وبناء مصر الحديثة (بالإنكليزية) ، ص١٠١–١٠٢ .

(٢) في كتابه: حافظ وشوقي، ص٦٦ .

(٣) لفت شوقي، منذ عام ١٩٢٠، الانتباه إلى التوجُّهات الجديدة في شعره بتأليفه مشروع نشيد وطني مصري استُقْبِل استقبالاً حسناً في (نادي الموسيقى الشرقي) الذي كان (جعفر والي باشا) يترأسّه: والمقصود بذلك قصيدة من ١٦ بيتاً، من البحر الوافر، ذات بنية مقطعية تتألف من بيتين تمهيديين قافيتهما (يَا) (في نهاية أشطرهما الأربعة – ، ثم تتغيَّر هذه القافية في الأشطر الثلاثة الأولى من البيتين التاليين، مع بقاء الشطر الرابع ملتزماً بقافية التمهيد (يَا) (وتجد النص الكامل لهذه القصيدة في كتاب: سلاح الأدب في ميدان الجهاد القومي – النشيد الوطني المصري لمحمود محمد صادق، القاهرة، سنة ١٩٥٠، ٥٨صفحة + ٤) . ولكن الحكومة المصرية نظَّمت سنة ١٩٣٦ مسابقة رسمية لتقديم نشيد وطني لمصر، فكان الفائز (محمود محمد صادق) ، وهو الذي لقَّبه سعد زغلول سنة ١٩١٩ بـ (شاعر الثورة) ، وقد تَمَّ اعتماد هذا النشيد، وأُذِيْع في حزيران (يونيو) من سنة ١٩٣٦، وهو نشيد (بلادي بلادي فِداكِ دمي ..) .

(٤) انظر كتاب: الشيخ حسن (كذا!) بن أحمد المرصفي لمحمد عبد الجواد ، القاهرة ، المعارف، سنة ١٩٥٢ .

(٥) رفاعة الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣) درَس في الأزهر ودرَّس، عمل إماماً وواعظاً في الجيش، وأرسل سنة ١٨٢٦ مع البعثة الدراسية إلى فرنسا فدرس الترجمة وتخرج فيها، وأصبح أحد رواد النهضة التربوية والأدبية الحديثة بمصر في القرن التاسع عشر، سجَّل لنا حياة الفرنسيين وعلومهم وعاداتهم وفنونهم وآدابهم وأخلاقهم في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ، أسس مدرسة الألسن على غرار مدرسة اللغات الشرقية بباريس (المترجم) .

لقد كانت الشبيبة والتربية تقومان، لدى شعب يبدأ حياة جديدة، على قيمة (الإيثار): أقيم احتفال في مدرسة المعلمين العليا، فكان فرصة لشوقي كي يشيد بفضائل المعلمين الذين يتحملون عبء تكوين جيل الشباب، ويفخِّم دورهم الفريد في هذا المجال، بقصيدة[١] يكشف لنا مطلعها عن نغمتها دفعة واحدة، إذ يقول (من الكامل)[٢]:

١- قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيْلا
كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُوْنَ رَسُولا
٢- أَعَلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي
يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُساً وَعُقُولا

ثم يذكِّر بأن شرف هذه المهنة مستمدّ كله من الله تعالى، فيقول [٣]:

٣- سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ خَيْرَ مُعَلِّمٍ
عَلَّمْتَ بِالْقَلَمِ الْقُرُوْنَ الأُولَى
٤- أَخْرَجْتَ هَذَا الْعَقْلَ مِنْ ظُلُمَاتِهِ
وَهَدَيْتَهُ النُّوْرَ المُبِيْنَ سَبِيلا

....

٦- أَرْسَلْتَ بِالتَّوْرَاةِ مُوْسَى مُرْشِداً
وَابْنَ الْبَتُوْلِ فَعَلَّمَ الإِنْجِيلا
٧- وَفَجَرْتَ يَنْبُوْعَ الْبَيَانِ مُحَمَّداً
فَسَقَى الحَدِيْثَ وَنَاوَلَ التَّنْزِيلا

ثم يشكو الشاعر من التأخُّر الذي حصل لمصر، ويجعل السير (دنلوب) Sir Dunlop مسؤولاً عنه، فيقول في العلم [٤]:

(١) وهي بعنوان (العلم والتعليم وواجب المعلِّم) ، وتقع في ٦٦ بيتاً .
(٢) الشوقيات، ١/١٨٠ .
(٣) م.س.، ١/١٨٠و١٨١ .
(٤) م.س.، ١/١٨٢ .

٢٤- كَـانَتْ لَنَا قَـدَمٌ إِلَيْـهِ خَـفِـيْـفَـةٌ

وَرِمَتْ بِدَنْلُوْبٍ فَكَانَ الْفِـيـلا

٢٥- حَتَّى رَأَيْنَا مِصْرَ تَخْطُوْ إِصْبَعَاً

فِي الْعِلْمِ إِنْ مَشَتِ الْمَمَالِكُ مِيلا

ويُظْهِر الحنينَ إلى الماضي الفرعوني ثانية هنا في قوله [1]:

٢٧- تَجِدُ الَّذِيْنَ بَنَى الْمِسَلَّةَ جَدُّهُمْ

لاَ يُحْسِنُوْنَ لإِبْرَةٍ تَشْكِيلا

ثم يعود إلى اتِّهام (دنلوب) فيقول [2]:

٣٥- مَا كَان دَنْلُوْبٌ وَلاَ تَعْلِيْمُهُ

عِنْدَ الشَّدَائِدِ يُغْنِيَانِ فَتِيلا

ثم أشاد بنَزَاهة المعلِّم، لأنها هي الضمان لصحة الأخلاق في الأمة، فقال [3]:

٣٩- وَإِذَا الْمُعَلِّمُ لَمْ يَكُنْ عَدْلاً مَشَى

رُوْحُ الْعَدَالَةِ فِي الشَّبَابِ ضَئِيلا

....

٤٢- وَإِذَا أُصِيْبَ الْقَوْمُ فِيْ أَخْلاَقِهِم

فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمَاً وَعَوِيلا

....

٤٥- وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِيْ أُمِّيَّةٍ

رَضَعَ الرِّجَالُ جَهَالَةً وَخُمُولا

---

(١) م.ن.
(٢) م.ن.
(٣) م.س.، ١٨٣/١ .

وتأتي الخلاصة أخيراً لتختم هذه القصيدة، إذ يقول [1]:

٦٥- مَـــــا أَبْعَـــــدَ الْغَـــــايَاتِ إِلاَّ أَنَّنِيْ

أَجِـــدُ الثَّـــبَـــاتَ لَكُمْ بِهِنَّ كَـــفِـــيـــلا

٦٦- فَكِلُوْا إِلَـى اللهِ النَّجَـــاحَ وَثَابِرُوْا

فَـــاللهُ خَـــيْـــرٌ كَـــافِـــلاً وَوَكِـــيـــلا

٤ - المرأة والحركة النسائية :

كان شوقي صدًى لحركة تحرير المرأة التي لم يكن يستطيع أن يبقى بعيداً عنها. وفي القرن الأخير التاسع عشر - ، كانت الهزَّة التي أحدثها الطهطاوي بالإشارة، في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز - ، إلى الهوَّة التي كانت تفصل بين حرية المرأة الباريسية، التي كان قد رآها أثناء إقامته في العاصمة الفرنسية، وبين عبودية المرأة المصرية. وسرعان ما وجدت الحركة مروجين متحمِّسين لها مع (ملك حفني ناصف)، المعروفة بلقب (باحثة البادية) (١٨٨٦-١٩١٨)، وهي مؤلِّفة دراسة نسائية بعنوان (نسائيات) (القاهرة، سنة ١٩١٠)، ثم على وجه الخصوص مع (هدى شعراوي) مؤسِّسة (جمعية الاتحاد النسائي المصري)، وقد أنشأت، بغية نشر أفكارها، مجلَّة مصوَّرة تُحَرَّر بالعربية والفرنسية هي مجلة (المصرية) L'Égiptienne، وقد تميَّزت - ضمن أشياء أخرى- بمطالباتها في البرلمان المصري سنة ١٩٢٣ [2]. ثم أصبحت المواضيع النسائية كثيرة بعدما نشر (قاسم أمين) كتابين ثوريين عن هذا الموضوع الملتهب [3].

(١) م.س.، ١/١٨٤ .

(٢) وقد قام طلبة مصريون يدرسون في الخارج بنقل حجارتهم أيضاً لهذا البناء: وتلك هي حال منصور فهمي، تلميذ (ليفي - برول Lévi-Bruhl الذي حضَّر بإشرافه أطروحة عن (حال المرأة في التراث وتطور الإسلام) (بالفرنسية) (باريس، سنة ١٩١٣) .

(٣) أحدهما (تحرير المرأة) (الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٩١٤) ، والثاني (المرأة الجديدة) (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩١١) .

كان الموضوع متفجِّراً، وقد برهن شوقي، على وجه الإجمال، كما سنرى، على اعتداله فيه. فقد كان يبدو خائفاً على المرأة المصرية من الحضارة الحديثة، ويتمنى في إحدى قصائده [1] أن تتمتَّع المرأة بالحالة التي كانت عليها في صدر الإسلام وفي العصر الذهبي للدولة العباسية، فيقول (من مجزوء الكامل) [2]:

٧- أُذْكُرْ لَهَا الْيَابَانَ لا
أُمَمَ الْهَوَى الْمُتَهَتِّكَاتِ

٨- مَاذَا لَقِيْتَ مِنَ الحَضَا
رَةِ يَا أُخَيَّ التُّرَّهَاتِ

٩- لَمْ تَلْقَ غَيْرَ الرِّقِّ مِنْ
عُسْرٍ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ

١٠- خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالحَدِيْـ
ـثِ وَسِيْرَةِ السَّلَفِ الثِّقَاتِ

١١- وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الخَلِيْـ
ـقَةِ وَاتَّبِعْ نُظُمَ الحَيَاةِ

١٢- هَذَا رَسُوْلُ اللهِ لَمْ
يُنْقِصْ حُقُوْقَ المُؤْمِنَاتِ

١٣- الْعِلْمُ كَانَ شَرِيْعَةً
لِنِسَائِهِ المُتَفَقِّهَاتِ

١٤- رُضْنَ التِّجَارَةَ وَالسِّيَا
سَةَ وَالشُّؤُوْنَ الأُخْرَيَاتِ

١٥- وَلَقَدْ عَلَتْ بِبَنَاتِهِ
لجُجُ الْعُلُوْمِ الزَّاخِرَاتِ

---

(١) وقد ألقيت في اجتماع للنساء المصريات في مسرح حديقة الأزبكية، وتحمل عنوان (مصر تجدِّد نفسها بنسائها المتجدِّدات) ، وتتكون من ٤٣ بيتاً .

(٢) الشوقيات، ١/١٠٣-١٠٤و١٠٥ .

١٦- كَـــــانَتْ سُكَيْنَةُ تَمْــــلأُ الدْ
دُنْـيَـــــــا وَتَـهْـــزَأُ بِـالـرُّوَاةِ
١٧- رَوَتِ الـحَــــدِيْثَ وَفَـــسَّـــرَتْ
آيَ الْـكِـتَـــابِ الـبَـــــــــيِّـنَـاتِ
١٨- وَحَــــضَـــــارَةُ الإِسْــــلاَمِ تَنْـ
ـطِقُ عَنْ مَكَانِ الـمُـــــسْلِمَـــــاتِ
١٩- بَـغْـــدَادُ دَارُ الْـعَـــــــالِـــمَـــا
تِ وَمَـنْـزِلُ الــمُـــــــتَــــــــأَدِّبَـاتِ
٢٠- وَدِمَــــشْـقُ تَحْتَ أُمَـــيَّــــةٍ
أُمُّ الــجَــــــوَارِي الـنَّـابِـغَــــــاتِ
٢١- وَرِيَـاضُ أَنْـدَلُـسٍ نَـمَــــــــيْـ
ـنَ الْـهَــــاتِفَـــاتِ الشَّـــاعِـــرَاتِ

....

٣٥- مِــــصْـــرُ تُـجَـدِّدُ مَـــجْـــدَهَا
بِنِسَـائِهَـــا الـمُــــتَـــجَـدِّدَاتِ

وفي مرثيته لقاسم أمين (١٩٠٩م)، يبرهن شوقي على اعتداله في مسألة الحرية التي ينبغي لها أن تمنح للمرأة، وخاصة ما يتعلَّق بلُبْس الحجاب.

وقد لاحظ عمر فروخ أن شوقي لم يكن راغباً في أن يفصح بوضوح عما كان يعتقد في الحجاب، لأن ذلك قد يجلب له عداوة أنصار المرأة أومعارضيهم، وآثر أن يروي المراحل التاريخية لهذه الحركة، من غير أن يحثّ عليها أو يحاربها، ولكنه ذهب إلى أن الإسلام كان قد أعطى المرأة حرية حقيقية، ومنحها المنزلة التي تليق بها [١]، إذ يقول مخاطباً الفقيد (من الكامل) [٢]:

(١) انظر كُتَيِّبَه: كلمة في أحمد شوقي أمير الشعراء في العصر الحديث، ص٣٠ .
(٢) الشوقيات، ٧٨/٣ .

٣٩- مَـاذَا رَأَيْتَ مِنَ الحِـجَـابِ وَعُـسْـرِهِ
فَـــــدَعَـــــوْتَـنَـا لِـتَـــــرَفُّقٍ وَيَسَـارِ ؟!
٤٠- رَأْيٌ بَدَا لَكَ لَمْ تَجِـدْهُ مُـــخَـــالِفَـــاً
مَـــا فِي الْكِتَـــابِ وَسُنَّةِ الـمُـــخْـــتَـــارِ

....

٤٢- وَالْبَـاسِلاَنِ: شُـجَـاعُ قَلْبٍ فِي الْوَغَى
وَشُـــــجَـــــاعُ رَأْيٍ فِيْ وَغَى الأَفْكَارِ
٤٣- أَوَدِدْتَ لَوْ صَــارَتْ نِسَـاءُ النِّيْلِ مَـا
كَـــانَتْ نِسَـــاءُ قُـــضَـــاعَـــةٍ وَنِزَارِ ؟!
٤٤- إِنَّ الحِـجَـابَ سَـمَـاحَـةٌ وَيَسَـارَةٌ
لَوْلاَ وُحُـــوْشٌ فِي الرِّجَـــالِ ضَـــوَارِي
٤٥- جَـهِلُوْا حَـقِيْـقَـتَـهُ وَحِكْمَـةَ حُكْمِـهِ
فَـــتَـــجَـــاوَزُوْهُ إِلَى أَذَى وَضِـــرَارِ

وقد نشر شوقي أيضاً قصيدة بعنوان (عبث المشيب) خصَّصَها لتبديد الأوهام، وهو يبيِّن الجانب غير الأخلاقي لبعض الزِّيجات التي يقتصر دور الزوجة الشابة فيها على كونها تحفة كمالية ومتعة، إذ يقول (من الكامل) (١):

١- ظَلَمَ الرِّجَـالُ نِسَـاءَهُمْ وَتَعَـسَّـفُـوْا
هَلْ لِلنِّسَـــاءِ بِمِـــصْـــرَ مِنْ أَنْصَـــارِ
٢- يَا مَـــعْـــشَـــرَ الْكُتَّـــابِ أَيْنَ بَلاَؤُكُمْ
أَيْنَ الْبَـــيَـــانُ وَصَـــائِبُ الأَفْكَارِ ؟!

....

١٨- فِيْ كُلِّ عَـــامٍ هَـمُّـــهُ فِيْ طَفْلَـةٍ
كَـــالشَّـــمْسِ إِنْ خُطِبَتْ فَلِلأَقْـــمَـــارِ
١٩- يَرْشُـــوْ عَلَيْـــهَـــا الْوَالِدَيْنِ ثَلاَثَةً
لَـمْ أَدْرِ أَيُّـهُـمُ الْغَـلِيْـظُ الضَّـــــارِي

(١) الشوقيات، ١/١٢٩و١٣٠-١٣١ .

٢٠- المَالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيْرِ مُحَلَّلٍ
حَتَّى زَوَاجَ الشِّيْبِ بِالأَبْكَارِ
٢١- سَحَرَ الْقُلُوْبَ فَرُبَّ أُمٍّ قَلْبُهَا
مِنْ سِحْرِهِ حَجَرٌ مِنَ الأَحْجَارِ
٢٢- دَفَعَتْ بُنَيَّتَهَا لأَشْأَمِ مَضْجَعٍ
وَرَمَتْ بِهَا فِي غُرْبَةٍ وَيَسَارِ

....

٢٤- مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ وَإِنَّمَا
بِيْعَ الصِّبَا وَالحُسْنُ بِالدِّيْنَارِ
٢٥- بَعْضُ الزَّوَاجِ مُذَمَّمٌ مَا بِالزِّنَا
وَالرِّقِ إِنْ قِيْسَا بِهِ مِنْ عَارِ
٢٦- فَتَّشْتُ لَمْ أَرَ فِي الزَّوَاجِ كَفَاءَةً
كَكَفَاءَةِ الأَزْوَاجِ فِي الأَعْمَارِ

٥ - الحركة العمالية :

لقد كان شوقي يلتزم، في إطار المواضيع الاجتماعية، تمجيدَ دور العامل، وقد فعل ذلك في قصيدة قصيرة ومبتذلة، تتكون من ٣٦ بيتاً، وهي ذات نَفَسٍ قصير [١]،

(١) ونحن نخالف رأي الباحث هذا، ونرى أن قِصَر النَّفَس، هنا، كان مقصوداً، لأن شوقي أراد أن تنطلق قصيدته نشيداً جماعياً يغني به العمال في مصانعهم وأعمالهم المختلفة، وهم منكبون على العمل، أو حتى في الاحتفالات الخاصة بهم، والدليل على ذلك أن شوقي في الأغلبية المطلقة من قصائده تقريباً كان طويل النفس، من حيث البحر وطول القصيدة، كما أن اختياره لمجزوء الرمل يفسِّر قصده، لأن هذا المجزوء ذو إيقاع لطيف ورشيق يصلح للغناء به، والدليل الثالث أن المقطَّعات عند شوقي كانت قليلة محدودة العدد نسبياً قياساً على مجمل إنتاجه الشعري المعروف، والدليل الرابع أن القصيدة ليست قصيرة كما ذكر الباحث، لأنها تبلغ ٣٦ بيتاً، وهذا طول متوسط بين القصائد على الأقل . أما الابتذال فيها فغير وارد، لأن الشاعر يطرح فيها جملة من القيم والمبادئ الأساسية والنبيلة بشأن رسالة العمال في إغناء الحياة وبناء المجتمعات والأوطان بجهودهم المثمرة . وهذه الملاحظات تدلُّنا على أن أذواق الغربيين واستيعابهم لجماليات شعرنا العربي لا تمتلك الآلات المساعدة دائماً (المترجم) .

وقد ذكر فيها حضارة مصر القديمة في عصرها الذهبي، وهذا ما يتناقض مع ما ينبغي لنا أن نسميه (نصائح بورجوازي مِثاليّ صغير). وتبدأ القصيدة بقوله (من مجزوء الرَّمَل) (١):

٥- أَيْـنَ أَنْـتُـمْ مِـنْ جُـــدُوْدٍ
خَـلَّـدُوْا هَـذَا الـتُّـــرَابَـا

٦- قَـلَّـدُوْهُ الأَثَـرَ الـمُـــعْـ
ـجِـــزَ وَالْـفَنَّ الْـعُـــجَـــابَا

٧- وَكَـــسَـــوْهُ أَبَـدَ الـدْ
دَهْرِ مِنَ الْفَـــخْـــرِ ثِيَـــابَا

٨- أَتْقَنُوا الصَّنْعَـــةَ حَـــتَّى
أَخَـــذُوا الـخُلْدَ اغْـــتِـــصَـــابَا

ويتوجَّه بالخطاب إلى العمال المصريين ليحثهم على إتقان عملهم من أجل قضية مصر، فيقول (٢):

١٠- أَتْقِنُوْا يُحْـــبِـــبْكُمُ اللـ
ـهُ وَيَـرْفَـــعْـكُـمْ جَـنَـابَـا

١١- أَرَضِـــيْـــتُمْ أَنْ تُـرَى مِـــصْـ
ـرُ مِـنَ الْـفَـنِّ خَـــرَابَـا

١٢- بَعْـــدَمَـــا كَـــانَتْ سَـــمَـــاءً
لِـلـصِّـنَـاعَـاتِ وَغَـــابَـا

كما يحثُّهم على أن يكونوا ذوي نزاهة جديرة بماضي المسلمين، فيقول (٣):

---

(١) الشوقيات، ١/٩٠ .
(٢) م.س، ١/٩٠-٩١ .
(٣) م.س.، ١/٩١ .

١٧- لَـيْـسَ بِـالأَمْــــــرِ جَــــــــدِيْـرَاً
كُــــلُّ مَــــنْ أَلْــــقَـــى خِــطَــــابَـــا
١٨- أَوْ سَــــخَـــــا بِـالـمَــــالِ أَوْ قَــــدْ
دَمَ جَــــــــاهَــاً وَانْـتِــــــــسَـــــــابَـا

....

٢٠- فَــــتَــــخَــــيَّــــرْ كُلَّ مَنْ شَــــبْـ
ـبَ عَـلَـى الـصِّــــــدْقِ وَشَــــــابَـا
٢١- وَاذْكُـــــــرِ الأَنْـصَــــــارَ بِـالأَمْـ
ـسِ وَلاَ تَـنْـسَ الـصِّــــــحَــــــابَـا

....

٢٥- وَاسْــتَـــقِـــيْــمُـــوْا يَفْــتَحِ اللـ
ـهُ لَـكُـمْ بَـابَـاً فَــــــــبَــــــــابَـا

وهو يرى أن على العامل الجيد أن يتجنَّب شرب الخمر التي تلحق الضرر بعمله، فيقول [(١)]:

٢٦- أُهْجُــرُوا الـخَــمْــرَ تُطِيْــعُــوا الْـ
ـلَّـهَ أَوْ تُـرْضُــــــوا الْـكِـتَــــــابَـا
٢٧- إِنَّــهَــــــــــا رِجْـسٌ فَـطُـوْبَــــى
لامْــــــــــــــــرِئٍ كَــفَّ وَتَـــابَــــا
٢٨- تُــــرْعِــــشُ الأَيْـــدِيْ وَمَــــنْ يُــــرْ
عَـشْ مِـنَ الـصُّـنَّـاعِ خَـــــــــابَـا

(١) م.ن. كنا نتمنى لو أخذ شوقي نفسه بهذه النصيحة في حياته الخاصة (المترجم) .

ويرى أن على العامل أن يكون مقتصداً، وأن يفكّر في شيخوخته، فيقول [(١)]:

٣٠- فَاذْكُرُوْا يَوْمَ مَشِيْبٍ
فِيهِ تَبْكُوْنَ الشَّبَابَا

٣١- إِنَّ لِلسِّنِّ لَهَمَّاً
حِيْنَ تَعْلُوْ وَعَذَابَا

٣٢- فَاجْعَلُوْا مِنْ مَالِكُمْ لِلشْـ
ـشَيْبِ وَالضَّعْفِ نِصَابَا

٣٣- وَاذْكُرُوْا فِي الصِّحَةِ الدْ
دَاءَ إِذَا مَا السُّقْمُ نَابَا

٣٤- وَاجْمَعُوا المَالَ لِيَوْمٍ
فِيهِ تَلْقَوْنَ اغْتِصَابَا

إنها نصائح حميدة في ذاتها حقاً، غير أن رُكاماً من البديهيات المبتذلة قد أفسدها، ويكشف لنا بيت القصيد على طول النص عن صورة لذوق مشكوك في أمره، حين يقول [(٢)]:

٣٥- قَدْ دَعَاكُمْ ذَنَبَ الْهَيْـ
ـئَةِ دَاعٍ فَأَصَابَا

٣٦- هِيَ طَاوُوْسٌ وَهَلْ أَحْـ
ـسَنُهُ إِلاَّ الذُّنَابَى

---

(١) الشوقيات، ٩٢/١ تكشف لنا هذه الأبيات عن جهل شوقي المطبق بحال العمال وأوضاعهم في زمانه، فهو يعتقد أن العامل يحصل على أجر ضخم يستطيع أن يأكل بثلثه، وأن يرفِّه عن نفسه بثلثه الثاني، وأن يدَّخر لأيام شيخوخته ثلثه الثالث، ولا يملك شوقي هنا إلا نظرة ناظم أغنية فريد الأطرش (محلاها عيشة الفلاحة !) الشهيرة (المترجم).

(٢) م.ن. ويريد بقوله (الهيئة) هنا (هيئة المجتمع) ، وقد أبرز شوقي، في هذين البيتين، من حيث لا يدري، كيف كانت نظرة المجتمع المصري في أيامه لطبقة العمال، فهم يرونهم في أدنى السلم الاجتماعي أو في آخره أو كما قال (ذنباً) لهذا المجتمع، وحاول أن يسبغ على هذه النظرة مسحة تجميلية من ذنب الطاووس الجميل، وكأنه كان يفكر بقضية (أنف الناقة) ببيت الحطيئة المشهور الذي رفع به العار عن قوم بني أنف الناقة (من البسيط) :

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ ... وَمَنْ يُسَوِّيْ بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا ؟!

(المترجم).

الملهم الخامس - المناسبات

كان شوقي ذا موهبة عجيبة في سهولة النظم، وقد أثبت دائماً أنه قادر على نظم قصائد طويلة ذات نَفَس ملحميّ تَبَعَاً لأحداث الساعة، كما أنه كان قادراً أيضاً على نظم المقطعات أو القصائد القصيرة ذات المظهر الحيوي والفَرِح. وهناك قسم لا بأس به من (الشوقيات) يتألَّف من (قصائد مناسبات) كانت تنتج عن أحداث الساعة. وبهذا المعنى رأينا أن بإمكاننا أن نصنِّف تحت هذا المسمَّى العام جداً قصائد كثيرة التنوُّع: سواء من حيث المضمون أم من حيث الشكل: كالمدائح، والمراثي، ووقائع الحياة اليومية الدقيقة (ومن المناسب أن نضيف إليها قصائد النسيب). وهذه الأنواع الثلاثة تستحقّ أن نسميها قصائد مناسبات، بالمعنى الدقيق strico sensu. وقد كانت قصائد المديح والرثاء دائماً تقريباً ذريعة عند شوقي لتناول المواضيع الدينية، والسياسية، والاجتماعية:

١ - المدائح:

نعلم جيداً مدى استمرارالنقيضين (المديح) و(الهجاء) في الشعر التقليدي عند العرب: فالمديح يرتبط، في الواقع، ارتباطاً قوياً بالهجاء الذي يكون نقيضاً له بشكل من الأشكال، والأمثلة غير قليلة على شعراء كانوا يمدحون أمراء وحماةً للآداب بفضائلهم وكرمهم، ثم راحوا يهجونهم بعد انقلاب الحظ بينهم.

ولا نعرف لشوقي، على أي حال، قصائد هجاء، وكان يسرّ بعضَ النقاد أن يشيروا إلى أن (أمير الشعراء) لم تَطِب نفسُه السَّمْحَةُ أن ترِد (هذا المورِد البشع) [1].

(١) انظر مقالة: أثر الأدب العربي في شعر شوقي لأحمد الإسكندري، في: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٣، سنة ١٩٣٣، ص ١٥٨ [ويذكرنا هذا بطبع شاعر النيل حافظ إبراهيم المشابه لطبع شوقي في أمر الهجاء، فقد وصف شوقي قلم حافظ في المرثية التي خصَّه بها فقال (من الكامل) :

٢٠- قَلَمٌ جَرَى الحقَبَ الطِّوَالَ فَمَا جَرَى ... يَوْمَاً بِفَاحِشَةٍ وَلاَ بِهِجَاءِ

(انظر: الشوقيات، ٢٣/٣) ، فقد كان الشاعران مسالمين لا يحبّان أذى الناس ولا جرح مشاعرهم (المترجم)] .

ومما لا شك فيه أن بعض الشوقيات، وخاصة تلك التي أوحت بها النَّزْعَةُ الوطنية الملتهبة، كانت تحتوي على بعض الأبيات اللاذعة [١]، غير أن هذه الأبيات، مهما بدت عنيفة، لا تنتمي إلى النوع الهجائي، وهي لا تتضمَّن السخرية أو الفحش الذي يميِّز هذا النوع.

ونجد رأي شوقي في الهجاء، فوق هذا، يظهر بوضوح في بضعة أبيات من قصيدة نظمها بمناسبة صدور ديوان ابن زيدون بعناية كامل الكيلاني، فقد قال الشاعر فيها (من مجزوء الخفيف) [٢]:

١٥- وَإِذَا الْهَجْوُ هَـــاجَهُ　　لِمُعَانَاتِهِ أَبَـــــى
١٦- وَرَآهُ رَذِيلـــــــــــةً　　لا تُمَاشِي التَّأَدُّبَــا
١٧- مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِراً　　فَاضِلَ الخُلْقِ طَيِّبَا
١٨- دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ فِـــي　　زَنْبَقِ الشِّعْرِ عَقْرَبَا

ويشغل المديح، كما سنرى، حيِّزاً مهماً في (الشوقيات)، ومن العجيب بعض الشيء أيضاً أن نقرأ، في مقدمة ديوانه الأول [٣]، أنه كان يكره هذا النوع من الشعر، كما كان يأخذ على الشعراء القدماء تناولهم إياه، وكان يرغب في أن يكون الشعر خالياً من التنافس بين الشعراء. غير أنه لم يبرهن على رأيه هذا عندما دخل في علاقة مع الأمير [٤] وأصبح شاعره [٥]، فلم يُخْفِ غيرته من المتنبي لكونه شاعر سيف الدولة. وقد أصبح شوقي، في نهاية المطاف، شاعر الأمير، وصار بإمكانه أن يصرُخ بقوله متباهياً (من المقتضب) [٦]:

---

(١) انظر على سبيل المثال القصيدة التي تحمل عنوان (وداع اللورد كرومر) ، في: الشوقيات، ١/١٧٣-١٧٦ .

(٢) م.س.، ٤/٧٨-٧٩ .

(٣) يعني الطبعة الأولى من (الشوقيات) ، سنة ١٨٩٨، غير أن محمد صبري يرجح أن يكون تاريخ هذه الطبعة سنة ١٨٩٩، لأن تاريخ القصائد المنشورة ينتهي في سنة ١٨٩٩، انظر كتابه: الشوقيات المجهولة، ١/٢٦ (المترجم) .

(٤) يقصد به (عباس حلمي بن الخديوي توفيق) الذي أصبح خديوي مصر من سنة ١٨٩٢ إلى خلعه سنة ١٩١٤ (المترجم) .

(٥) وقد خصَّ الخديوي عباس شاعره أحمد شوقي ببضعة أسطر في مذكراته التي ترجمها عن الفرنسية جلال يحيى بعنوان (عَهْدِي) ، دار الشروق القاهرة - بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٤٨ فقال: (وتمكَّن أحمد شوقي بك العبقري، ذلك الرجل الذي عرفتُه وأحببتُه، والذي كان مديراً لإدارتي العربية، من أن يحقق للغة العربية وللفكر الوطني نهضة عظيمة. وكان صغير السِّن، وكان كلاسيكياً، وكانت قصائده تظهر في الصباح، لكي يتغنى بها الناس في المساء في جميع أنحاء البلاد . وكانت كلمته متَّسِقَة مع الروح الجديدة لمصر) (المترجم) .

(٦) الشوقيات، ٢/٩ ونلاحظ أنه يصف الأمير بلقب (العزيز) المعروف في سورة يوسف (ع) أي (عزيز مصر) ، وذكره مرة أخرى في القصيدة نفسها فقال: ٧٤- **يَا عَزِيْزُ دَامَ لَنَا　　رَوْضُ عِزِّكَ الأَشِبُ**

١٠- شَاعِرُ الْعَزِيْزِ وَمَا
بِالْقَلِيْلِ ذَا الْلَقَبُ

وقد ذكر طه حسين، بذكاء، أن هذا اللقب لم يكن بالقليل في نظر شوقي، لأنها أمنيته حين كان فتى صغيراً، وأمنيته حين أصبح شاباً يطلب العلم في مصر وأوربا، ولم يكن هذا اللقب بالقليل وهو يرى الحظوة التي كان يتمتع بها (علي الليثي) الشاعر لدى الأمير ومعاصريه، ولم يكن بالقليل في هذا الوسط الذي يذكّره دوماً بعهد إسماعيل بما فيه من فضائل ورذائل، وما فيه من مآثر ومخازٍ، كما يذكّره بالجاه الذي يتمتع به القصر ومن كان مقرباً من القصر، كما أن مثل هذا اللقب يمكن أن يفيد في تأجيج جذوة الشعر، وأن يُعَدّ سبيلاً إلى التفوق في الموهبة إن كان الأمير مثقفاً على غرار سيف الدولة [١].

وربما شعر شوقي، بعد تردُّدٍ في الفترة الأولى، بحاجته إلى تسويغ كتابته المدائح، فعقد نوعاً من التوازي بين طبيعة الشاعر النبيلة وعظمة روح الأمير الذي كان يمدحه، فقال (من الخفيف) [٢]:

٤- يُظْهِرُ الْمَدْحُ رَوْنَقَ الرَّجُلِ الْمَا
جِدِ كَالسَّيْفِ يَزْدَهِيْ بِالصِّقَالِ
٥- رُبَّ مَدْحٍ أَذَاعَ فِي النَّاسِ فَضْلاً
وَأَتَاهُمْ بِقُدْوَةٍ وَمِثَالِ [٣]

(١) انظر كتابه: حافظ وشوقي، ص٢١٢-٢١٣ .
(٢) الشوقيات، ١/١٨٨ .
(٣) أصاب شوقي في قوله هذا كبد الحقيقة، لأن فلسفة المديح عند العرب كانت تقوم على رسم الصورة المثالية للإنسان المحبوب في المجتمع، بذكر أبرز الصفات التي يتفاخر بها أهل كل عصر في عصرهم، حتى ينجذب الممدوح - الذي قد يمدح بما ليس فيه على الحقيقة - إلى التحلي بما وصفه به الشاعر من كريم صفات وحميد أخلاق، وحتى ينجذب القارئون أو السامعون لهذا المديح إلى التحلي بما رسم لهم الشاعر في شعره من جميل الصفات، ولعلَّ فحوى هذه الفلسفة ما ذكره أبو تمام في قوله المشهور (من الطويل) :
وَلَوْلاَ خِلاَلٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى   بُغَاةُ الْعُلاَ مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ
(انظر: ديوان أبي تمام، طبعة محمد عبده عزام، ٣/١٨٣) (المترجم) .

٦- وَثَنَاءً عَلَى فَتَىً عَمَّ قَوْمَاً
قِيْمَةُ الْعِقْدِ حُسْنُ بَعْضِ الْلآلِي
٧- إِنَّمَا يَقْدُرُ الْكِرَامَ كَرِيْمُ
وَيُقِيْمُ الرِّجَالُ وَزْنَ الرِّجَالِ

ويبدو أن النقد، من جانبه، قد أهمل مدائح شوقي في فترته الأولى، لأن بعضها كان قد قبع في ظلمة النسيان، ولم يتم الاحتفاظ بغير مطالعها الغزلية. وهناك مثالان يكفيان لتوضيح وجهة النظر المأسوف عليها هذه:

الأول – قصيدة لم تحتفظ (الشوقيات) [١] منها بغير الأبيات الستة الأولى في النسيب، وليس فيها أي فائدة تذكر، نظراً لابتذالها، ويمكن أن يعطينا المطلع وحده بما فيه من تكرار فكرة عن ذلك، ونصه (من الخفيف) [٢]:

١- لَحْظَهَا لَحْظَهَا رُوَيْداً رُوَيْداً
كَمْ إِلَى كَمْ تَكِيْدُ لِلرُّوْحِ كَيْدَا ؟

وتتميَّز أشعار المديح في هذه القصيدة، في المقابل، بقدرتها على البقاء والانتقال إلى المستقبل، وهي تظهر لنا جانباً من شخصية شوقي المدَّاح الذي كان يمزج النصائح بالمدائح كما في الأبيات التالية من تلك القصيدة التي يدعو فيها الخديوي، على وجه الخصوص، إلى ازدهار مصر، وحريتها، وطرد المحتل منها، إذ يقول [٣]:

---

(١) ويعني بـ (الشوقيات) هنا الطبعتين الثانية والثالثة، لأن هذه الأبيات الستة كانت في (الشوقيات) (الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨) مع أبيات في المديح تبلغ ١٣ بيتاً، أي أن أبيات القصيدة جميعاً ١٩ بيتاً، وكانت قد نشرت في صحيفة (الأهرام) يوم ١٨ آذار (مارس) من سنة ١٨٩٣ بعنوان (تهنئة بشهر الصوم) ، والتهنئة هنا موجَّهة إلى الخديوي عباس لقوله في بعضها: ٨- لَيْسَ لِلدَّهْرِ مِنْ وَفَاءٍ وَلَكِنْ هَابَ فِيْهَا الْعَبَّاسَ أَنْ يَسْتَبِدَّا
(انظر: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ١٥٢/١) (المترجم) .

(٢) الشوقيات، ١١٨/٢ وقد ظهرت أبيات النسيب الستة في طبعات (الشوقيات) الثلاث جميعاً (المترجم).

(٣) كان شوقي قد أسقط، في حياته، أبيات المديح الثلاثة عشر من الجزء الثاني من شوقياته (وقد تم طبعه سنة ١٩٣٠) ، لأسباب تتعلَّق بالظروف السياسية السائدة فيما نرجِّح، وأبقى على أبيات النسيب فقط، وتكرَّر ذلك في طبعة ١٩٦٤، والترقيمات التي نجدها في أبيات المديح هنا كانت بالنظر لموقعها في القصيدة الكاملة (المترجم).

١٠- وَارْفَعِ الصَّــوْتَ إِنَّ عَــصْــرَكَ حُــرٌّ

لَنْ يَرَى مِنْ سَــــمَــــاعِ صَـــوْتِكَ بُدَّا

....

١٣- وَمُـــــــــرِ الْـعِـلْـمَ أَنْ يَـزُوْرَ بِـلاَدَاً

عَـــهِـــدَتْهَـــا لَهُ الخَـــلاَئِقُ مَـــهْـــدَا

....

١٦- وَادْعُ سُـــــوْدَانَهَـــــا إِلَـيْكَ يُـلَبِّـيْ

إِنَّـهُ كَـــــانَ لِـلأَعِــــزَّةِ عَـــــبْـــــدَا

....

١٨- قُلْ لِـرَاجٍ أَنْ يَسْـــــتَـــــرِقَّ يَـرَاعِيْ

أَنَـا لاَ أَشْــتَــرِيْ بِذَا التَّــاجِ قَــيْــدَا

١٩- نَـوْمَــةُ السَّــيْفِ قَــدْ تَكُوْنُ حَــيَــاةً

وَرَأَيْــتُ الْــيَـــــــــرَاعَ إِنْ نَــامَ أَرْدَى

والثاني- قصيدة لم تحتفظ الشوقيات إلا بنسيبها الافتتاحي المبتذل (١)، وكان نصها الأصلي (٢) يتكوَّن من ٣٣ بيتاً، وقد توجَّه فيها بالتهنئة للسلطان عبدالحميد بمناسبة عيد العرش، فقال (من الكامل) (٣):

١٩- عِشْ يَا أَمِــيْــرَ الـمُــؤْمِنِينَ لأُمَّــةٍ

تَرْضَــــاكَ فِي الإِعْـــلاَنِ وَالإِسْــــرَارِ

....

(١) ويتكوَّن من ١٣ بيتاً فقط (المترجم) .

(٢) انظر هذا النص بأكمله في: الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٤٧/١-٢٤٨ وعنوان القصيدة (تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه) وتاريخ نظمها سنة ١٩٠١، وكانت قد نُشِرت في صحيفة (المؤَيَّد) في الفاتح من أيلول (سبتمبر) من السنة المذكورة (المترجم) .

(٣) الشوقيات المجهولة لمحمد صبري، ٢٤٧/١و٢٤٨ .

٢١- إِنَّ الَّذِيْ جَـــعَلَ الخِـــلاَفَـــةَ هَالَـةً
قَـــدْ زَانَـهَـــا بِالْبَـــدْرِ فِي الأَقْـــمَـــارِ
٢٢- أَلْقَى أَزِمَّـــتَـــهَـــا إِلَيْكَ وَحَـــازَهَا
لَكَ عَنْ خَـــلاَئِفَ أَرْبَعِـــيْنَ كِـــبَـــارِ[١]

....

٢٩- لَكَ أَنْ تُقِــرَّ الْبِــيْضَ فِيْ أَغْـمَــادِهَا
أَوْ تَتْـــرُكَ الدُّنْيَـــا بِغَـــيْـــرِ قَـــرَارِ
٣٠- فَــاخْــتَــرْ لِبَــأْسِكَ قِــرْنَهُ وَارْبَأْ بِـهِ
أَنْ يَلْتَـــقِيْ بِسَـــفَـــاسِفِ الأَحْـــرَارِ
٣١- إِنْ يَسْـتَـعِـيْنُوْا بِالسِّـبَـابِ فَـإِنَّهُ
حَـــوْلُ الضَّـــعِـيْفِ وَحِــيْلَةُ المِخْـــوَارِ

ويمكن تقسيم مدائح شوقي قسمين: الأول قصائده الامتثالية conformistes [٢] المشغولة جيداً، وهي تؤرِّخ للفترة التي كان فيها شوقي (شاعر الأمراء)، أي حتَّى عودته من منفاه [٣]. والثاني قصائده الأكثر جدية التي نظمها في بقية حياته، وتتناول تشكيلة أوسع من الشخصيات.

والقصيدة الأكثر تمثيلاً للفترة الأولى هي، بلا شك، مدحيته للخديوي إسماعيل[٤]، وهي ذات نَفَسٍ طويلٍ[٥] ولغةٍ متقنة، يقول فيها (من الخفيف)[٦]:

---

(١) وقد رأى محمد صبري هذا البيت أجود بيت في كل القصيدة، انظر: الشوقيات المجهولة، ٢٤٩/١ .
(٢) الامتثالية Conformisme فلسفة في الحياة تعني ميل المرء إلى التقيُّد بالأعراف المقرَّرة أو السائدة والتمسُّك بالمألوف (المترجم) .
(٣) وهذه الفترة تمتد من بداية نظمه الشعر أيام الخديوي توفيق إلى سنة ١٩١٩ التي عاد فيها من إسبانيا (المترجم) .
(٤) ظهرت هذه القصيدة، وهي بعنوان (الخديو إسماعيل) ، في الطبعة الثانية من (الشوقيات) ، ١٠٦/١-١١٥ ولكنها حذفت برمتها من الطبعة الثالثة (سنة ١٩٦٤) ، لأسباب سياسية تتعلق بمصر الثورة، وكانت القصيدة فيما يبدو لنا مليئة بالحنين إلى أيام الخديوي إسماعيل التي كانت مزدهرة ازدهاراً كبيراً في بعض المجالات وتعجّ بالحيوية والنشاط والإقبال على تطوير الحياة العامة، وكان إسماعيل مولعاً بالفخامة والبذخ ومسرفاً في صرف الأموال حتى أثقل كاهل مصر بالديون التي كانت ذريعة الغرب للتدخل في شؤونها الإدارية والداخلية، ومن ثم استعمارها سنة ١٨٨٢ على يد الإنكليز الذين أخفقت محاولتهم الأولى لاستعمارها سنة ١٨٠٧ (المترجم) .
(٥) لأنها تتكوَّن من ١٠٤ أبيات (المترجم) .
(٦) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦) ، ١٠٧/١ .

١٤- يَا أَجَلَّ الْكِرَامِ وَجْـــهَـــاً وَجَـــاهَاً
وَأَبَرَّ الْـوَرَى حَـــفِـــيْـــدَاً وَجَـــدًّا
١٥- وَكَـبِـيْـرَ الـحَـيَـاةِ فِي الْعَـصْـرِ وَالـعَـا
لِيَ فِـــيـــهِ فَـــمَـــا أَرَى لَـكَ نِدًّا
١٦- أَيْنَ كِـسـرَى وَأَيْنَ قَـيْـصَـرُ مِـمَّـا
نِلْتَ بِـالـمَـــجْـــدِ أَوْ بَلَـغْتَ مُـــجِـــدًّا
١٧- لَبِسَ الشَّـــرْقُ مِنْ لِقَـــائِكَ تَـاجَـــاً
وَتَـلَـقَّـى أَيَّـامَ رُشْـــــدِكَ عِـــــقْـــــدَا

ثم يلي هذه المبالغات المتألقة تعدادُ إنجازات الخديوي [1]:

٢٠- كُلَّ يَوْمٍ صَـــرْحٌ يُشَـــيَّـــدُ لِلْعِلْـ
ـمِ وَظِلٌّ يُـمَـــدُّ فِيْ مِـــصْـــرَ مَـــدَّا

....

٢٣- وَبَرِيْدٌ لَـهَـــا بِهِ تَسِـــيْلُ الْقُـــضْـ
ـبُ وَثَـانٍ بِـالْبَـــرْقِ أَجْـــرَى وَأَهْـدَى
٢٤- وَخُـطُـوْطٌ بِـهَـــا الـتَّـنَـائِيْ تَـدَانٍ
وَبُـخَـــارٌ بِـهِ الأَقَـــالِـيْمُ تَـنْـدَى
٢٥- وَبُيُـــوْتٌ لـلـهِ تُرْفَعُ فِـــيْـــهَـــا
وَقُـــصُـــوْرٌ تُشَـــادُ لِلْحُكْمِ شَـــيْـــدَا

....

٢٧- وَأَمَـــانِـيُّ لِـلـرَّعِـــيَّـــةِ تُـوْفَـى
وَحُـــقُـــوْقٌ فِـيْ كُـلِّ يَـوْمٍ تُـؤَدَّى
٢٨- وَوُفُـــوْدٌ إِلَـى الـمَـــمَـــالِكِ تُزْجَى
وَثَمِـــيْنٌ إِلَـى الخَـــوَاقِينِ يُـهْـــدَى

(١) م.س.، ١/١٠٧و١٠٨ .

٢٩- وَثَنَاءٌ تَسْـمُـو لَهُ صُحُفُ الْعَصْـ
ـرِ وَذِكْـرٌ يَسِـيْـرُ مِـسْكاً وَنَدًّا
٣٠- وَبِنَاءٌ بِالـمَـأْثُرَاتِ جُـسَـامٌ
يُوْرِثُ الدَّهْرَ وَالأَحَـادِيْثَ وَجْـدَا

وقد أشاد شوقي كما يجب بشق قناة السويس، وهو الحدَث الذي طبع الفترة، بأبيات مفعمة بالمبالغة [1]:

٤٤- كَانَ يَرْجُو الزَّمَانُ يَا نَاظِمَ الْبَحْـ
ـرَيْنِ أَنْ تَنْظِمَ الـمَـمَالِكَ عِقْـدَا
٤٥- صِلَـةٌ لِلأَنَـامِ بَـاتَ بِـهَـا الْـوِدْ
دُ شَتَـاتَـاً وَأَصْـبَحَ الرَّحْبُ سَـدًّا

....

٤٧- وَلَوَ انَّا صُنَّا وَصُنْتَ لَعِشْنَا الدْ
دَهْرَ فِي الْعِزِّ وَالسِّيَادَةِ رَغْـدَا

وختم شوقي القصيدة بجملة من الحسرات الأليمة، فقال [2]:

٦٨- وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللـهِ عَـوْنٌ
فَـاطِّرَاحُ الآمَـالِ بِالـنَّفْسِ أَبْدَى
٦٩- مَا لِعَصْـرٍ رَاكَ فِي الْعِزِّ لاَ يُرْ
سِلُ دَمْـعَـاً وَلاَ يَبُلُّ خَـدَّا
٧٠- أَيْنَ وِدٌّ عَـهِـدْتَ مِنْهُ وَعَطْفٌ
وَوَلاَءٌ مُـؤَكَّـدٌ كَـانَ أَبْدَى ؟!

---

(١) م.س.، ١/ ١١٠ .
(٢) م.س.، ١/١١٢و١١٣ .

٧١- وَمُلُوْكٌ لَهُ أَتَتْكَ وَسَادَا
تٌ حَدَاهَا إِلَيْكَ وَفْداً فَوَفْدَا
٧٣- فَرَأَيْتَ الحَمِيْمَ أَوَّلَ جَافٍ
وَوَجَدْتَ الْوَلِيَّ فِي الْبُؤْسِ ضِدًّا
٧٤- وَرِجَالاً لَوْلاَكَ لَمْ يَعْرِفُوا الْعَيْـ
ـشَ أَبَوْا أَنْ يُقَدِّمُوْا لَكَ حَمْدَا

....

٧٦- بَانَ مَجْدُ الْبِلاَدِ إِذْ بِنْتَ والصَّـ
ـصَفْوُ وَكَانَ الرَّجَاءُ حَيَّاً فَأَوْدَى
٧٧- وَدَهَتْكَ الخُطُوْبُ فِيْهَا فَلَمْ تَتْـ
ـرُكْ صَوَاباً لَنَا وَلَمْ تُبْقِ رُشْدَا

....

٨٨- عُدْ إِلَى مِصْرِكَ الْوَفِيَّةِ وَانْزِلْ
فِي ثَرَاهَا وَاسْكُنْ مِنَ المَهْدِ لَحْدَا

وقد استلهم شوقي أيضاً شخصية (محمد علي باشا) [١] في قصيدة ذات نغم جميل[٢]، أشار فيها إلى العمل النهضوي الذي نفَّذه رجلُ الدولة المصري المشهور، فقال (من الخفيف) [٣]:

---

(١) محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩) ، قائد تركي عثماني، غلب على الظن أنه ألباني لكونه قائد فرقة الألبان التي وصلت إلى مصر لمحاربة الفرنسيين في أواخر عهد حملتهم بمصر، نودي به والياً على مصر سنة ١٨٠٥، وقضى على حملة فريزر على مصر في رشيد سنة ١٨٠٧، كما قضى على بقايا أمراء المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة، فخلا له وجه مصر، فبدأ بتحديث جيشها وصناعاتها البحرية والحربية وأرسى قواعد العمران والنهضة العلمية فيها، فصارت له قوة فتح بها السودان والحجاز ونجداً والشام ووصل به الأمر إلى الرغبة في إسقاط الدولة العثمانية العلية نفسها، فاعترضت سبيله القوى الاستعمارية العظمى آنذاك فرنسا وبريطانيا، فقضت على أسطوله البحري سنة ١٨٤٠، واضطرته إلى الانسحاب إلى داخل حدود مصر، وأن يكون الحكم ذاتياً فيها له ولأكبر أبنائه من بعده وراثة حسب مقررات مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠، فأجهضت أول محاولة في العصر الحديث لبناء إمبراطورية عربية قوية ناهضة (المترجم) .

(٢) ونصها الكامل في: الشوقيات (طبعة ١٩٢٦) ، ١٠٣/١-١٠٥ وهي بعنوان (محمد علي باشا الكبير) ، وتتكوَّن من ٤٩ بيتاً، وقد حذفت برمتها من الطبعة الثالثة للشوقيات (سنة ١٩٦٤) ، لأسباب سياسية تتعلَّق بمصر الثورية (المترجم).

(٣) الشوقيات (طبعة ١٩٢٦) ، ١٠٣/١ .

١- عَلَمٌ أَنْتَ فِي الـمَــشَــارِقِ مُـــفْــرَدْ
لَكَ فِي الْعَــــالَمِيْنَ ذِكْــــرٌ مُـــــخَلَّدْ
٢- حَـــبَّـــذَا دَوْلَةٌ وَمُلْكٌ كَـــبِــيْـــرٌ
أَنْتَ بَانِيْ رُكْنَيْــهِــمَــا يَا مُــحَــمَّــدْ

ثم ضخَّم شوقي نغمته ذاكراً أن محمد علي باشا قد أمسك بيده تقرير مصير الشرق للنهوض به من خموله الذي كان قُبَالة الغرب موضعَ التَّبَعية، فقال [(١)]:

٢٠- يَا مُـدِيْمَ الرُّقَـادِ فِيْ خَـيْـرِ مَـرْقَـدْ
قُمْ فَــمَـــا حَلَّ قَـــبْلَكَ الأَرْضَ فَـــرْقَـــدْ
٢١- وَانْظُرِ الشَّـرْقَ كَـيْفَ أَصْـبَحَ يَهْـوِيْ
وَانْظُرِ الْغَـرْبَ كَـيْفَ أَصْـبَحَ يَصْـعَـدْ
٢٢- وَتَـأَمَّلْ مَــــمَــــــالِكَـاً وَبِـلاَدَاً
لَمَسَ الدَّهْرُ عِـــقْـــدَهَا فَـــتَــبَـــدَّدْ
٢٣- كُنْتَ تَحْـمِـيْـهِ وَالسُّـيُـوْفُ عَـوَارٍ
مَنْ لَهُ الْيَــوْمَ بِالـحُــسَــامِ الـمُـجَــرَّدْ

....

٢٨- مَـا سَـمِـعْنَا بِفَـاتِحٍ سَلَّ سَـيْـفَـاً
يَأْخُـــذُ الـمُلْكَ حَــــدُّهُ ثُمَّ أُغْــــمِــــدْ

وقد كانت أعمال محمد علي باشا نفسها تذكر ذكراً عاماً تماماً في الأغلب، كما هي الحال في المدائح والمراثي، يقول شوقي[(٢)]:

٣٣- زَعَـمُـوا الشَّـرقَ مِنْ فِـعَـالِكَ قَلْقَـاً
وَأَرَى الشَّـــرْقَ فِيْ يَمِـــيْنِكَ أَقْـــعَـــدْ

(١) م.س.، ١/١٠٤ .
(٢) م.س.، ١/١٠٥ .

٣٤- جِـئْـتَـهُ بِالحَـيَـاةِ وَالنُّوْرِ وَالتَّـمْـ
ـدِيـنِ وَالـرَّأْيِ وَالْـقَـنَـا وَالـمُـهَـنَّـدْ

وأتت الخاتمة التماساً يوجِّهه شوقي إلى مَنْ أَخَذ مِنْ سلالته الكريمة على عاتقه أن يقرِّر بيده مصير الشرق الإسلامي كله، فيقول [1]:

٤٥- يَا كَـرِيْمَ الـجُـدُوْدِ عِشْ لِبِـلاَدٍ
عَـيْـشُـهَـا فِيْ ذَرَى جُـدُوْدِكَ أَرْغَـدْ

٤٦- ذَاقَـتِ الأَمْـنَ فِـيْ ظِـلاَلِ عَـلِـيٍّ
حِـيْنَ لاَ أَمْنَ فِي الـمَـشَـارِقِ يُوْرَدْ

....

٤٩- وَلَـنَـا فِـيْ عُـلاَكَ مِـنْـهُ بَـدِيْـلٌ
عَلَمٌ أَنْتَ فِي الـمَـشَـارِقِ مُـفْـرَدْ

وفي الفترة الثانية من حياة شوقي، نجده يقول، من ضمن قصائد أخرى، قصيدتين مخصَّصَتين للملك فؤاد الأول: نظم القصيدة الأولى سنة ١٩٢٩ بمناسبة افتتاح (نادي الموسيقى الشرقي)، وقد أشاد فيها بالملك راعي الفنون، وانتهزها فرصة ليشير، في أبيات جاءت على صورة حِكَم، إلى الدور الذي يجب أن تؤديه الفنون في حياة الأمة، فقال (من الكامل) [2]:

١٩- جَـرِّدْ مِنَ الْفَنِّ الـحَـيَـاةَ وَمَـا حَـوَتْ
تَجِـدِ الحَـيَـاةَ مِنَ الجَـمَـالِ خَـلاَءَ

٢٠- بِالْفَنِّ عَـالجْتِ الحَـيَـاةَ طَبِـيْـعَـةٌ
قَـدْ عَـالجَتْ بِالْوَاحَـةِ الصَّـحْـرَاءَ

---

(١) م.ن.
(٢) م.س، ٤/٥٠ .

٢١- تَأْوِيْ إِلَيْـهَـا الـرُّوْحُ مِنْ رَمْـضَـائِهَـا
فَـتُـصِـيْبُ ظِلاً أَوْ تُصَـادِفُ مَـاءَ

وفي ختام أبياتٍ ذات طابع مدحي خالص للملك فؤاد، يكتشف المرء، هنا، رغبة لدى الشاعر كان قد عبَّر عنها في مواضع أخرى، في أن يرى الروابط تقوى بين جميع أفراد الشعب المصري من مسيحيين ومسلمين، إذ يقول (١):

٣٥- أَنْتَ الْلِوَاءُ الْتَفَّ قَـوْمُكَ حَـوْلَـهُ
وَالـتَّـاجُ يَجْـعَلُهُ الشُّـعُـوْبُ لِوَاءَ
٣٦- مِنْ كُلِّ مِـئْـذَنَـةٍ سَـمِـعْتَ مَـحَـبَّـةً
وَبِكُلِّ نَـاقُـوْسٍ لَـقِـيْتَ دُعَـاءَ
٣٧- يَتَـأَلَّفَـانِ عَلَى الْهُـتَـافِ كَـمَـا انْبَـرَى
وَتَـرٌ يُـسَـايِـرُ فِـي الْـبَـنَـانِ غِـنَـاءَ

واستلهم شوقي القصيدة الثانية، التي كانت مدحيةً وقصيدةَ مناسباتٍ معاً، من زيارة إلى الجيزة قام بها الملك فؤاد في كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٣٠، وكانت مفردات المدح فيها من البداية مستقاة من المخزون التقليدي لشاعر المديح (كالغَمَام، والبدر التَّمَام، والغيث..)، يقول (من الوافر) (٢):

١- بِأَرْضِ الـجِـيْـزَةِ اجْـتَـازَ الْـغَـمَـامُ
وَحَلَّ سَـمَـاءَهَا الْبَـدْرُ الـتَّـمَـامُ
٢- وَزَارَ رِيَاضَ إِسْـمَـاعِـيْلَ غَـيْثٌ
كَـوَالِدِهِ لَـهُ المِـنَـنُ الجِـسَـامُ

(١) م.س.، ٥١/٤ .
(٢) الشوقيات، ٧١/٤ .

ثم تابع سرد مبالغاته الجريئة قائلاً (١):

٩- مَــشَى فِيْ جِــيْــزَةِ الْفُــسْطَاطِ ظِلٌّ
كَــظِــلِّ الــنِّــيْــلِ بُــلَّ بِــهِ الأُوَامُ
١٠- إِذَا مَـــا مَسَّ تُرْبَاً عَـــادَ مِـــسْكَاً
وَنَافَسَ تَحْــتَـــهُ الذَّهَبَ الرَّغَـــامُ

ثم يستعرض بعض الإنجازات الاجتماعية التي رأت النور في عهد الملك فؤاد، فيقول (٢):

١١- وَإِنْ هُوَ حَلَّ أَرْضَــاً قَــامَ فِــيــهَــا
جِــــدَارٌ لِلْحَــــضَــــارَةِ أَوْ دِعَــــامُ
١٢- فَــمَــدْرَسَــةٌ لِحَــرْبِ الجَــهْلِ تُبْنَى
وَمُــسْــتَــشْــفَىً يُذَادُ بِهِ السَّــقَــامُ
١٣- وَدَارٌ يُسْــتَــغَــاثُ بِهَــا فَــتَــمْــضِيْ
إِلَى الإِسْــــعَــــافِ أَنْجَـــادٌ كِـــرَامُ

وختم شوقي القصيدة أيضاً بنداء إلى الملك فؤاد يلحّ عليه فيه بأن يُتِمَّ بناء مصر التي لم تَزَل في تحوُّل مستمر، يقول (٣):

٢٥- وَمِـــصْـــرُ بِنَاءُ جَــدِّكَ لَمْ يُتَـــمَّمْ
أَلَيْسَ عَلَى يَدَيْكَ لَهُ التَّـــــمَـــــامُ ؟!
٢٦- فَلَسْنَا أُمَّـــةً قَـــعَـــدَتْ بِشَـــمْسٍ
وَلاَ بَلَداً بِضَــــاعَــــتُــــهُ الْكَلاَمُ
٢٧- وَلَكِنْ هِمَّــــةٌ فِيْ كُلِّ حِـــــيْنٍ
يَشُـــــدُّ بِنَاءَهَا الْـمَلِكُ الْهُــــمَـــــامُ

....

(١) م.ن.
(٢) م.س.، ٧١/٤-٧٢ .
(٣) م.س.، ٧٢/٤و٧٣ .

٣٥- لِتَـــهْنَأْ مِـــصْــرُ وَلْيَـــهْنَأْ بَنُوْهَا
فَـــبَيْنَ الرَّأْسِ وَالجِـــسْمِ الْتِـــئَـــامُ

ولم يكتفِ شوقي، في هذه الفترة الثانية من حياته، بمدح الشخصيات المصرية أو الإسـلامـيـة، فـمـدح المهـاتما (غـاندي)[1]، الذي كـان في طريقـه إلى لندن، سنة ١٩٣١، للمشاركة في (مؤتمر المائدة المستديرة) Conférence de la Table Ronde، وتوقَّف في مصر، وألَحّ في مدحه على إبرازِ سموِّ (مذهب اللاعنف) [2]، فقال (من الهزج) [3]:

(١) المهـاتما غـاندي (١٨٦٩-١٩٤٧) ، معنى (مـهـاتما) بالهندية (القـديس أو صـاحب النفس العظيـمـة) ، كـان من أسـرة هندوسية محافظة وغنية، ووالده رئيس وزراء مقاطعة غوجارات الهندية، درس القانون في بريطانيا، وعمل في سلك المحاماة في الهند ثم في جنوب أفريقيا، أسس ما يعرف بالمقاومة السلمية للمستعمر البريطاني أو (فلسفة اللاعنف) التي تقوم على فضح مظالم المحتلين وتأليب الرأي العام عليهم لحصر هذا الظلم ومنعه من التفشي والقيام ببعض الإجراءات (كالصيام، والمقاطعة، والاعتصام، والقبول بالسجن، والعصيان المدني، والتزام الصمت) ، اختتمت حياته باغتيال أحد المتطرفين له قبيل استقلال الهند بقليل (المترجم) .

(٢) مذهب اللاعنف: أو المقاومة السلبية والعصيان المدني هو المذهب الذي رأى غاندي أنه سيوصل أهل الهند إلى انتزاع استقلالهم من الإنكليز، والحقيقة أن اتباع هذا المذهب لم يكن وراء استقلال الهند، وربما كان غاندي قد سار على هذا المذهب بإيحاء من الإنكليز أنفسهم، وقاموا بتلميع صورته وبث الشهرة له في الغرب والعالم، حتى لا يواجهوا بمقاومة مسلحة من عملاق كالهند لم يكن يسيطر عليه أكثر من مئة ألف جندي بريطاني، كما نعلم أن بريطانيا قد حقَّقت انتصارها في العلمين بمصر على جيش ألمانيا النازية بقيادة الماريشال (رومل) Rommel ، بخمس وعشرين فرقة أتت بها من الهنود الذين سخَّرتهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وكانت بريطانيا منذ سنة ١٩٣٣ في حاجة إلى مثل مبدأ (اللاعنف) هذا في مستعمراتها، وخاصة الهند العملاقة، بدليل عقدها اتفاقية ١٩٣٦ مع مصر على مبدأ الاستقلال، كما هدّأت الوضع في فلسطين في السنة نفسها مع الثورة الفلسطينية، وفعلت فرنسا في السنة نفسها أيضاً ما يشبه ذلك مع سورية، لأن بوادر الحرب العالمية الثانية كانت تلوح في الأفق . ولعل ما يؤيِّد عدم قناعة الشاعر بمذهب اللاعنف الغاندوي هذا، ما كان يذهب إليه من قول في الثورة السورية الكبرى على الفرنسيين سنة ١٩٢٥:

٤٤- وَلِلأَوْطَانِ فِيْ دَمِ كُلِّ حُـــرٍّ	يَدٌ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْـتَحَقُّ
٤٥- وَمَنْ يَسْقِيْ وَيَشْرَبُ بِالمَنَايَا	إِذَا الأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا وَيَسْقُوْا ؟!
٤٦- وَلاَ يَبْنِيْ المَمَالِكَ كَالضَّحَايَا	وَلاَ يُدْنِي الحُقُوْقَ وَلاَ يُحِقُّ
٤٧- فَفِي الْقَتْلَـى لأَجْيَالٍ حَـيَاةٌ	وَفِي الأَسْرَى فِدَىً لَهُمُ وَعِتْقُ
٤٨- وَلِلْحُرِّيَّةِ الحَمْرَاءِ بَـــابٌ	بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُـدَقُّ

(انظر: الشوقيات، ٢/٧٦-٧٧ والقصيدة بعنوان: نكبة دمشق) . وكذلك قوله في إحدى قصائده مؤيِّداً لرأي أبي تمام في قصيدة (عمورية) :

١٦- فَقُلْ لِبَانٍ بِقَوْلٍ رُكْنَ مَمْلَكَةٍ	عَلَى الْكَتَائِبِ يُبْنَى الْمُلْكُ لاَ الْكُتُبِ

(انظر: الشوقيات، ١/٦٠) (المترجم) .

(٣) الشوقيات، ٤/٨٣-٨٤ وقد استشهد الباحث بستة وعشرين بيتاً من أصل ٣٩ بيتاً، وقد اقتصرنا على الأبيات المختارة التي أثبتناها، لأننا نرى في هذه القصيدة ركَّة وضعفاً لم نلمسهما إلا نادراً عند شوقي، ويشعر القارئ أنه كان متعجِّلاً في نظمها لمجرد أداء واجب بروتوكولي لإظهار التقدير والاحترام، ولم يكن في دخيلة نفسه مقتنعاً بما يقول (المترجم) .

١- بَنِيْ مِصْرَ ارْفَعُوا الْغَارَ
وَحَيُّوْا بَطَلَ الْهِنْدِ

٢- وَأَدُّوْا وَاجِبَاً وَاقْضُوْا
حُقُوْقَ الْعَلَمِ الْفَرْدِ

٣- أَخُوْكُمْ فِي الْمُقَاسَاةِ
وَعَرْكِ الْمَوقِفِ النَّكْدِ

٤- وَفِي التَّضْحِيَةِ الكُبْرَى
وَفِي الْمَطْلَبِ وَالْجُهْدِ

٧- قِفُوْا حَيُّوْهُ مِنْ قُرْبٍ
عَلَى الْفُلْكِ وَمِنْ بُعْدِ

٨- وَغَطُّوا الْبَرَّ بِالآسِ
وَغَطُّوا الْبَحْرَ بِالْوَرْدِ

....

٢٤- سَلاَمُ النِّيْلِ يَا غَنْدِيْ
وَهَذَا الزَّهْرُ مِنْ عِنْدِي

٢٥- وَإِجْلاَلٌ مِنَ الأَهْرَا
مِ وَالْكَرْنَكِ وَالْبَرْدِي

٢٦- وَمِنْ مَشْيَخَةِ الْوَادِيْ
وَمِنْ أَشْبَالِهِ الْمُرْدِ

٢٧- سَلاَمٌ حَالِبَ الشَّاةِ
سَلاَمٌ غَازِلَ الْبُرْدِ

٢٨- وَمَنْ صَدَّ عَنِ الْمِلْحِ
وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى الشُّهْدِ

لم تكن مدائح شوقي، على كونها تقليدية، لتخلو من بعض الهفوات الغريبة التي تدهش المرء، وربما تفاجئه، لأن من ارتكبها شخص قَضَّى شبابه في أوساطٍ مترفة: فقد

قال في قصيدة نظمها بمناسبة الاعتداء المخفِق على الخليفة [1]، في شهر أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٠٥، من قِبَل بعض الأرمن، وهو قول عليه مِسْحَةُ خُيلاء المتنبي في الفخر (من الطويل) [2]:

٤٥- وَمَا زِلْتُ حَسَّانَ المَقَامِ وَلَمْ تَزَلْ
تَلِيْنِيْ وَتَسْرِيْ مِنْكَ لِي النَّفَحَاتُ [3]

٤٦- زَهِدْتُ الَّذِيْ فِيْ رَاحَتَيْكَ وَشَاقَنِيْ
جَوَائِزُ عِنْدَ اللهِ مُبْتَغَيَاتُ

٤٧- وَمَنْ كَانَ مِثْلِيْ أَحْمَدَ الْوَقْتِ لَمْ تَجُزْ
عَلَيْهِ وَلَوْ مِنْ مِثْلِكَ الصَّدَقَاتُ [4]

ثم ينتهي هذا المقطع ببيتٍ يسوِّغ فيه، إلى جانب أبيات كثيرة، ما ذاع عن صيت الكبرياء عن أمير الشعراء، إذ يقول (من الطويل) [5]:

٤٨- وَلِيْ دُرَرُ الأَخْلاَقِ فِي المَدْحِ وَالْهَوَى
وَلِلْمُتَنَبِّي دُرَّةٌ وَحَصَاةُ

---

(١) يعني به (السلطان عبد الحميد) (المترجم) .

(٢) الشوقيات، ٩٧/١ .

(٣) تلتبس كلمة (حسان) هنا في تورية جميلة بين صفة (حَسَن) ، ويعني قوله (حسان المقام) أنه (حسن المنْزِلة) عند السلطان، وبين اسم (حسان بن ثابت) شاعر النبي (ﷺ) ، وهذا ما ذهب إليه شارح الشوقيات (٩٧/١ هـ١) حين قال: (أي ما زلت قائماً منك مقام حسان من النبي عليه الصلاة والسلام . حسان بن ثابت الشاعر والصحابي) . ولعلَّ الباحث الفرنسي يستغرب أن يشبه شوقي نفسه بحسان، وما ينجم عنه في المقابل من معنى جَعْلِ الخليفة في مقام ممدوح حسان، وهو النبي (ﷺ) ، ويرى في ذلك هفوة من هفواته التي أشار إليها أعلاه (المترجم) .

(٤) ويرى الباحث لشوقي في هذا البيت أيضاً هفوة أخرى من هفواته بذكره اسم (أحمد) الذي هو اسم الشاعر، وهو – في الوقت نفسه – من أسماء النبي (ﷺ) ، وتبدو هذه الهفوة واضحة تماماً من خلال الشطر الثاني، الذي يرجِّح أن يكون المقصود بـ (أحمد) فيه النبي (ﷺ) لأنه لا يجوز له شرعاً ولا لأحد من بني هاشم أكل مال الصدقات، إبعاداً لهم عن أي شبهة استغلال للدعوة في حياتهم، كما ظن مانعو الزكاة بعد وفاة النبي (ﷺ) من أنها ضريبة يأكلها النبي (ﷺ) وبنو هاشم خاصة، وقريش عامة، فامتنعوا عن دفعها لسوء فهمهم لفريضة الزكاة في الإسلام على وجهها السديد وسوء فهم غاياتها: فكيف يسوِّغ الشاعر لنفسه أن يرقى إلى هذا المستوى من التشبيه ؟ أما إذا ذهب المرء إلى أن المقصود بـ (أحمد) هنا الشاعر المتنبي (لأن اسمه أحمد) ، بدليل الإشارة إليه في البيت ٤٨، فإنه أمر مستبعد، لأنه لم يعرف عنه عدم أكله الصدقات، ولا يستقيم المعنى أيضاً إذا ذهب المرء إلى أن شوقي كان يقصد بقوله (أحمد الوقت) إلى أنه (متنبي زمانه أو عصره) ، وإن كان قال في البيت ٤٤ من القصيدة نفسها (ملكتَ أميرَ المؤمنينَ ابنَ هانئ) يعني الشاعر (ابن هانئ الأندلسي) الذي لقبه النقاد بـ (متنبي الأندلس) (المترجم) .

(٥) الشوقيات، ٩٧/١ .

٢ - المراثـي:

تكوِّن المراثي وحدها ما يقارب رُبْعَ (الشوقيات) [(١)]، وقد جُمِعَتْ هذه المراثي معاً في الجزء الثالث [(٢)] منها، مرتَّبةً حسب التسلسل الهجائي لحروف القافية.

وقد اشتهر شوقي، على وجه الخصوص، من خلال هذا النوع الذي كان يتناوله أيضاً وَفْقاً لمعايير الشعر القديم، بأنه شاعر عصره وشاعر تطلُّعاته، مع أن الرثاء كان في أكثره قصائد مناسبات. ونرى في هذا الرثاء عرضاً للأسماء الكبيرة في عالم السياسة والأدب والموسيقى بمصر، وفي العالم الإسلامي، وحتى في أوربا. وتعطينا قوائم الشخصيات التالية فكرة أولية عن أهمية هذا النوع في إنتاج شوقي الشعري [(٣)]:

أولاً - الأقارب:

١- جدة شوقي (٣/٣٨).

٢- والدته (٣ / ١٤٦).

٣- والده (٣ / ١٥٤)

---

(١) وكون هذه المراثي بهذا الحجم ظاهرة تستحق الوقوف عليها بدراسة وتحليل خاصين، لأن ربع تفكير الشاعر وربع أوقات حياته الإبداعية في ميدان الشعر قد شُغِل بهذا الموضوع الإنساني المرتبط بالعلاقات بين الناس وبالموت وما يشكله فقدان الناس من فراغ وغير ذلك . وربما تفوق شوقي على كثير من الشعراء العرب القدماء والمحدثين، ونحن بحاجة إلى تفسير هذه الظاهرة عند شوقي لنقف على كوامن شخصيته ونصل إلى مفاتيحها الأساسية (المترجم) .

(٢) مما يؤسف له قلة العناية بهذا الجزء الثالث، لأن شرح المفردات ناقص فيه، كما أن هناك تقصيراً في التعريف بالشخصيات التي رثاها شوقي ولو بنبذ مختصرة، وقد اعتذر محمود أبو الوفا، الذي كُلِّف بنشر هذا الجزء وشرحه، عن ذلك بأنه كان عليه أن ينجز هذا العمل خلال عشرين يوماً (انظر: الشوقيات، ٣/١٨٧) ، وأرى أن الإهمال قد شمل الشوقيات بأجزائها الأربعة، ولذا فهي تستحقّ أن تكون موضوع عمل أكاديمي (للماجستير أو الدكتوراه) لإخراجها إخراجاً جديداً (بما فيها الشوقيات المجهولة) وترتيبها ترتيباً جديداً على أساس مبدأ واحد، مع ضبطها التام بالشكل، وطباعتها بحرف طباعي جميل، وتزويدها بفهارس نوعية تغطي كل جانب من جوانبها تسهيلاً لعمل العاملين في دراسة شيء من شعر شوقي عموماً، ومن العار أن تبقى الشوقيات على ما هي عليه اليوم، ذلك لأن شوقي يشكّل ظاهرة مهمة وانعطافة كبرى في شعرنا العربي ما بين القديم والجديد، فهو بحق آخر القدماء ورأس المحدثين، وهو الوصف الذي وصف به النقاد القدماء محقِّيْنَ بشار بن برد مخضرم الدولتين (المترجم) .

(٣) اتَّبعنا في ترتيب الأسماء، ضمن كل قائمة من القوائم الأربع، التسلسل الذي ظهرت به في الجزء الثالث من (الشوقيات) [(طبعة ١٩٦٤) (وقد أثبتنا إلى جانب كل اسم رقم الصفحة التي تبدأ بها قصيدة رثاء صاحبه من الجزء الثالث، وإذا كان للشخصية أكثر من قصيدة رثاء عطفنا أرقام الصفحات التي وردت فيها على الرقم الأول (المترجم)].

ثانياً- الشخصيات المصرية:

١- سليمان باشا أباظة (٣ / ٣).

٢- مصطفى باشا فهمي (٣ / ٥).

٣- أبو هيف بك (٣ / ٩).

٤- سيِّد درويش (٣ / ١٤).

٥- عبد الحليم العلايلي بك (٣ / ٢٠).

٦- حافظ إبراهيم (٣ / ٢٢).

٧- محمد تيمور (٣ / ٢٦).

٨- يعقوب صرُّوف (٣ / ٢٩).

٩- حسين شيرين بك (٣ / ٣٣).

١٠- محمد عبد المطلب (٣ / ٣٦).

١١- محمد عبده (٣ / ٤١).

١٢- رياض باشا (٣ / ٤٢).

١٣- عثمان باشا غالب (٣ / ٤٩).

١٤- عبد الحي [المغني] (٣ / ٥١).

١٥ - محمد ثابت باشا (٣ / ٥٣).

١٦- محمد فريد بك (٣ / ٥٥).

١٧- عبد الخالق ثروت باشا (٣ / ٦٢).

١٨- عبد العزيز جاويش (٣ / ٦٦).

١٩- عبده الحمولي (٣ / ٧٣).

٢٠- قاسم بك أمين (٣ / ٧٦).

٢١- عمر بك لطفي (٣ / ٨٣ و٨٥).

٢٢- مصطفى كامل باشا ([١ / ٢٢١-٢٢٤][1] و٣ / ٩١ و١٥٧).

٢٣- مصطفى لطفي المنفلوطي (٣ / ٩٤).

٢٤- عاطف بركات باشا (٣ / ٩٧).

٢٥- محمد المويلحي (٣ / ١٠١).

٢٦- إسماعيل باشا صبري (٣ / ١٠٤).

٢٧- علي باشا أبو الفتوح (٣ / ١٢١).

٢٨- سعيد بك زغلول (٣ / ١٣٢).

٢٩- أمين بك الرافعي (٣ / ١٣٤).

٣٠- سلامة حجازي (٣ / ١٣٨).

٣١- بطرس باشا غالي (٣ / ١٤٤).

٣٢- حسن بك أنور (٣ / ١٦١).

٣٣- والدة الخديوي عباس حلمي الثاني (أم المحسنين) (٣ / ١٦٣).

٣٤- الدكتور أحمد فؤاد (٣ / ١٦٦).

٣٥- عبد الله بك الطوير (٣ / ١٧٢).

٣٦- سعد باشا زغلول (٣ / ١٧٤).

٣٧- إسماعيل أباظة باشا (٣ / ١٨١).

٣٨- علي بهجت بك (٣ / ١٨٤) [2].

---

(١) وردت في هذا الموضع قصيدة في الذكرى ١٧ لرحيل مصطفى كامل بعنوان (شهيد الحق) وهي أجدر أن تضاف إلى مرثيتيه الأخريين، ولذا نبَّهنا عليها هنا (المترجم).

(٢) فات الباحث أن يضيف إلى قائمة الشخصيات المصرية بعض الأسماء التي كان لها قصائد رثاء، وهي: الأميرة (فاطمة إسماعيل) التي رثاها شوقي بقصيدة بعنوان (الأميرة) لما لها من فضل في تأسيس الجامعة المصرية، وتوفيت سنة ١٩٢٠، وهي أخت الخديوي توفيق (انظر نص القصيدة في: الشوقيات، ٣/٨٨). وهناك قصيدة أخرى في رثاء ابنة الشاعر محمود سامي البارودي التي ماتت في حياته (الشوقيات، ٣/١١٤). وقد رثى بقصيدة عنوانها (تعزية ورثاء) والد صديقه حامد بك خلوصي، وكان والده الأميرالاي مصطفى بك خلوصي من ضباط البحرية المصرية الكبار (انظر: الشوقيات، ٣/٦٩)، وهناك جملة كبيرة من المراثي لشخصيات مصرية نجدها لشوقي في (الشوقيات المجهولة) التي عني محمد صبري بتتبعها وجمعها وشرح ظروفها ومواضع نشرها وتواريخها، ولم يرد منها شيء في طبعات (الشوقيات) المختلفة (المترجم).

ثالثاً - شخصيات العالم الإسلامي:

١- محمد علي [وهو من الهند] (٣ / ١٢).

٢ - عمر المختار [من ليبيا] (٣ / ١٧). .

٣ - فوزي الغزي [من الشام] (٣ / ١٨٧). .

٤ - فتحي ونوري (طياران عثمانيان) (٣ / ١١٦).

٥- جورجي زيدان [من الشام] (٣ / ١٢٥).

٦ - أدهم باشا [قائد عثماني] (٣ / ١٤٠). .

٧ - عثمان باشا غازي [قائد عثماني] (٣ / ١٤٢).

٨ - الحسين بن علي [شريف مكة] (٣ / ١٥٠).

٩ - نجل إمام اليمن [سيف بن يحيى] (٣ / ١٦٩) .

رابعاً - شخصيات من العالم الغربي:

١- فكتور هوغو Victor Hugo [من فرنسا] (٣ / ٧١).

٢ - تولستوي Tolstoï [من روسيا] (٣ / ٨٠)

٣ - فردي Verdi[من إيطاليا] (٣ / ١٨٠)[١].

والجدير بالذكر أن هذه القصائد قد نُظِمَتْ في مناسبات متنوعة يمكن أن نرجعها إلى ثلاثة أيام حسب العادات في البلدان الإسلامية: الأول- يوم الوفاة (أو الأيام التي تليها)، والقصيدة التي تقال حينئذٍ، وهي الحالة الأكثر شيوعاً، تكون بصورة ما وحسب

(١) ويمكن أن نضيف إلى الشخصيات الغربية الثلاث اسم (نابليون) Napoléon ، الذي خصَّه شوقي بقصيدة ليست رثائية خالصة بل عرض لتأملاته في أعمال هذا القائد بعنوان (على قبر نابليون) (انظر: الشوقيات، ٢٥٣/١) . كما يمكن إضافة قصيدة (ذكرى كارنارفون) Caernarvon انظر: الشوقيات، ٨٤/١) ، وهو لورد إنكليزي يعمل في ميدان التنقيب الأثري، وهو مكتشف قبر الفرعون (توت عنخ آمون) سنة ١٩٢٢، والقصيدة تأملات في الحياة والموت، وعظمة الآثار المصرية القديمة، وقد مات اللورد من لسعة بعوضة من قبر الفرعون أو من نوع غامض من الإشعاع الذي امتصه بدنه عند الدخول إلى الضريح، وهو متَّهم باختلاس أغلى ما في الضريح مما خف حمله وغلا ثمنه (كتاج زوجة الفرعون وعقدها، وقد أهدى الأخيرَ إلى ابنة ملك إنكلترا كما مر بنا من قبل) . ونجد أيضاً بعض المراثي في شخصيات غربية في (الشوقيات المجهولة) لمحمد صبري، منها على سبيل المثال قصيدة من ١١ بيتاً في الشاعر الفرنسي المسرحي (موليير) Molière انظر: الشوقيات المجهولة، ٢٤٥/٢-٢٤٦) (المترجم) .

تعبير يحيى حقّي (برقية الشاعر بالتعزية) [1]. والثاني- اليوم الأربعين على وفاة الفقيد. والثالث - يوم الذكرى السنوية لوفاته.

ولكن أياً ما كانت الظروف التي تنظم فيها القصائد، فإن من الخطأ أن يُنْظَر إليها على أنها قصائد بسيطة تقال في مناسبات، لأننا إذا ما وضعنا الفضائل التي ذكرت فيها للفقيد، وجدنا الشاعر يشيد بمصر، وبالعالم العربي، أو بالإسلام.

وقد فسَّر يحيى حقّي [2] موقفَ شوقي هذا بإجراء مقارنة ذكية جداً بين مصر في أواخر القرن التاسع عشر وفي مطالع القرن العشرين وبين القبيلة في العصر الجاهلي، فرأى أن شوقي كان يمثّل شاعر القبيلة، وهذه القبيلة هي (مصر)، قلبُ العالم العربي الذي يتجمَّع حوله العالم الإسلامي [3]، وحينما كان شوقي يكتب مراثيه، لم يكن غرضه الأول أن يبكي الفقيد وأن يشيد بفضائله وأن يذرف الدموع عليه أو يقدِّم التعازي لأهله، بل كان غرضه كتابة تاريخ القبيلة، وهذا هو سرّ أشعاره الرثائية، ولا يحقّ لنا- بالنتيجة - أن نصنِّف مراثيه على أنها قصائد مبتذلة تقال في المناسبات.

وكان شوقي واعياً أيضاً لأهمية المرثية، ويمكن أن نكتشف من قراءة (الشوقيات)، وخاصَّةً الجزء الثالث، أبياتاً كثيرة على شكل (حِكْمَة) لا تترك مجالاً للشك في مضمونها. ولنذكر على سبيل المثال قوله (من الوافر) [4]:

١- عَظِيْمُ النَّاسِ مَنْ يَبْكِي الْعِظَامَا
وَيَنْدُبُهُمْ وَلَوْ كَانُوْا عِظَامَا

---

(١) انظر مقالته: مراثي شوقي، في مجلة: المجلة، العدد ١٤٤ (وهو خاص بأحمد شوقي) ، كانون الأول (ديسمبر) ، ١٩٦٨، ص٦٢ .

(٢) م.ن.

(٣) كانت المراثي تتسم بأنها كثيراً ما توشَّح بمواضيع تتعلَّق بالرابطة العربية، ففي مرثية (يعقوب صرُّوف) ، كتب شوقي البيت التالي الذي يدخل في معنى ملاحظة يحيى حقّي (من الطويل) :

٣٨- وَمَا الشَّرْقُ إِلاَّ أُسْرَةٌ وَعَشِيْرَةٌ   تَلُمُّ بَنِيْهَا عِنْدَ كُلِّ مُصَابِ

(انظر: الشوقيات، ٣١/٣) .

(٤) الشوقيات، ٥٦/٤ .

٢- وَأَكْــرَمُ مِنْ غَــمَــامٍ عِنْدَ مَــحْلٍ
فَـتَىً يُحْـيِيْ بِمِـدْحَـتِـهِ الْكِرَامَـا

وقوله هذا البيت الذي يذَكّر فيه بأهمية مراثيه، وهو بيت لا يخلو من نبرة خيلاء المتنبي (من الخفيف) (١):

٣٠- رُبَّ حُــرٍّ صَنَعْتُ فِـيْـهِ ثَنَاءً
عَـجَـزَ النَّاحِـتُـوْنَ عَنْ تِمْـثَـالِهْ

وكانت ردة فعل بعضهم لوم أمير الشعراء على أنه كان يبكي الكبراء برغبة انتهازية لم يصرِّح بها، ويبدو أن شوقي قد سمع مثل هذا اللوم أو أحس به، فقال (من الطويل) (٢):

١٣- يَقُـوْلُوْنَ يَرْثِيْ كُلَّ خِلٍّ وَصَـاحِبٍ
أَجَلْ إِنَّمَـا أَقْـضِيْ حُـقُـوْقَ صِـحَـابِي
١٤- جَـزَيْتُـهُمُ دَمْـعِيْ فَلَمَّـا جَـرَى الـمَـدَى
جَـعَلْتُ عُـيُـوْنَ الشِّـعْـرِ حُـسْنَ ثَوَابِي

وحين كتب مرثيته في (سعيد زغلول)، ارتاب بعضهم في ذكره لفضائل خاله (سعد زغلول)، فظن أن شوقي كان بذلك يلتمس لنفسه من هذا السياسي المصري الكبير مقعداً في مجلس النواب (٣).

وقد ردّ شوقي على هذه التعريضات المغرضة بقوله (من الخفيف) (٤):

٢٢- سَـيَـقُـوْلُوْنَ: مَـا رَثَاهُ عَلَى الْفَـضْـ
ـلِ وَلَـكِـنْ رَثَـاهُ زُلْـفَى لِخَـالِـهْ

....

(١) م.س.، ١٣٣/٣ .
(٢) م.س.، ٣٠/٣ .
(٣) انظر مقالة يحيى حقي: مراثي شوقي، ص٦٣ .
(٤) الشوقيات، ١٣٣/٣ .

٢٤- لَيْسَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ خَالِكَ إِلاَّ
أَنَّنِيْ مَا حَيِيْتُ فِيْ إِجْلاَلِهْ
٢٥- أَتَمَنَّى لِمِصْرَ أَنْ يَجْرِيَ الخَيْـ
ـرُ لَهَا مِنْ يَمِيْنِهِ وَشِمَالِهْ
٢٦- لَسْتُ أَرْجُوْهُ كَالرِّجَالِ لِصَيْدٍ
مِنْ حَرَامِ انْتِخَابِهِمْ أَوْ حَلاَلِهْ

ونُفَاجَأ، ونحن نقرأ المراثي المجموعة في الجزء الثالث من (الشوقيات)، بأهمية عرض شوقي المواضيع الوعظية التي تخصّ الموت وباتِّسَاعها، ويحقّ لنا، طبعاً، أن نتوقَّع العثور على حِكَمٍ وعظيةٍ كهذه، لأنها تُستَعْمَل في موضوع الرثاء على نطاق واسع، غير أن الأهمية التي تكتسبُها هذه الحكم هي أنها تدلّ على نوع من وَسْوَاس الموت لدى شوقي.

إن البنية النموذجية لمرثيةٍ ما يمكن أن ترجع غالباً إلى التصوُّر التالي:

١- وجود تمهيدٍ ذي مساحة متغيِّرة يتكوَّن من حِكَمٍ متراصَّة، يمكن أن نكتشف فيها أحياناً بعض الاقتراضات من شعراء العصر القديم، غير أنها غالباً ما تكون أيضاً مصنوعة من تأمُّلاتٍ عامّة وبلا أصالة كبيرة بشأن حديثها عن مصير الإنسان وقِصَر حياته.

٢- مخاطبة الشاعر، من ثَمَّ، للفقيد وسؤاله عن وضعه الجديد، محاولاً أن يكتشف ما يظلّ أعظم الأسرار على الإطلاق عند الأحياء.

٣- ويأتي بعد ذلك عرض المرثية المحضة التي تُسْتَعْرَض فيها فضائل الفقيد وأعماله، كما تذكَر معها غالباً حِكَمٌ أخرى.

٤- ويستنبط الشاعر، أخيراً، من كل ما تقدَّم، دروساً مفيدة لمصر، وللشبيبة المصرية، ولرجال السياسة أو الأدب، حسب الشخصية المرثية بالقصيدة.

إن التوازن بين هذه الأجزاء الأربعة المختلفة من المرثية متفاوتة جداً، غير أن المواضيع الوعظية عن الموت تبقى مسيطرة عليها دائماً. يقول شوقي في مطلع مرثية (محمد ثابت باشا) (من الخفيف) [(١)]:

١- سِــــرْ أَبَـا صَــــالِحٍ إِلَى اللـهِ وَاتْرُكْ
مِـــصْـــرَ فِيْ مَـــأْتَمٍ وَحُـــزْنٍ شَــــدِيْدِ

٢- هَـذِهِ غَــــــايَـةُ الـنُّـفُــــــوْسِ وَهَـذَا
مُنْتَــهَى الْعَــيْشِ: مُــرَّهُ وَالـرَّغِــيْــدِ

٣- هَـلْ تَـرَى الـنَّـاسَ فِـيْ طَـرِيْـقِـكَ إِلاَّ
نَـعْشَ كَـــــــهْلٍ تَـلاَهُ نَـعْشُ وَلِـيْــــــدِ

وغالباً ما يأخذ هذا التمهيدُ الرثائي شكل عرضٍ له بعض الأهمية، كما تشهد على ذلك الأمثلة التالية، حيث يقول شوقي في مرثية (محمد فريد بك) (من الخفيف)[(٢)]:

١- كُلُّ حَـيٍّ عَلَـى الـمَنِيَّــــةِ غَــــادِي
تتَــــوَالَى الـرِّكَــابُ وَالـمَــوْتُ حَــادِي

٢- ذَهَبَ الأَوَّلُـوْنَ قَــــرْنَـاً فَــــقَــــرْنَـاً
لَـمْ يَدُمْ حَــــــاضِـــــرٌ وَلَـمْ يَـبْقَ بَـادِي

٣- هَـلْ تَـرَى مِنْـهُـمْ وَتَـسْـــــمَـعُ عَنْـهُـمْ
غَـــــيْــــــرَ بَـاقِـيْ مَـــــآثِرٍ وَأَيَـادِي

٤- كُــــرَةُ الأَرْضِ كَمْ رَمَتْ صَـــوْلجَــانَاً
وَطَـوَتْ مِنْ مَـــــلاَعِبٍ وَجِـــــيَـــــادِ

٥- وَالْغُـبَـارُ الَّذِيْ عَلَى صَـفْـحَـتَـيْـهَـا
دَوَرَانُ الـرَّحَـى عَـلَـى الأَجْـــــسَـــــادِ

(١) م.س.، ٣/٥٣ .
(٢) م.س.، ٣/٥٥ .

٦- كُلُّ قَبْرٍ مِنْ جَانِبِ الْقَفْرِ يَبْدُوْ
عَلَمَ الحَقِّ أَوْ مَنَارَ المَعَادِ

أو كما يقول في مطلع مرثية (عبد الخالق ثروت باشا)، الذي توفي في فرنسا سنة ١٩٢٨، خلال رحلة في أوربا تدخل في إطار المفاوضات السياسية (من البسيط)[١]:

١- يَمُوْتُ فِي الْغَابِ أَوْ فِيْ غَيْرِهِ الأَسدُ
كُلُّ الْبِلاَدِ وِسَادٌ حِيْنَ تُتَّسَدُ
٢- قَدْ غَيَّبَ الْغَرْبُ شَمْسَاً لاَ سَقَامَ بِهَا
كَانَتْ عَلَى جَنَبَاتِ الشَّرْقِ تَتَّقِدُ
٣- حَدَا بِهَا الأَجَلُ المَحْتُوْمُ فَاغْتَرَبَتْ
إِنَّ النُّفُوْسَ إِلَى آجَالِهَا تَفِدُ
٤- كُلُّ اغْتِرَابٍ مَتَاعٌ فِي الحَيَاةِ سِوَى
يَوْمٍ يُفَارِقُ فِيهِ المُهْجَةَ الجَسَدُ

أو كما قال في مطلع مرثية (مصطفى كامل باشا) (من مجزوء الخفيف) [٢]:

١- لَمْ يَمُتْ مَنْ لَهُ أَثَرْ — وَحَيَاةٌ مِنَ السِّيَرْ
٢- أُدْعُهُ غَائِبَاً وَإِنْ — بَعُدَتْ غَايَةُ السَّفَرْ
٣- آيِبُ الْفَضْلِ كُلَّمَا — آبَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرْ
٤- رُبَّ نُوْرٍ مُتَمِّمٍ — قَدْ أَتَانَا مِنَ الحُفَرْ
٥- إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ مَشَى — مَيِّتَ الخَيْرِ وَالخَبَرْ

وكانت الحِكَمُ المتعلِّقة بالموت تتيح المجال، أحياناً، لعرضٍ فيه شيء من الاتِّسَاع داخل القصيدة. وكان الشاعر يتوجَّه بالخطاب عندئذٍ إلى الفقيد ليسأله عما هو الموت، كالمقطع التالي من مرثية (رياض باشا)، إذ يقول شوقي (من الوافر) [٣]:

(١) م.س.، ٦٢/٣ .
(٢) م.س.، ٩١/٣ .
(٣) م.س.، ٤٥/٣-٤٦ .

٥٣- رَهِيْنَ الرَّمْسِ حَـــــدِّثْنِيْ مَلِيَّــــاً

حَـــــدِيْثَ الـمَــــوْتِ تَبْــــدُ لِيَ الْعِظَاتُ

٥٤- هُوَ الخَــبَــرُ الْيَــقِينُ وَمَــا سِــوَاهُ

أَحَـــــــادِيْثُ الـمُنَى وَالـتُّـــــــرَّهَاتُ

٥٥- سَــأَلْتُكَ: مَـا الـمَنِيَّــةُ ؟ أَيُّ كَـأْسٍ ؟

وكَـــيْفَ مَـــذَاقُـــهَـــا ؟ وَمَنِ السُّـــقَـــاةُ ؟

٥٦- وَمَـــاذَا يُوْجِسُ الإِنْسَـــانُ مِنْهَـــا

إِذَا غَـــصَّتْ بِعَلْقَـــمِـــهَـــا اللَّهَـــاةُ ؟

٥٧- وَأَيُّ الـمَــصْــرَعَــيْنِ أَشَــدُّ: مَــوْتٌ

عَلَى عِلْمٍ أَمِ الـمَـــــوْتُ الْفَـــــوَاتُ ؟

٥٨- وَهَلْ تَقَعُ النُّفُـــوْسُ عَلَى أَمَـــانٍ

كَـــمَـــا وَقَـــعَتْ عَلَى الحَــرَمِ الْقَطَاةُ ؟

٥٩- وَتَخْلُدُ أَمْ كَـــزَعْمِ الْقَـــوْلِ تَبْلَى

كَـــمَـــا تَبْلَى الْعِظَامُ أَوِ الرُّفَـــاتُ ؟

٦٠- تَعَــالَى اللهُ قَــابِضُــهَــا إِلَيْــهِ

وَنَاعِـشُــهَـا كَـمَـا انْتَـعَشَ النَّبَـاتُ

٦١- وَجَــازِيْهَـا النَّعِـيْمَ حِـمَىً أَمِـيْنَاً

وَعَــــــيْــــــشَــــــاً لاَ تُكَدِّرُهُ أَذَاةُ

....

٦٣- أَلَيْسَ الحَقُّ أَنَّ الْعَــيْشَ فَـــانٍ

وَأَنَّ الحَيَّ غَـــايَتُـــهُ الـمَـــمَـــاتُ

ويحدث كثيراً أيضاً أن معالجة موضوع الموت، الذي ينقطع عند تعداد فضائل الفقيد، يعود ثانية على شكل لازمة تتكرَّر: فمثلاً يقول شوقي في المرثية التي خصّ بها جدَّته (تَمْزَار) [١] (من الوافر) [٢]:

١- خُلِقْنَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ
وَمِنْ هَذَيْنِ كُلُّ الحَادِثَاتِ
٢- وَمَنْ يُوْلَدْ يَعِشْ وَيَمُتْ كَأَنْ لَمْ
يَمُرَّ خَيَالُهُ بِالْكَائِنَاتِ
٣- وَمَهْدُ المَرْءِ فِيْ أَيْدِي الرَّوَاقِيْ
كَنَعْشِ المَرْءِ بَيْنَ النَّائِحَاتِ
....
٥- هِيَ الدُّنْيَا قِتَالٌ نَحْنُ فِيْهِ
مَقَاصِدُ لِلْحُسَامِ ولِلْقَنَاةِ
....
٣٠- وَلَو أَنَّ الجِهَاتِ خُلِقْنَ سَبْعَاً
لَكَانَ المَوْتُ سَابِعَةَ الجِهَاتِ

ويقول شوقي في (ذكرى اللورد كارنارفون) (من الكامل) [٣]:

٧- هُوَ مَنْزِلُ السَّارِيْ وَرَاحَةُ رَائِحٍ
كَثُرَ النَّهَارُ عَلَيْهِ فِيْ إِتْعَابِهِ
٨- وَشِفَاءُ هَذَي الرُّوْحِ مِنْ آلَامِهَا
وَدَوَاءُ هَذَا الجِسْمِ مِنْ أَوْصَابِهِ

(١) تمزار: جدة شوقي لأمه، وهي يونانية سبيت في بعض تدخلات محمد علي باشا بأسطوله البحري مع الدولة العثمانية ضد اليونان، وكانت ابنة عشر سنين، وهي زوجة (أحمد بك النجده لي) وهو تركي الأصل من الأناضول، وكانت تمزار قد كفلت حفيدها من ابنتها وربته وأحسنت تنشئته، وتوفيت عن تسعين عاماً (المترجم) .
(٢) الشوقيات، ٣/٣٨و٤٠ .
(٣) م.س، ١/٨٥ .

١٠- مَــا مَــاتَ مَنْ حَــازَ الثَّــرَى آثَارَهُ
وَاسْــتَــوْلَتِ الدُّنْيَــا عَلَى آدَابِهِ

ويقول في مرثية (يعقوب صرُّوف) (من الطويل) [١]:

١- سَــمَــاؤُكِ يَا دُنْيَــا خِــدَاعُ سَــرَابِ
وَأَرْضُكِ عُــمْــرَانٌ وَشِيْــكُ خَــرَابِ
٢- وَمَــا أَنْتِ إِلاَّ جِــيْــفَــةٌ طَالَ حَــوْلَهَــا
قِــيَــامُ ضِــبَــاعٍ أَوْ قُــعُــوْدُ ذِئَابِ

....

٧- تَسُــوْقِينَ لِلْمَــوْتِ الْبَنِينَ كَــقَــائِدٍ
يَرَى الجَــيشَ خَلْقَــاً هَيِّنَاً كَــذُبَابِ
٨- رَأَى الحَــرْبَ سُلْطَانَاً لَهُ وَسَــلاَمَــةً
وَإِنْ آذَنَتْ أَجْنَادَهُ بِتَــبَــابِ

....

٤٩- وَكُلُّ أَخِيْ عَــيْشٍ وَإِنْ طَالَ عَــيْــشُــهُ
تُرَابٌ لَعَــمْــرُ الــمَــوْتِ وَابْنُ تُرَابِ [٢]

ومع ذلك فإن شوقي كان يعبِّر عن الحكمة، في أغلب الأوقات، ببيتٍ مفرَدٍ (وأحياناً ببيتين)، ويكتفي بهما فقط. وهذه بعض أفضل حِكَمه [٣]:

١٦- بَنِيْ دِمْــيَــاطَ مَــا شَيْءٌ بِبَــاقٍ
سِــوَى الْفَــرْدِ الَّذِي احْــتَكَرَ الْبَــقَــاءَ [٤]

....

(١) م.س.، ٣/٢٩و٣٢ .

(٢) ويذكرنا هذا البيت على وجه الخصوص ببيت كعب بن زهير المشهور (من قصيدة البردة أو بانت سعاد)، على الرغم من اختلاف البحر والقافية: **كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ يَوْماً عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُوْلُ**

(٣) يعبِّر اختيار هذه الحِكَم هنا عن رأي الباحث (المترجم) .

(٤) من مرثية (عبد الحليم علايلي بك) ، انظر: الشوقيات، ٣/٢١ (من الوافر) .

٩ - وَكُلُّ بِسَــاطِ عَــيْشٍ سَــوْفَ يُطْوَى

وَإِنْ طَـالَ الـزَّمَــــــانُ بِـهِ وَطَـابَـا [(١)]

....

٣- هُوَ الدَّهْرُ: مِـيْـلادٌ فَـشُـغْلٌ فَـمَـأْتَمٌ

فَذِكْرٌ كَمَا أَبْقَى الصَّدَى ذَاهِبُ الصَّوْتِ [(٢)]

....

٢١- الجِـــــدُّ غَـــــايَـةُ كُـلِّ لاَهٍ لاَعِبٍ

عِنْدَ الـمَنِيَّـــةِ يَجْـــزَعُ المِفْـــرَاحُ [(٣)]

....

٩- لَمْ يُبْقِ لِلضَّاحِكِينَ الـمَوْتُ مَا وَجَدُوْا

وَلَـمْ يَرُدَّ عَلَى الْبَـاكِينَ مَـا فَـقَـدُوْا [(٤)]

....

٨- كَـــــأْسُ الــمَنِيَّـــــةِ فِـيْ يَدٍ

عَـــسْـــرَاءَ مَـــا مِنْهَـــا فِـــرَارْ [(٥)]

....

٢٤- وَالْعَـيْشُ آمَـالٌ تَـجِــدُّ وَتَنْقَـضِيْ

وَالـمَـوْتُ أَصْـدَقُ وَالحَـيَـاةُ غُـرُوْرُ [(٦)]

....

٢٥- فَــــــــاطِـمُ مَـنْ يُـوْلَـدْ يَـمُـتْ

الـمَــهْــدُ جِـــسْــرُ الـمَــقْــبَـرَهْ [(٧)]

....

---

(١) من النبوية (ذكرى المولد أو سلوا قلبي) ، انظر: م.س.، ٦٨/١ (من الوافر) .

(٢) من مرثية (محمد عبده) ، انظر: م.س.، ٤١/٣ (من الطويل) . وهذه المرثية تتألّف فقط من ثلاثة أبيات، وهي هزيلة جداً وسطحية المعاني، علماً أن الشيخ الإمام كان علماً عظيماً في تاريخ الأمة، وقد رثى شوقي أناساً لا صيت لهم ولا منْزِلة رثاء مطولاً جداً أحياناً: فما سر هذا التقصير المريع من أمير الشعراء ؟ (المترجم) .

(٣) من مرثية المغني (عبد الحي) ، انظر: الشوقيات، ٥٢/٣ (من الكامل) .

(٤) من مرثية (عبد الخالق ثروت باشا) ، انظر: الشوقيات، ٦٢/٣ (من البسيط) .

(٥) من مرثية في الأميرالاي (مصطفى بك خلوصي) ، انظر: الشوقيات، ٦٩/٣ (من مجزوء الكامل) .

(٦) من مرثية (فكتور هوغو) ، انظر: الشوقيات، ٧٢/٣ (من الكامل) .

(٧) من مرثية (الأميرة) أي (فاطمة إسماعيل) ، انظر: الشوقيات، ٨٩/٣ (من مجزوء الرجز) .

٢٠ - دَقَّــاتُ قَلْبِ الـمَــرْءِ قَــائِلَةٌ لَـهُ:
إِنَّ الـحَـــيَـــاةَ دَقَـــائِقٌ وَثَـوَانِي[(١)]

أما مراثي شوقي لأقاربه، فقد بلغه في أواخر فترة إقامته منفياً بإسبانيا، سنة ١٩١٨، نعيُ أمِّه، فاستلهم من ذلك قصيدة مثيرة للاهتمام لأكثر من سبب. ويجدر بنا أن نبيِّن، قبل كل شيء، ردّاً على بعض الانتقادات المغرضة، أن هذه القصيدة نُشِرَتْ بعد وفاة شوقي، وذلك لأنه - كما لاحظ يحيى حقّي[(٢)] - ربما كان يعاني من شعور بالحياء من تخيُّلِ أنه كان يعزي فيها نفسه عن فقد أمه، بالبحث عن حِكَمٍ، والعناية باللغة الجميلة، ونظم الشعر.

وحين كان شوقي ينظم هذه المرثية، لم يكن هناك أي شكّ في أنه كان يفكِّر في المتنبي، فالحالة عند الشاعرين، في الواقع، واحدة: حيث تموت أمُّ أحدهما، وتموت جَدَّةُ الآخر- كما يقال - من الفرحة، حين تتلقى الأولى خبر عودة ابنها من منفاه، والأخرى خبر عودة حفيدها من تجواله في البلاد [(٣)]. فمصدر الإلهام والموضوع واحد تقريباً، وقد استعمل شوقي البحر الذي استعمله المتنبي في رثاء جدَّته (وهو الطويل)، كما استعمل القافية نفسها [مع حركتها أيضاً] (وهي: مَا). يقول المتنبي [(٤)]:

١- أَلاَ لاَ أُرِي الأَحْـدَاثَ مَـدْحَـاً وَلاَ ذَمَّـا
فَـمَـا بَطْشُـهَـا جَـهْـلاً وَلاَ كَـفُّـهَـا حِلْمَـا

ويقول شوقي [(٥)]:

(١) من مرثية (مصطفى كامل باشا)، انظر: الشوقيات، ١٥٨/٣ (من الكامل).
(٢) انظر مقالته: مراثي شوقي، ص٦٢.
(٣) ورد في ذكر مناسبة قصيدة المتنبي في رثاء جدته، حين علم بشوق جدته إليه، بعد طول غياب في البلاد سعياً وراء المجد، وتعذَّر عليه أن يأتي إليها في الكوفة، فوجَّه إليها كتاباً بأن تسير إليه في بغداد (فقبَّلت كتابَه، وحُمَّتْ لوقتها سروراً به، وغلب الفرَحُ على قلبها، فقتلها)، انظر: شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ٢٢٦/٤ (المترجم).
(٤) ديوان المتنبي (طبعة ناصيف اليازجي، دار صادر - دار بيروت، سنة ١٩٦٤)، ٣٤٣/١ [= شرح ديوان المتنبي للبرقوقي، ٢٢٦/٤].
(٥) الشوقيات، ١٤٦/٣.